اكتشاف الكتاب المقدس

قيامة المسيح في سيناء



جيمس بنتلي

ترجمة آسيا محمد الطريحي



سينا للنشر

جيمس بنتلي

اكتشاف الكتاب المقدس
قيامة المسيح في سيناء

ترجمة آسيا محمد الطريحي



سينا للنشر

توطـئة

صور عن الغموض
الذى أحاط بدير القديسة كاثرينا

بقلم : جيمس شارلس ورث

ظلت المنطقة الواقعة جنوبى صحراء سيناء مركزًا للتقاليد السرية لآلاف السنين . حيث يوجد فى تلك المنطقة الجبل الذى تسلم فيه موسى الوصايا العشر ، وبالقرب منه يقع التل الذى عَبَدَ فيه الإسرائيليون العجل الذهبى .

وتقع فى المنطقة الكهوف التى التجأ إليها إيليا ، ودير «القديسة كاثرينا» المحاط بجدران شاهقة، لقد كانت جدران ذلك الدير مثار اهتمامى فى رحلتى الأولى إلى المنطقة عام ١٩٧٩ . أما القسم الثانى والأخير من رحلتى فقد تمت تغطيته من خلال نافذة الحافلة التى أقلتنا، الأمر الذى جعلنى أتعاطف مع «قسطنطين تشيندروف» الذى عانى ، كما يبدو، كثيرًا من حرارة الشمس المحرقة ، ورمال الصحراء ، ومشية الجمال الرتيبة ، وذلك فى طريق زيارته دير القديسة كاثرينا .

وبحسب ما أتذكر كان الدير يقع ضمن الأراضى التى احتلتها «إسرائيل» . وغالبًا ما كنا نشاهد الجنود الإسرائيليين يحملون رشاشاتهم الصغيرة ، وهم يشهدون ضجيج السياح . ويبدو أن الحصار الإسرائيلى امتد ليشمل الدير أيضًا ورغم ذلك فقد تمكنت من التحدث إلى رئيس الأساقفة «داميانوس» عبر الهاتف .

وبدت رحلتى إلى الدير هذه المرة مختلفة تمامًا عن رحلتى السابقة . فخلال رحلتى السابقة استأجرت سيارة من طراز بيجو من القاهرة وتوجهت بها إلى الدير . وقد استغرقت

الرحلة من القاهرة إلى الدير ثمانى ساعات دون توقف ، باستثناء مرة واحدة ، اضطررنا فيها إلى التوقف للتزود بالوقود من إحدى محطات التعبئة .

وعند الاستدارة الأخيرة حول الجبل ظهرت أمامى فجأة جدران الدير الشاهقة والذى يعود تاريخه إلى القرن السادس الميلادى .

وعند اقترابى من الدير انتابنى شعور غريب ربما كان مبعثه الأجواء المحيطة بالدير، مثل الجدران الشاهقة التى تحيط بالدير ، والسكون الغريب ، وبرودة الليل ، وبريق النجوم فى السماء الصافية .

وفجأة لمعت فى ذهنى ، فى ذلك الجو الغريب ، فكرة اكتشاف الغرفة المقفلة فى الدير ، التى تقع بالقرب من الجدار الشمالى، والتى تضم كنوزًا فنية ومخطوطات قديمة . لقد أُكتشفت تلك الغرفة عام ١٩٧٥ . ونشرت ثلاثة مقالات عن تلك المكتشفات المثيرة . إلا أننى ، حتى الآن، لم أجد جوابًا عن السؤال الذى وجهه عديدٌ من العلماء حول المكان الحالى لتلك الكنوز . ويعتقد البعض بأن تلك الكنوز والمخطوطات النفيسة قد أعيد إخفاؤها خارج الدير فى أماكن سرّية معروفة لدى بعض الرهبان فقط .

أما زيارتى الثانية إلى الدير فقد زودتنى بجواب عن تلك التساؤلات ؛ وكان جوابًا غير شافٍ ، فضلاً عن أن الزيارة منحتنى لحظات سعيدة لا تُنسى .

وعندما توطدت معرفتى برئيس الأسافقة «داميانوس» ، وبدأ يشعر باطمئنان نحوى ، وفرّ لى الفرصة للاطلاع على المخطوطات .

وقد اصطحبنى رئيس الأساقفة «داميانوس» إلى القسم الجنوبى من الدير، وبعد مرورنا بغرفة المطالعة، التى احتوت على صور مصغرة للمخطوطات والكتب والرقيقات والمايكروفيلم التى رُتِّبتْ بشكل حديث وعلمى، توجهنا نحو غرفة خلفية ضمت كتبًا ومخطوطات قديمة، وشاهدت فى الغرفة سلمًا حلزونيًا يفضى إلى الطابق الثانى الذى حُفظت فيه مخطوطات أخرى .

وبعد فحصى بقايا بعض المخطوطات اليونانية ، سألنى رئيس الأساقفة عما إذا كانت لدىّ الرغبة فى الاطلاع على مخطوطات سيناء .

كدت أطير فرحًا لدى سماعى ذلك المقترح ، لذا أجبت على الفور بـ : « نعم »

وطلب منى رئيس الأساقفة كتمان ما سيُطلعنى عليه .

ووعدتُهُ بذلك .

وكنت أعرف أن حقوق الإعلان عن تلك المخطوطات ونشرها محفوظة لرئيس الأساقفة وزملائه الرهبان .

وقد كشفت أسرار جبل سيناء أن هؤلاء الرهبان قد تعرضوا لإساءة الإمبريالية الغربية فى الوقت الذى كانوا يستحقون فيه دعمنا المتواصل واحترامنا العميق ليدرك علماء الكتاب المقدس جيداً أننا بعيدون اليوم كل البعد عن امتلاك المخطوطات الأصلية التى كتبها مؤلفو العهد الجديد .

ومن الجدير بالذكر أن جميع المخطوطات الإنجيلية التى بحوزتنا تحتوى أخطاءً . قد يكون السبب وراءها ضعف فى سمع الخطاط أو بصره أو ضعف فى التهجئة أو عدم الانتباه . وهناك أخطاء أخرى متعمدة لتغيير النص وفقًا للتغييرات فى المعتقدات اللاهوتية والعقائدية .

وإننا لمحظوظون لما اكتشفه بعض العلماء مثل «قسطنطين تشيندروف» من المخطوطات القديمة ، مثل المخطوطة السينائية التى يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادى والتى عُثر عليها فى دير القديسة كاثرينا.

استحوذت على العالم «تشيندروف» فكرة العثور على مخطوطة الكتاب المقدس الأصيلة والمسندة ، ولهذا يمكننى تصور مدى الفرح الذى غمره حين وقعت عيناه على المخطوطات القديمة ، إذ قضى الليل فى قراءة النص اليونانى للمخطوطة واستنساخها فى ضوء الشمعة .

وقد نعثر على نصوص أكثر إسناداً فى المخطوطة السينائية التى عُثر عليها فى دير القديسة كاثرينا . وتحتوى المخطوطات المسطرة على ورق البردى والمكتشفة فى هذا القرن على مادة أكثر أهمية من المادة الموجودة فى المخطوطة إلا أن مهمتنا ليست منصبة على العثور على نصر مبرّأ من الفساد ، إذ أننا غير مقتنعين بقدرتنا على إعادة بناء النص كما كان عليه فى القرن الأول الميلادى .

ويبدو أن بعض أوراق المخطوطة السينائية قد فقدت قبل قرون . وكان «تشيندروف» يعلم بذلك الأمر ، لأنه تمكن من استرجاع ثلاث وأربعين ورقة من دير القديسة كاثرينا وذلك فى أربعينيات القرن التاسع عشر .

والأوراق محفوظة اليوم فى مدينة لايبزك . وفى خمسينيات القرن التاسع عشر عثر

«تشيندروف» على ثلاثمائة وست وأربعين ورقة وبقايا من أوراق أخرى، محفوظة الآن فى المتحف البريطانى . ولم يكن «تشـيندروف» يعلم بأن أكثر من اثنتى عشـرة ورقة من المخطوطة السينائية ظلت محفوظة فى الدير. ولم يكن أحد يعرف ذلك حتى عشر سنوات خلت. ويبدو أن تلك الأوراق قد تم حفظها فى الغرفة التى تقع بالقرب من الجدار الشمالى ، وذلك قبل زيارة «تشيندروف» بمئة عام . وقد نُسـيت الغـرفة والمخطوطات النفيسـة حتى اكتشف أمرها عام ١٩٧٥ عندما شب حريق فى الدير .

ولا تحتوى المخطوطة السـينائيـة أو المخطوطة السـريانيـة أو المخطوطة الفاتيكانيـة أو المخطوطة البوبيانية على الآيات الاثنتى عشرة من إنجيل «مرقس» .

إن اختفاء هذه الآيات فى المخطوطات أمر جدير بالملاحظة إذ احتوت هذه الآيات على وصف لظهور قيامة المسيح .

ولأن إنجيل «مرقس» لا يمثل النص الأول فحسب ولكنه الإنجيل الذى اعتمد عليه إنجيل كل من «متى» «ولوقا» وهنا يبرز التساؤل التالى : ما هى الأسس التى اعتمد عليها وصف قيامة المسيح الجسدى وذلك حسب إنجيل «متى» و«لوقا» و«يوحنا» .

وخلال هذا القرن ظهر تحول بارز فى آراء العـلماء وذلك فيـما يـخص نهايـة نص «مرقس». وفى بداية هذا القرن أعرب عديد من العلماء المتمكنين عن شكوكهم فى إمكانية موت «مرقس» دون ترك أى وصف لظهور المسيح أمام رسله فى الجليل . واليوم ، يبدل عديد من العلماء المختصين بالعهد الجديد شكوكهم فى أصالة الآيات الاثنتى عشرة الأخيرة من نص «مرقس» .

وأية محاولة لتقييم أهمية إمكانية نهاية «مرقس» أصلاً فى الآية ٨ : ١٦ «فخرجنَ سريعًا وهربنَ من القبر لأنَّ الرِّعدة والحَيْرة أخذتاهنَّ ولم يقلنَّ لأحدٍ شيئًا لأنهنَّ كُنَّ خائفات» . ويجب بحث معـناها فى الآيـتين الأخيرتين .

وأول هذه الآيات هى الآية ٧ : إصحاح ١٦ التى وردت فى إنجيل «مرقس» والتى تضمنت وعد الشاب فى قبره : «لكنْ اذهبن وقلنَ لتلاميذه ولبطرسَ إنه يسبقكم إلى الجليل هناك ترونه كما قال لكم» والثانية هى الآية ٢٨ : إصحاح ١٤ التى وردت فى إنجيل «مرقس» والتى نجد فيها إشارة إلى كلمات المسيح « ولكن بعد قيامى أسبقكم إلى الجليل » .

وقد قادت هذه الآيات بعض العلماء البارزين إلى الاعتقاد بأنه فى الوقت الذى لم

يُسجل فيه «مرقس» قيامة المسيح الجسدية ، فإنه ، بدون أدنى شك ، كان له إلمام بالتقاليد العبرية حول قيامة الجسد(*) .

وقبل إنجيل «مرقس» ، توجد رسائل «بولس» الأصلية التى تنقل صيغة عقائدية باللغة الرومانية – وقد تكون تلك الصيغة أقدم عهداً من الرومان بعقود . إذ نجد فيها تأكيداً واضحاً على قيامة المسيح(**) .

ومن الواضح أن جوهر المسيحية مرتبط بالقانون الكنسى لنصوص تبقى عالقة فى الذهن مصاغة بشكل يمكن معه فهمها بسهولة عند فحص النص اليونانى كما هو محفوظ بدليل مسند وخاصة المخطوطة السينائية .

وهنا يتعين توجيه الشكر إلى الجيل السابق من العلماء لإثارتهم التساؤل الذى أصبح يشكل مركز اهتمامنا اليوم ، والذى قد نتركه ، بدون جواب ، للأجيال القادمة .

وعند مراجعتى الملاحظات السالفة الذكر ، تذكرت ظهر يوم لا يمكننى نسيانه ، ذلك حين غادرت الدير ، من فتحة صغيرة تقع فى الجدار الغربى منه ، حاملاً معى آلة التصوير متسلقًا منحدر الجبل ومتجهًا نحو الشمال . وبعد مرور ثلاثين دقيقة على تسلقى الجبل جلست أنظر إلى الدير الذى اختفى خلف صخور جبل موسى أو جبل سيناء كما يدعونه . وبينما كنت على تلك الحال امتدت أمامى على هذا المسرح الجميل صورة آلاف السنين من التاريخ والتراث والخدمات التى قدمت من أجل معتقد . وفجأة توجهت عيناى نحو صورة ما تتحرك فى الأسفل واستمررت فى مراقبتها وهى تتحرك عبر الوادى ، متخطية جدران الدير . لقد كان ثمّة شخصٌ يقود ناقته متوجهًا نحو الغرب .

جى . أج . سى

برنستن

٣٠ مايو ١٩٨٥ .

(*) « انظر ٢ مكابيين ١٤ : ٣٧ – ٤٦

(**) انظر : روم ١ : ٣ – ٤

تمهيد

عندما غادرت طائرة خطوط «عبر سيناء» مدرج مطار القاهرة الدولى ، متجهة . نحو الهضاب الرملية ، التى بدت وكأنها بدون نهاية ، كانت الطائرة تحلّق على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق حافات رمال الصحراء الصفراء .

وعندما توجهت بنظرى نحو تلك الرمال، شاهدت طرقًا وأشجارًا جرداء متناثرة. وفجأة راودت ذهنى قصة النبى موسى عندما قاد بنى إسرائيل فى رحلتهم الخطرة من مصر إلى ما يسمى بأرض الميعاد سالكًا الطرق القاحلة ، التى بدت اليوم كما كانت عليه فى السابق أيام النبى موسى. وحسبما ورد فى كتاب الخروج فإن بنى إسرائيل حطوا رحالهم فى منطقة تدعى «رفدن» Rephidin، وعندما أضناهم العطش احتجوا على «موسى» قائلين : لماذا أخرجتنا من مصر ، لتقتلنا مع أولادنا ومواشينا من العطش ؟

وتذكر قصص التوراة أن النبى موسى أخرج الماء من الصخرة ، وأن الله أطعمهم المن والسلوى فى الصحراء . وفكرت فى تلك اللحظة بمعانٍ جديدة لتلك الرحلة التى قام بها «موسى» فى تلك الصحراء القاحلة وقارنتها بتطلعات علماء القرن العشرين الذين لا يفكرون سوى بهجرات الاكتشاف .

لقد حافظت تلك الصحراء على أسرار يعود تاريخها إلى مئات السنين ، تم الكشف عن عديد منها خلال المئة سنة الماضية فقط . وقد كان تأثير تلك الاكتشافات على العناصر المؤمنة وغير المؤمنة كبيرًا .

وسرعان ما تركت طائرة خطوط «عبر سيناء» مئات الأميال وراءها ، وبدأت تحلق فوق الجبال الخطرة ، التى يميل لونها إلى الزرقة ، والتى تتلون بلون الرمال الصفراء عند شروق الشمس ، وبدت تلك الجبال ملتوية فى بعض المناطق تلوح للعيان فيها طرق ، ثم تمتد الرمال إلى البحر الأحمر، الذى هو فى الحقيقة وخلافًا لتسميته ، حالك الزرقة وتمتد الشواطئ الرملية على ساحلة ، الذى تشاهد عنده بعض البواخر وناقلات النفط . ثم تظهر الصخور مرة أخرى وسلسلة جبال تبدو أكثر خضرة من سابقتها ، فيها خطوط تميل إلى اللون الوردى يعود تاريخها إلى العهد البركانى .

وتنمو بعض الشجيرات الخضراء فى الوادى . وفجأة يظهر مطار إسفلتى شيده «الإسرائيليون» فى قاعدة تقع فى جبل سيناء عندما احتلوا صحراء سيناء فى أعقاب الحرب الإسرائيلية العربية – عام ١٩٦٧ .

ورغم إمكانية توجه الطائرة إلى ميناء إيلات ، إلا أن مثل هذا الأمر لم يحدث من قبل . ثم تأتى حافلة تقلك فى الطريق المعبّد ، محاولة تلافى الحمير والبغال والجمال ، وتبدو الأرض فى تلك المناطق الحارة غير مهيأة لاستقبال الضيوف . وخلال مرورك فى الطريق تشاهد جامعًا مربع الشكل أبيض اللون ، وتجمعات للبدو ، ودورًا مشيدة من الحجر ، منتشرة على جانبى الطريق ، وأشجارًا منتشرة هنا وهناك، وحديقة صغيرة محاطة بسياج ، كما توجد كنيسة صغيرة ، يُدّعى بأن القديس «هيرونيمس» قد توفى فيها .

وبينما كنا على ارتفاع ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر ، ظهر أمامنا فجأة جدار شاهق بارتفاع مئة وستين قدمًا وبوابة كبيرة ودفاعات منتشرة حوالى دير القديسة كاثرينا الذى يقع فى جبل سيناء ، لقد كان الدير فى الأزمان الغابرة ملجأ : لعديدٍ من الرهبان من مختلف الطوائف .

لقد كانت الطائفة الأرثوذكسية فى المسيحية تضم فى السابق الكنائس السريانية والجورجية والحبشية واليونانية . أما اليوم فإنها تضم رهبان الطائفة الأرثوذكسية اليونانية فقط . وتشهد غرفة الاستقبال فى الدير على الاحترام الكبير الذى يكنه رهبان الدير للعائلة الملكية اليونانية المخلوعة . حيث يمكن للزائر مشاهدة صور العائلة الملكية فى اليونان منذ عام ١٨٦٣ ، وتضم الغرفة لوحة لزوجة «قسطنطين الأول» الألمانية الجنسية وهى شقيقة القيصر «ويلهلم الثانى» .

ولهذه الصور دلالات تاريخية إذ ما يزال الرهبان يؤمنون بأن أسس ديرهم مشيدة على أسس إمبراطورية ، وأنهم حراس المعبد الذى شُيد لهم قبل ألف وأربعمائة سنة من قبل الإمبراطور «جوستنيان» .

كما يمكن للزائر مشاهدة صور فوتوغرافية للرئيس المصرى الراحل «السادات» . ويثمن الرهبان الرعاية التى أولاها لهم «السادات» وكذلك صور موقعة للمطران «مكاريوس» الذى قام بزيارة للدير بمناسبة مرور ألف وثلاثمائة عام على تشييده .

وبما أن هذه المنطقة كانت شاهدًا على مخاطبة «يهوه» إلى «موسى» ، فيمكن للزائر

مشاهدة نقوشات ملونة فى العهد الفكتورى البريطانى ، تروى قصة عبور «موسى» وبنى إسرائيل البحر الأحمر وغرق فرعون وجيشه . كما نشاهد «موسى» وهو يتسلم الألواح من «يهوه» فى جبل سيناء .

وقد قام الإمبراطور «جوستينيان» بإهداء مئتى مصرى ومئتى مواطن من مقاطعة ويلز فى بريطانيا لخدمة الرهبان . وما يزال أحفاد هؤلاء المواطنين المصريين والويلزين يخدمون الدير ويطلق عليهم اسم (دشبيلجا Dschebelijau) وهم ليسوا من البدو ، رغم تزاوجهم مع القبائل البدوية المنتشرة فى صحراء سيناء. وقد خدم هؤلاء الأشخاص هم وأجدادهم جميع زوار الدير، فضلاً عن خدمتهم لرهبان الدير. وقد قدّم أحدهم ويدعى «سليم » خدماته لى عند مكوثى فى الدير ، مقابل سيجارتين فى اليوم .

كان الدير غنيًا فى السابق ، إذ كانت تصل إليه الأموال من فروعه فى كريت ولبنان واليونان والقاهرة ورودس ورومانيا ومن دير راهبات النبى موسى ... أما اليوم فعائدات الدير تأتى من الزوار فقط ، وقد شيدت اليونسكو فى حدائق الدير بيوتًا صغيرة لاستقبال الزوار تستوعب ما بين أربعين إلى خمسين زائرًا يوميًا . وأجمل الموجودات، فى ذلك المجمع، الكنيسة التى شيدتْ بأمر الإمبراطور«جوستنيان» فى القرن السادس الميلادى . وتعد من أهم وأجمل الكنائس القديمة . والزائر للكنيسة اليوم يدخل الكنيسة من طريق ممرّ يؤدى إلى صحن الكنيسة معزول عن القسم الرئيسى للكنيسة بجدار شاهق ذى أبواب .

ولأجل الوصول إلى الأبواب الخشبية الضخمة الموجودة فى الممر يتعين على المتعبد الهبوط منحدرًا من الأعلى، لأن الكنيسة المشيدة على الموقع التقليدى الذى كان فى الأصل غاية أوطأ من الأجزاء الداخلية الأخرى لجدران الدير. ولأجل تلافى ذلك قام المهندس المعمارى للدير ويُدعى «ستيفانوس» بتصميم الدير بحيث تكون نهايات الجدارين الغربى والشرقى أعلى من سطح الدير ونتيجة لذلك بدا الدير المشيد من الحجر الأحمر ضخمًا جدًا من ناحية وغارقًا فى الأرض من ناحية أخرى ، عند مشاهدته من الخارج .

وتوجد فى مدخل الممر بوابتان ضخمتان . ولا تبدو هاتان البوابتان معاصرتين للبناية نفسها . فقد صنعتا من خشب السرو فى القرن الثانى عشر أو قبل ذلك التاريخ بقليل، ولا تزالان فى وضع جيد . وقد نُقشت عليهما صور ملائكة وزهور وأشجار وأوراق تحيط بالمسيح .

وتقود هاتان البوابتان الزائر إلى الممر الذى يضم الآن كنوزاً ثمينة ، ومن بين الكنوز المعروضة أيقونات قديمة محفوظة فى خزانة زجاجية ، بينها أيقونة يعود تاريخها إلى القرن الثانى عشر، ويظهر فى تلك الأيقونة القديس «يوحنا كليماكوس» وهو يتسلق السلّم المؤدى إلى الجنة . كما تضم المعروضات أيقونة حديثة رسمت فى اليونان من قِبَلِ راهب يُدعى «جرباسيس» وذلك عام ١٩٧٧ . كما عرضت فى الممر كُتب نفيسة بينها مخطوطة سريانية تم التعرف عليها عام ١٨٩٢ على كونها ترجمة للأناجيل ، ويعود تاريخها للقرن الخامس الميلادى ، ويبدو أن جزءًا من تلك المخطوطة قد مُحِىَ ، بعد مرور ثلاثة أو أربعة قرون ، وذلك بسبب استخدام ورق المخطوطة المصنوع من البردى مرة ثانية .

وليس هناك أدنى شك فى أن تاريخ المخطوطة أقدم من تاريخ الدير نفسه . وهناك براهين تُثبت أن رُهبان دير القديسة كاثرينا جمعوا مخطوطات قديمة قبل تشييد الدير نفسه، وتوجد فى الممر أيضًا نسخة من المخطوطة السينائية ، التى جاءت تسميتها من الدير المشيد على جبل سيناء ، ولكنها ، كما سنرى فيما بعد ، اختفت مئة عام .

ويُمكن للزائر ملاحظة عديدٍ من الأيقونات النفيسة الأخرى التى يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادى معلقة على أعمدة الكنيسة ، ويمكن للزائر ، أيضًا ، مشاهدة نقوش جميلة من الفسيفساء تمثل تجلى المسيح ، وذلك على الجانب البارز من الكنيسة . كما رسمت صور «موسى» «وايليا» على جانبى صورة المسيح . وتحت قدمى المسيح رسمت صور رسل المسيح «بطرس» و«يعقوب» و«يوحنا» . وفى أعلى جانبى الصورة يوجد مشهدان يمثلان حياة موسى . وتوجد أيضًا صورة للمسيح وهو يخلع نعليه قبل حرق الغابة على الجانب الأيسر من الصورة ، وكذلك صورة للنبىّ «موسى» تمثلة واقفًا على جبل سيناء يتسلم الوصايا العشر ، ومن الغريب أن نشاهد فى صورة الفسيفساء هذه الوصايا العشر منقوشة على ورقة البردى وليس على ألواح صخرية كما ورد فى الكتاب المقدس .

وتظهر فى جدارية الفسيفساء هذه صورة «يوحنا المعمدان» وصورة «مريم العذراء» وصور أنبياء العهد القديم ورسل المسيح الاثنى عشر .

وبما أن صور «بطرس» و«يعقوب» و«يوحنا» قد ظهرت فى المشهد الوسطى من صورة التجلى، فإن الفنان الذى رسم الصورة من الفسيفساء أدخل صور أتباع المسيح «مرقس» و«لوقا» و«بولس» بدلاً من بطرس ويعقوب ويوحنا . وتضم الجدارية صورة شخصين عاشا فى جبل سيناء عندما تم رسم الجدار ، وهذان الشخصان هما رئيس الرهبان فى الدير

وكان يدعى لونجنينوس Longinus وراهب آخر تم التعرف عليه فى صورة الفسيفساء على أنه «يوحنا» ، وهو «يوحنا الشماس» . ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو «يوحنا المشهور» الذى كتب فى أواخر القرن السادس بحثًا مشهورًا حول كيفية الدخول إلى الجنة وأطلق على البحث اسم «سلم الكمال» ولهذا أصبح يُعرف باسم «يوحنا صاحب السلم» أو «يوحناكليماكوس» .

ويتألف بحث «يوحنا كليماكوس» من ثلاثين فصلاً أما سلمه فيتألف من ثلاثين درجة، وتمثل الفضائل الثلاثين التى ينبغى للفرد ذكرًا كان أم أنثى أن يتحلى بها لأجل الوصول إلى الجنة ، ولا يضاهى جدارية الفسيفساء هذه جمالاً عمل آخر باستثناء الجداريتين الموجودتين فى إيطاليا .

إحداهما فى كنيسة سان فيتالى والأخرى فى كنيسة سانت أبوليناري فى كلاسى رافينا، اللتين يُعتقد بأنهما شيدتا فى قرن واحد ، وتعد الجدارية من نفائس الكنوز الموجودة فى الدير . ويقول البرفسور «كورت واينزمان» « إن أثمن كنز فنى فى الدير هو جدارية الفسيفساء والأيقونات » .

ورأيى الشخصى يوافق رأى البروفسور «واينزمان»، ففى اعتقادى أن الأيقونات لايضاهى جمالها وندرتها أى أثر فنى فى العالم .

وفى الفصل الأخير من هذا الكتاب ، سأبين كيف تم اكتشاف هذا الكنز النادر فى مثل هذه البقعة النائية .

أما بالنسبة للعالم المسيحى وطالب اللاهوت فإن ثمةً ما هو أثمن من تلك الأيقونات النفيسة ، إذ تمثل «ثلاثة الآلاف» مخطوطة التى عُثر عليها فى الدير الكنز الحقيقى للباحثين فى الديانات . وذلك أن الرهبان السريان والجورجيين والحبشيين عاشوا فى يوم ما فى هذا الدير مع الرهبان اليونانيين ويبدو أن تلك المخطوطات قد كتبت باللغات السريانية والجورجية والحبشية واليونانية .

ولقد ظل عديد من تلك الخطوطات غير معروف للعالم الخارجى لسنوات طويلة. وكان عديد منها غير مقروء حتى من قِبَلِ الرهبان أنفسهم . إلا أن البحث عن الحقيقة الروحية دفع بعديدٍ من الرجال والنساء إلى زيارة جبل سيناء خلال القرنين الماضيين فى محاولة للكشف عن أسرار هذه المخطوطات والوثائق القديمة . وقد جاءت اكتشافاتهم مذهلة ومخيفة فى الوقت عينه .

لقد شيد الإمبراطور «جوستنيان» الدير فى سيناء على سفح جبل موسى ليبقى على مدى العصور، لذا شيدت جدران الدير الدفاعية شاهقة ومتينة من صخر الجرانيت المحلى الأحمر اللون . ويبلغ ارتفاع الجدران فى بعض الأماكن أكثر من ثمانين قدماً . وهى شاخصة اليوم كما تركها معماريو «جوستنيان» .

ويُعد الدير اليوم، الذى كُرس باسم القديسة كاثرينا، من مدينة الإسكندرية ، أقدم دير مأهول بالرهبان . وأن بقاء الدير حتى هذا اليوم ومحافظته على جماليته لأمر يثير الدهشة.

شيد الدير للدفاع عن الرهبان من هجوم المسلمين فى وقت كانت فيه سيناء تحت ظل المسيحية . وبعد مرور مئة عام على تشييده فتح المسلمون مصر، وأصبح دير القديسة كاثرينا القلعة الوحيدة للرهبنة المسيحية فى عالم إسلامى . وتذكر كتب التراث والتاريخ أن الرهبان أرسلوا عام ٦٢٥ ميلادية وفداً إلى النبىّ «محمد» طالبين حمايته كما تذكر بعض هذه الكتب أن النبىّ «محمداً» زار الدير، ويذكر الرحالة أنهم شاهدوا أثر خُفّ الجمل الذين امتطاه النبىّ «محمد» لا يزال مطبوعاً بشكل واضح على إحدى الصخور .

ويبدو أن الرهبان قد حصلوا على وثيقة من النبىّ «محمد» ، يتعهّد فيها بتوفير الحماية للدير ، ويُذكر أن أحد السلاطين أخذ النسخة الأصلية من الوثيقة وترك بدلها نسخة ثانية لا تزال معروضة فى الدير .

ومهما تكن الحقيقة فإن الشىء الثابت والأكيد أن رهبان جبل سيناء تمكنوا من الحصول على تعهد يوفّر لهم الحماية ،

ويظهر أن رهبان الدير استطاعوا إقناع سلاطين القسطنطينية بتجديد ذلك الميثاق الذى أطلق عليه اسم « ميثاق الحماية » وتمكن أولئك الرهبان أيضاً من تطوير علاقة التسامح مع المسلمين . والدليل على ذلك واضح ، إذ تضم جدران الدير جامعاً إسلامياً يبدو أنه شيد لتلبية متطلبات خدم الدير من المسلمين .

والأمر الذى تجدر الإشارة إليه أن الجامع قد شيد خلال القرن الحادى عشر فى وقت كان فيه الرهبان يتعرضون لخطر كبير، إذ كان الخليفة الحاكم يأمر بتهديم المؤسسات المسيحية ، وذلك عام ١٠٩٠ ميلادية ، وهو التاريخ الذى قام فيه المسلمون باغتيال البطريرك «يوحنا الأثينى» .

وتذكر بعض البرديات أن الرهبان شيدوا الجامع خلال يوم واحد ؛ وذلك لحماية أنفسهم من المسلمين المتعصبين، وجعلوا مئذنة المسجد بادية للعيان من خلف جدران الدير . أما خلال القرون الثلاثة التى تلت ذلك التاريخ ، فقد أبدى الصليبيون الذين كانوا يأتون بالحجاج المسيحيين إلى الدير استعدادهم لحماية الدير ، إلا أن الرهبان كانوا حريصين على عدم إلحاق الأذى بجيرانهم من المسلمين ، ففى عام ١١١٥ تمكن من إقناع الملك بولدوين ملك القدس آنذاك بعدم زيارة جبل سيناء لتحاشى إثارة حفيظة السلطان ، ونجح الرهبان خلال القرون الوسطى فى الحفاظ على استقلاليتهم وسلامتهم ، وعندما تولى السلطان ، العثمانى «سليم الأول» ولاية مصر عام ١٥١٧ سادت جبل سيناء الطمأنينة والسلام لفترة قرنين ونصف القرن من الزمن ، وامتدت ممتلكات الدير لتشمل أراضى فى كريت ورومانيا ومولدافيا . وفى عام ١٥٥١ أعطى السلطان الرهبان ميثاقًا منع بموجبه موظفيه من التعرض لهم عند قيامهم ببيع الحيوانات والمؤن والخمر والصابون وزيت الزيتون والسجاد والعدس والفاصوليا والجبن والعسل والملابس والفراء . كما حظر الميثاق على الرهبان القيام ببيع أية مواد مثل الخيول والسلاح إلى أعداء السلطان ، ولكن خطر عدم الاستقرار كان قائمًا دائمًا فى سيناء . وفى عام ١٧٦٩ ثار المملوك «على بك» ضد الحكم العثمانى ، ولم تخمد الفتنة إلا فى عام ١٧٧٣ وفى تلك الأثناء ظل الرهبان محافظين على حيادهم .

ثم جاء الخطر الثانى عندما احتل نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨ . ففى تلك الفترة حصل الرهبان على حماية الفرنسيين إذ أعلن نابليون أنه يحترم «موسى» واليهود والرهبان لأنهم كانوا عناصر متعلمة فى تلك الصحراء الموحشة » .

وفى عام ١٨٠٢ قام الإنجليز بطرد نابليون من مصر ، وتمت إعادتها إلى حماية السلطان العثمانى . وفى تلك الأثناء كان الصراع قائمًا بين المماليك و«محمد علىّ» عدة سنوات مما جعل الوصول إلى الدير أمرًا صعبًا ، ورغم صعوبة الطريق، تمكن أحد الرحالة السويسريين ، وكان يدعى «يوحنا بركهارت» ، من الوصول إلى الدير ، وذلك عام ١٨١٦ وعام ١٨٢٢ بعد أن تنكر بزى بدوى .

وعندما تولت أسرة «محمد علی» السلطة فی مصر بادرت بالحفاظ علی الدیر .

ویقی الدیر علی حاله أیام الانتداب البریطانی ، وبذلك تمكن الرهبان من الحفاظ علی حیاتهم بسلام لفترة ألف وثلثمائة عام دون أن یثیروا جیرانهم الذین یختلفون عنهم فی العقیدة.

وقد نجحوا فی ذلك لأنهم رهبان وبعیدون عن الصراعات التی تدور فی العالم .

وقد أثبتت تلك السیاسة نجاحها فی أعقاب الحرب العالمیة الثانیة عندما أصبحت أرض سیناء القاحلة محط اهتمام «إسرائیل» .

ففی عام ١٩٦٥ صرّح «موشی دایان» قائلاً : « إن الانتصار فی سیناء عاد علی إسرائیل بفوائد مباشرة ، مثل حریة الملاحة ، كما وضع حدًا (للإرهاب) ورفع من شأن «إسرائیل» بین الأصدقاء والأعداء » . وقد أثارت تلك الفوائد قلق الرهبان الذین تمكنوا من البقاء بعد ثلاث حروب إسرائیلیة عربیة – والعیش فی الدیر بسلام .

وعندما أصبح الدیر تحت سیطرة «الإسرائیلیین» ، منع «الإسرائیلیون» الزوار الغربیین من زیارة الدیر فی الوقت الذی ظل الرهبان فیه للتعبد بسلام .

یضم الدیر فی الوقت الحاضر اثنی عشر راهبًا فقط ، بینما كان یضم فی السابق أكثر من ثلاثمائة راهب بجانب عدید من الرعایا المسیحیین الذین كانوا یلجئون إلی الدیر عند مواجهتهم أی خطر .

وتمكن الدیر من الحفاظ علی كنوز نفیسة لفترة ألف وأربعمائة عام ، وذلك لعزلته عن العالم الخارجی .

وعندما ثارت حروب مذهبیة بدأت بعض الطوائف المسیحیة بتحطیم الأیقونات وصور القدیسین لإیمانهم بمخالفتها لشریعة «موسی» الثانیة بینما حافظ رهبان جبل سیناء علی الأیقونات النفیسة .

یضم الدیر الیوم أكبر وأنفس مجموعة أیقونات فی العالم وكذلك أندر المخطوطات فی العالم .

تضم مكتبة الدیر، حالیًا، ثلاثة آلاف مخطوطة . ولا تضاهی مكتبة الدیر فی خزینها فی الكتب والمخطوطات النفیسة أیة مكتبة أخری فی العالم سوی مكتبة الفاتیكان . كما أن تاریخ بعض المخطوطات أقدم من تاریخ الدیر نفسه ، بما یدفع رهبان الدیر الیوم لیكونوا

حراسًا على الخفايا الموجودة في تلك المخطوطات، والتي تُعدُّ ذات أهمية بالغة لعديد من الناس في العالم. اكتشف هؤلاء الرهبان المكتبة في السادس والعشرين من مايو في عام ١٩٧٥ عندما شب حريق في كنيسة القديس «جورج ». ويبدو أن المكتبة كانت تقع تحت المذبح حيث كان الرهبان يستخدمون تلك الغرفة لخزن الخشب . وعندما شب الحريق وبدأوا بإزالة الخشب ، عثروا على قبو يضم أعدادًا هائلة من المخطوطات القديمة تجاوز عددها الألف مخطوطة مكتوبة باللغات اللاتينية والعربية والسريانية والأرمنية والحبشية والجورجية واليونانية.

ويبدو أن تلك المخطوطات كانت مدفونة لفترة مئتي عام حيث لا يعرف عنها العالم شيئًا مما يجعلها مكتشفات مضافة إلى مخطوطات البحر الميت والأناجيل الغنوصية، غير أن أهم مخطوطة بين تلك المخطوطات التي تمثل أقدم كتاب مقدس في العالم اليوم هي المخطوطة السينائية وهذه المخطوطة معروضة اليوم في المتحف البريطاني الذي يعتز بها ويعدها كنزًا لا يُقدر بثمن .

ولقد ظلت هذه المخطوطة غير معروفة للعالم الخارجي حتى تم اكتشافها في أواسط القرن التاسع عشر، وذلك في الدير الذي يقع في جبل سيناء .

يتناول جزء من هذا الكتاب الطريقة التي انتقلت بها المخطوطة السينائية المكتشفة في جبل سيناء في منطقة الشرق الأوسط إلى لندن . ويتناول الجزء الثاني من الكتاب قصة الرجل المتميز الذي كانت المخطوطة بالنسبة له بمثابة الكتاب المقدس . وقد دفع به هذا الاعتقاد إلى زيارة الدير ثلاث مرات وكرس وقته لدراسة تلك المخطوطة .

والأهم من ذلك هو الطريقة التي عمقّت بها هذه المخطوطة ، فهمنا للعقيدة المسيحية .

تعد هذه المخطوطة متميزة بين المخطوطات الإنجيلية ، بصفتها أقدم كتاب مقدس في العالم ، وتتضمن الأجزاء الكاملة للعهد الجديد ودليلاً على نص العهد القديم .

والفرق بين نص المخطوطة السينائية والعهد الجديد ، كما يراها المسيحيون في يومنا هذا ، أمر يدعو للدهشة . ومع أن العلماء قد فحصوا ودرسوا المخطوطة ، إلا أن قلة من المسيحيين يدركون الاختلاف وقلة أخرى تقبل الاعتراف بتلك النصوص .

وأخيرًا فإن الاكتشافات التي عُثر عليها في دير القديسة كاثرينا ستدعونا لمراجعة موضوع مهم في المسيحية ، يدور حول قيامة المسيح .

الفصـــل الأول

العـــالم

فى الثامن عشر من يناير من عام ١٨١٥ رزقت زوجة الدكتور «تشيندروف» فى قرية صغيرة تقع جنوبى مدينة لايبزك طفلاً ، وكان الوالدان لوثريين مؤمنين ، وقد تم تعميد الطفل وأطلق عليه اسم «لو بيجوت» Lobegott فردريك قسطنطين (كوستانتين) . وقدر للطفل أن يصبح من أشهر أساتذة الكتاب المقدس فى جميع الأزمنة . أما القرية التى ولد فيها «لوبيجوت» فهى ليجنفيلد وتقع فى منطقة الغابات فى مملكة ساكسون ذات الوديان الجميلة. وكان سكانها آنذاك يرتدون الملابس القروية التقليدية . وقد سكن أجداد الطفل من جهة والدته فى تلك المنطقة لقرون عديدة . ويبدو أن أحدهم كان من جماعة موقدى الفحم (*) التى انتشرت فى القرن الخامس عشر . وقد حظى بشهرة محلية واسعة وذلك لأنه ألقى القبض على الشخص الذى اختطف أميرين وحاول اصطحاب أحدهما إلى بوهيميا وكان يدعى (كرس فون كوفينجن) وعندما عثر «لوبيجوت» على المُخْتطِف فى الغابة بادر إلى إلقاء القبض عليه مع بقية أفراد جماعة وأنقذ الأمير الأسير . وقد تم إعدام المختطِف فيما بعد .

وقد ترعرع «قسطنطين تشيندروف» ، فى بيت يكن الاحترام لجده موقد الفحم . وكذلك الاحترام للعائلة المالكة الساكسونية . وعندما تم منحه لقب فارس انتخب صورة لموقد الفحم ، وهو يحمل النبال على ظهره كشعار له . ولم يسبق أن وصل أحد من أجداده إلى المكانة التى وصل إليها «قسطنطين» ؛ إذ أنهم تحولوا من موقدى الفحم إلى صناعة الورق فى مدينة جريسً فيما بعد .

وكان «تشيندروف» شديد الولع بوالدته التى وافاها الأجل عند بلوغه العشرين من عمره، وبعد مرور عشر سنوات على وفاتها كتب يقول : « لا يمكن للموت أن يفرق بين قلبينا ، بل إنه على العكس من ذلك ساعد على توحيد الصداقة بيننا » .

وإذا كان «تشيندروف» قد ورث العاطفة المرهفة عن والدته، فقد ورث الذكاء عن والده. وكان والده قد ولد فى «تورنجيا» وتخرج فى جامعة «جينا». وقد أرسل ابنه قسطنطين لدراسة اللاتينية واليونانية فى مدرسة خاصة فى «بلون» وهى أكبر مدينة فى المنطقة . وكان «تشيندروف» ذكيًا ومن الأوائل بين زملائه .

(*) جماعة موقدى الفحم من الجمعيات السرية الإرهابية .

وفى عام ١٨٣٤ دخل كلية اللاهوت فى مدينة لايبزك التى تعد جامعتها من أقدم وأهم الجامعات فى ألمانيا، وكانت قد شيدت عام ١٤٠٩ ، وكانت الجامعة فى أيامه تحظى برعاية العائلة المالكة، إذ تم توسيع أبنيتها ، فضمت ثلاثة آلاف طالب ، وكان التلميذ الصغير السن يناقش أساتذته فى موضوع الكتاب المقدس وبخاصة أستاذه «فان واينر» .

وقد نشر «تشيندروف» مقالتين حصل بسببهما على جائزة عام ١٨٣٨، كما حصل على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، وكان أيضًا شاعرًا ، فقد أصدر ديوانه الأول «براعم مارس» والذى ضم عديدًا من القصائد التى تصلح للغناء، إلا أن وفاة والده المبكرة اضطرته إلى ترك الجامعة لكسب معيشته عن طريق التدريس فى إحدى المدارس اللوثرية التى تقع بالقرب من مدينة «لايبزك» . وقد دفعهُ حبه إلى ابنة مدير المدرسة التى كانت تدعى «أنجليك زيم» إلى تطوير مواهبه الأدبية فكتب رواية باسم مستعار «منريتنرر» وأطلق على الرواية اسم (الصوفى الصغير) . وكانت طموحاته كبيرة ، إذ أراد أن ينجز عملاً متميزًا فى سبيل الله والمسيح .

ولم تكن لدى «تشيندروف» رغبة فى أن يكون أكاديميًا إذ كان يرغب فى إيصال معلوماته إلى عامة الناس . وعندما بلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا عاد إلى جامعة «لايبزك» ليصبح أستاذًا محاضرًا فى كلية اللاهوت، وكان ملتزمًا بالدفاع عن المسيحية الأصيلة وشهدت تلك الفترة صراعًا حول العهد الجديد والعهد القديم، فكان بعض اللاهوتيين الألمان يشككون فيما ورد فى العهد الجديد ، بينما يعتقد بقية المسيحيين بأن جميع فصول العهد الجديد قد كتبها رسل المسيح .

ويضم العهد الجديد ثلاث عشرة رسالة ، يقول بعضهم إن القديس «بولس» قد كتبها ، بينما يدّعى قسم من اللاهوتيين الألمان أن القديس «بولس» لم يكتب سوى أربع منها فقط، وهى : كورنثية الأولى والثانية وجلاطية ورومية، أما بقية الأسفار فقد ادعى اللاهوتيون المشككون بأنها كتبت بعد الأحداث التى ألّت بحياة المسيح بوقت طويل .

وادعى هؤلاء بأنها لا تحتوى على أقوال المسيح وأعماله ، وهى ليست غير أساطير لا يمكن الاعتماد عليها ، ولا سيما رسالة «يوحنا» الأولى منها، ويبدو أن تلك الصراعات أثارت الفزع لدى «تشيندروف» الذى كان يؤمن بأسفار «متى» و«مرقس» و«لوقا» و«يوحنا» .

كما أن «تشيندروف» كان يؤمن بأن «يوحنا» و «متى» كانا شاهدىْ عيان للأحداث التى أحاطت بحياة المنقذ . وأن «مرقس» و «لوقا» كانا ذوى علاقة «بيوحنا ومتى» . خاصة وأن المسيح كان يكنّ مودة خاصة «ليوحنا» مما دفع «تشيندروف» إلى الإيمان بأن نص «يوحنا» هو أهم الأسفار .

وبدأ «تشيندروف» البحث عن نص خالص للعهد الجديد، الأمر الذي دفعه إلى نشر العهد الجديد باللغة اللاتينية وذلك عام ١٨٤٠ . ورغم أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بعمله هذا ، إلا أن صديقه المطران «درازك» وصف عمله بأنه الحجر الأساس فى عمله الخالد .

وقدم «تشيندروف» نسخة من عمله إلى ملك بروسيا واستمر فى عمله الشاق باحثًا فى الشرق فى محاولة للعثور على برهان على صحة الكتاب المقدس .

وكانت تلك الصراعات تدور فى القرن الثامن عشر . إذ أثارها بشكل فاضح المؤرخ «إدوردجيبن» فى كتابه الشهير (سقوط الإمبراطورية الرومانية) فقد اتهم الآباء الأوائل للكنيسة بأنهم قد حرفوا الكتاب المقدس ، وركز هجومه على نص معين . وهو النص الأول فى رسالة «يوحنا» الأولى الفصل الخامس الفقرة السابعة ، التى كانت تستخدم للبرهنة على العقيدة الصعبة التى تدور حول التثليث . إلى أن يسوع وأباه السماوى والروح القدس ثلاثة أقانيم متحدة فى الله . والنص كما يلى :

فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحـد .

والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم فى الواحد . (انظر يوحنا الأولى ، الآية ٧ ، ٨ : الإصحاح الخامس) .

وقد أثار (جيبن) هذا الموضوع فى كتاب انتشر فى صفوف الجماهير ، بعد أن كان مثل ذلك الأمر مقتصرًا على الأكاديميين فقط . وادعى (جيبن) بأن الآباء القدامى يلتزمون السكوت حيال هذا الموضوع .

وتساءل : لماذا قبل الأكاديميون بذلك النص ؟ فالمعروف أن (ايراز موسى) شكك فى النص ، ولكنه كان حذرًا فى الوقت نفسه محافظًا عليه ، مما دفع منافس «ايراز موسى» من المذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى إلى الإبقاء على النص ، ودفع روما إلى تبنيه ، ودفع العالم المسيحى للدفاع عن مسألة التثليث وعن كون يسوع هو إله وإنسان .

وقد أثار هجوم (جيبن) ضجة مما جعل الأوساط فى انكلترا تنقسم إلى فريقين بين مهاجم ومدافع . وكان من بين المهاجمين المحترم (جورج ترافس) أسقف درم Durham بينما وقف إلى جانب (جيبن) (ريتشارد بورنس) الذى كتب عنه (هوسمان) قائلاً « إنه كان من أعظم الكلاسيكين فى بريطانيا » . ورغم ذلك انتهى مستقبل (بورسن) بالفشل .

ولد (بورسن) من عائلة فقيرة فى منطقة «نورفولك» وقد ساعده ذكاؤه على الانتماء إلى مدرسة أيتن ومن ثم إلى كلية ترينتى (الثالوث) فى جامعة كمبردج . وقد كان هناك سببان حالا دون تحقيق «بورسن» نجاحًا باهرًا أحدهما تناوله الكحول والسبب الثانى امتناعهُ عن حضور دروس التعاليم الدينية ، الأمر الذى دفع بإدارة الكلية إلى حرمانه من المنحة الجامعية.

وبعد مغادرته جامعة كمبردج شوهد (بورسن) فى إحدى المرات فى حالة سكر فى حقل تورنيب Turnip واضطر إلى التخلى عن وظيفته كمدرس خصوصى لأحد أبناء العوائل الغنية فى منطقة «إيزل» . وقد وصفه اللورد «بايرون» مرة قائلاً « إنه شخص بوهيمى بين الأشخاص القذرين الذين تعرف عليهم . لقد كان عدائيًا ولا يطاق » .

وأضاف قائلاً « فى الحفلات الخاصة كان يشاهد فى حالة سكر ووحشية » .

وأصبح أمين مكتبة فى إحدى معاهد لندن، ولكنه نادرًا ما كان يقوم بواجباته وكان فى معظم الأحيان يعود إلى بيته بعد منتصف الليل وهو فى حالة سكر شديد . « لولا وفاته المبكرة لكان طُرد من منصبه الأخير كأمين مكتبة » هكذا عقب الشخص الذى خلفه فى منصبه.

وقد جاء فى الكلمة التى ألقاها (هوسمان) فى حفل العشاء الذى أقيم فى القاعة الكبرى فى كلية ترينتى فى جامعة كمبردج مادحًا بورسن : لقد شهدت هذه الكلية العظيمة التى تمثل إحدى كليات هذه الجامعة التاريخية ، «وردسوث» سكيرًا «وبورسن» صاحيًا . وها أنا أقف اليوم شاعرًا الشعر فى وردسوث ، ورغم سكره ظل «بورسن» متقد الذهن . لقد تمكن «بورسن» «وإدوارد جيبن» فى الكشف والبرهنة على صحة أجزاء من «الكتاب المقدس» .

لقد كان بورسن معجبًا بأعمال «جيبن» وعدَّ كتابه الموسوم « السقوط والأعذار » من أعظم الأعمال الأدبية فى القرن الثامن عشر . وغالبًا ما كان يقتبس فقرات مطولة فى كتابه هذا ولم يكن بالإمكان آنذاك الإعجاب بشكّاك مثل «جيبن» والدخول فى إحدى كنائس القرن الثامن عشر فى الوقت نفسه .

وعندما سئل «بورسن» عما إذا كان يبحث عن رسامته كاهنًا أجاب : لقد وجدت أنى احتاج إلى خمسين عامًا أقضيها فى المطالعة حتى أكون ملمًا بالإلهيات للإجابة عن جميع التساؤلات التى تدور فى ذهنى » .

ويبدو أن شكوكه فى الدين القويم، وخاصة فيما يتعلق بعقيدة الثالوث، كانت واضحة ولم يحاول إخفاءها .

ويذكر أن «بورسن» شاهد فى إحدى المرات عندما كان يناقش موضوع الثالوث مع صديق مؤمن، عربة ذات مقعد واحد تحمل ثلاثة رجال. وسرعان ما بادر الصديق قائلاً : «يمكن لهذه العربة أن توضح مسألة الثالوث » ويبدو أن «بورسن» لم يقتنع بالمثال الذى ضربه لهُ صديقة فرد عليه قائلاً : «يجب أن تؤشر على رجل واحد بثلاثة عربات إن استطعت».

ولكونه على حيطة بالمشاكل التى تواجه العقيدة المسيحية فقد نظر باشمنزاز إلى محاولات (ترافينر) غير الكفوءة فى الدفاع عن الشهود السماويين الثلاثة الذين ورد ذكرهم فى الآية السابقة من الفصل الخامس فى رسالة «يوحنا الأولى» . ونشر ردًا مفحمًا وشاملاً على تلك التفسيرات .

وتكشف تقنية «بورسن» نقطة يمكن النفاذ فيها إلى نقد نص الكتاب المقدس . ويبدو أن «تشيندروف» وبقية العلماء المختصين استخدموا تلك التقنية فيما بعد . أما «بورسن» فقد واجه كيفية البت بالنص الصحيح للكتاب المقدس من بين المخطوطات المختلفة . وقد فكر فى تصنيفها على شكل عوائل . وأعلن : « إن جميع النصوص فيها أخطاء شائعة. إما لغوية أو متعلقة باختلاف النص، مع أنها جميعًا تنتمى إلى العائلة نفسها ». وبذلك تمكن من حذف النصوص المتأخرة التى بدت بأنها مستنسخة من النصوص القديمة .

ولقد وجد أنه بالإمكان بناء شجرة العائلة من أى نص . مكتشفًا بذلك المراحل المختلفة التى مر بها النص وما طرأ عليه من تغيّر . وكان هدفه، من وراء ذلك، العودة إلى الأصل الذى انحدرت منه فيما بعد بقية النصوص . وكان هذا النص الذى يعد أصل جميع النصوص أقرب النصوص إلى النص الأصلى . ومضى «بورسن» فى استخدام هذه التقنية لدحض الادعاء بصحة البرهان على الشهود السماويين الثلاثة فى رسالة «يوحنا» الأولى ويبرهن على عدم ورودها فى أى نص يونانى قديم للكتاب المقدس . فقد ظهر النص المنحول أول مرة فى المخطوطات اللاتينية ، وذلك حوالى عام أربعمائة بعد الميلاد . ولم يقتبس الآباء الأوائل من النص ولم يشيروا إليه . ومن خلال تضمينه فى النص اللاتينى وصل فى مراحل متأخرة إلى مخطوطات يونانية قديمة ، وأن «إيراز موسى» قد ضمنه عام ١٥٢٢ فى الطبعة اليونانية الثالثة من كتابه المقدس . أما (جيبن) فقد سر عندما وجد أن هجومه على النص كان ذا تأثير مبرور . فقد كتب معقبًا بقوله : « إنى أعتبر جواب (بورسن) على (ترافينر) نقدًا دقيقًا . فلقد

كان نقداً قاسياً أغناه بمعرفته فبعث فيه الروح عن طريق حضور البديهة مع أن خصومه لا يستحقون ذلك وأصبح الدليل الذى يشير إلى وجود ثلاثة شهود سماويين مرفوضاً من قبل جميع المحاكم ، ولكن التعصب أعمى، والسلطة صماء، وستظل طبعاتنا الرخيصة من الكتاب المقدس مشحونة بهذا النص المنحول، وهى ليست كذلك فى الحقيقة، إذ ليس هناك من كتاب مقدس حديث يحتوى على تحريف فى النص . وقد ثبت أن هجوم (بورسن) كان عنيفاً .

ولا يزال البعض يحاول بدون جدوى الدفاع عن النص المنحول . فقد ناقش العالم الألمانى (جوهان البريخت بيجفال) بأن كلمة « يجب » كانت جزءاً من النسخة الأصلية للكتاب المقدس لأهميتها الكبيرة بالنسبة للعقيدة المسيحية ، ويبدو أن مثل هذا النقاش مناف للعقل .

أما العلماء الآخرون فقد حاولوا العثور على المخطوطات اليونانية القديمة التى احتوت على الكلمات المختلف عليها ولكنهم لم يعثروا على أى منها .

وفى عام ١٨٢٧ ادعى المطران «بيتر بوروا» ومدير كلية لينكولن فى أكسفورد بأنهما شاهدا نص المخطوطة اليونانية القديمة التى اختفت منذ ذلك الحين . أما «بورسن» فقد عالج هذه الاتهامات اليائسة بقوله مازحاً « يبدو أن المخطوطات الأسطورية هى جيدة كهذه المخطوطة بحيث لايستحقها هذا العالم . وربما تم خزنها فى زاوية مظلمة فى القمر بجانب المعرفة التى يدعى بها (ترفينر) » .

وخلال حياة (تشيندروف) اضطر العلماء إلى الاعتراف بأن النص المقبول من العهد الجديد غير دقيق، ومبنى على مخطوطات مدونة فى عهود أعقبت أيام الرسل، مما دفعه للاستنتاج بأن الطبعة الأولى فى العهد الجديد باللغة اليونانية التى جمعها «إيراز موسى» عام ١٥١٦ كانت غير دقيقة . ولم يكن «إيراز موسى» متعجلاً فى عمله ولكنه استخدم مخطوطات ضعيفة . ولسوء الحظ ، أصبح النص المخطوط الذى جمعه (إيرازموسى) الأساس لجميع التراجم الجديدة للعهد الجديد للمذهبين الكاثوليكى والبروتستنتى على السواء. وربما كان سبب ذلك لأنه حظى بمباركة البابا «ليو» العاشر . وعندما ترجم (مارتن لوثر) نصوص الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية عام ١٥٢٠ ، بادر إلى ترجمة العهد الجديد من الطبعة الثانية للنص اليونانى الذى جمعه (إيرازموسى) .

وسرعان ما أخذت الطائفة البروتستانتية فى العالم تنظر إلى النص غير الدقيق، الذى جمعه أحد رعايا المذهب الكاثوليكى ، على أنه كلمة الله الملهمة التى انحرف عنها المسيحيون والعلماء والعلمانيون على السواء عند مواجهتهم خطر اكتشاف النص الصحيح، ونصح الكاثوليك بالتشكيك بنص العهد الجديد الذى جمعه «إيرازموسى» .

وفى أواخر القرن السابع عشر اعتقد راهب فرنسى متعلم يدعى (ريتشارد سيمون) بأن بمستطاعه المزاح مع البرونستانت ، عند الإشارة إلى أن الكتاب المقدس الذى يقدسونه ، بصفته المصدر الوحيد للوحى ، غير دقيق . وقد عقب على ذلك بقوله « إن النسخ الأصلية للمخطوطات قد فقدت . وفى وسع المسيحيين الرجوع إلى الكتاب المقدس على الهيئة الموجودة عليه اليوم بين أيدينا » .

وحاول (ريتشارد سيمون) البرهنة على أن الطريقة الوحيدة الأكيدة للوصول إلى العقيدة المسيحية القويمة هو القبول بالتعاليم الملهمة للكنيسة وليس بالكتاب المقدس وحده . ولقد دفع الإنذار الذى وجهه (ريتشارد سيمون) عن طريق الهجمات التى شنها على النص المقبول للمخطوطة المقدسة رؤساءه الدينيين إلى تدمير عديدٍ من أعماله . (الشىء الوحيد الذى لم يستطيعوا تدميره هو الحقيقة المتمثلة فى تأكيداته على أن نص الكتاب المقدس غير دقيق) . وقد جذبت أعمال (ريتشارد سيمون) انتباه القس «جون ميل» من الكنيسة الإنجليكانية: الذى أخرج فى القرن اللاحق نسخة ممتازة من العهد الجديد باللغة اليونانية. ولكن (ميل) نفسه لم يجرؤ على الاختلاف مع النص المقبول .

ولكن ملاحظاته العديدة التى كان قد اقتبسها من المخطوطات القديمة بدت أقدم من المخطوطات التى رجع إليها (إيراز موسى). وقد أظهرت ملاحظاته وجود عديدٍ من الأخطاء فى النص المقبول .

ولقد كان (ميل) حذرًا عند تقديم استنتاجاته، ويبدو أنه كان هناك مبرر لذلك إذ وجد أن القس (جوهان جاكوب وتستين) السويسرى الجنسية الذى نشر طبعة جديدة فى العهد الجديد باللغة اليونانية مختلفة عن نص «إيراز موسى» ، فقد منصبه الدينى بعد نشره الطبعة الجديدة .

إلا أنه لايمكن تجاهل طلبات العلماء إلى الأبد ففى عهد (تشيندروف) عُدَّت مشكلة نص العهد الجديد مسألة ملحة تحتاج إلى حل مناسب فى الوقت الذى أصبح فيه من المحال إخفاء المشكلة تحت غطاء العلم كالسابق . ويبدو مما سبق أن (جيبن) و (بورسن) قد فتحا عيون الناس على الأخطاء التى وقع فيها العلماء أما «تشيندروف» فقد وجد نفسه وسط النقاش الحاد الذى دار فى القرن التاسع عشر حول إمكانية القبول بالكتاب المقدس

ولم يكن «تشيندروف» مهتمًا حينئذ كالسابق بدقة نصوص العهد الجديد كم لم تكن لديه الرغبة فى الهجوم على التزييف الواضح فيه عند إشارته إلى الثالوث المقدس فى رسالة «يوحنا» الأولى .

وفى ذلك الوقت بدأ العلماء بإثارة الشكوك حول ما يدور فى سجلات الإنجيل عن حياة المسيح . وعن هذا الأمر كتب «تشيندروف» : « من المعروف أن عديداً من الرجال المتعلمين قد كتبوا مؤخراً أعمالاً حول حياة يسوع، محاولين البرهنة على أن يسوع الذى يطلق عليه المسيحيون اسم السيد أو الرب لم يُحى ما سجلته الأناجيل حوله . ويعتقد «تشيندروف» بأن هؤلاء الرجال المتعلمين قد أضروا بكتاباتهم بأسس المعتقد المسيحى » .

وأضاف يقول : « إذا كنا على خطأ بإيماننا بشخصية يسوع كما تعلمناه من الأناجيل فإن الكنيسة نفسها إذن على خطأ ويجب التخلى عنها واعتبارها وهماً » .

وبدا المعتقد المسيحى فى خطر . وليس من المستغرب أن تهتم المشكلة الرئيسية بالمعجزات التى صاحبت حياة يسوع .

وفى عام ألف وثمانمائة كتب لاهوتى من مدينة هايدلبرج ويدعى (هنريش إيرهارد جوتلوب بولوس) عن سيرة حياة السيد المسيح ، وذكر فيها أن الروايات التى دارت حول المعجزات التى وردت فى الأناجيل كانت تفسيرات غير دقيقة لما حدث فعلاً . ولم يعتقد (هزيش بولوس) بأن الأشخاص الذين كتبوا الأناجيل كانوا كاذبين، وعكس ذلك هو الصحيح . ففى اعتقاده أنهم سجلوا بشكل موثوق أعمال المسيح ولكنهم أساءوا تفسيرها فى الوقت نفسه .

فقد أكد (هنريش بولوس) مرة أن المسيح سار على حافة الرمال متجها نحو أتباعه الذين كانوا فى قارب صيد، فى الوقت الذى ورد فى الإنجيل بأن المسيح سار على المياه .

وكتب «هنريش بولوس» يقول : إن أكبر أمنية لديه هى عدم اعتبار وجهات نظره التى سجلها حول معجزات المسيح على أنها من أعظم وجهات نظر . ولقد باءت أمنيته هذه بالفشل. وعندما توفى عام ١٨٥١ لم ترحب الكنائس بوجهات نظره لدرجة قيام أحد القسس من جامعة أكسفورد للإعلان عن أمله بغرق جمع النقاد الألمان فى مقر المحيط الألمانى . وعلى الرغم من أن وجهات نظر العلماء المتطرفين وصلت جمهوراً أوسع إلا أنها جاءت مخيِّبة لآمال عديدٍ منهم. وكان (ديفيد فردريك شتراوس)، الذى أثارت وجهات نظره دهشة المسيحيين المحافظين، أكثرهم تطرفًا. الأمر الذى دفع جامعة زيوريخ التى كانت قد منحته كرسى اللاهوت فى الجامعة عام ١٨٣٩ إلى إحالته على التقاعد قبل مباشرته الوظيفة .

وافترض (شتراوس) فى كتاباته عن سيرة حياة المسيح أن كل جزء من الإنجيل قد تعرض إلى إعادة تفسير أسطورى. ولكنه، رغم قبوله بالأساس التاريخى لروايات الإنجيل، عاد

فناقش الموضوع بقوله : « إن الخط الفاصل بين الأسس التاريخية وغير التاريخية سيبقى متذبذباً إلى الأبد، وغير مقبول لتحقيق هدف معين »، ولم يؤمن «شتراوس» بأن الجانب الأسطورى غير صحيح بالضرورة . وناقش ذلك بقوله : » لقد كانت الحقائق الروحية مستقلة سواء أكان فصل من سيرة حياة المسيح قد حدث فعلاً أم لم يحدث » .

وكتب يقول : « لقد كنت مدركًا أن جوهر المعتقد المسيحى مستقل عن النقد. فالولادة الخارقة ليسوع ومعجزاته وانبعاثه وقيامه تبقى حقائق أبدية، مهما دارت حول صحة وقائعها التاريخية الشكوك » .

أما بالنسبة إلى (تشيندروف) وعديد من المسيحيين، فإن مثل هذه النقاشات غير مجدية. فإيمانهم فى الانبعاث مثلاً يعتمد على الثقة المطلقة بشهادة الإنجيل الذى كان «شتراوس» يقلل من أهميته. وليس هناك أدنى شك فى أن «شتراوس» بعمله هذا قد قلل من درجة إيمان بعض المسيحيين الأذكياء . وقد ترجم كتابه حول سيرة حياة المسيح ، إلى اللغة الإنجليزية من قبل الشابة (جورج إليوت) (*) التى علقت على الموضوع خلال قيامها بالترجمة قائلة : « إن شتراوس مريض » . وقالت أيضًا إنها شعرت بالغثيان عندما وجدت «شتراوس» يشوه القصة الجميلة حول صلب المسيح، ولأجل تحمل ذلك الألم ظلت تحدق فى تمثال لوجه المسيح مثبت على جدار المكتبة، وتمثال آخر يمثل انبعاث المسيح . ولا يتجاوز ارتفاع التمثال الأخير عشرين إنجًا، وهو من أعمال النحات (ثورفالدزن) حتى فقدت إيمانها فى آخر الأمر . وفى وقت لاحق عندما عُثر على تطابق بين مؤلف (آدم بيد) وترجمة (شتراوس) التى أصبحت معروفه ، صعق عديد من النقاد .

إن مجرد التوقف عن الإيمان بصحة الأناجيل وصعود المسيح ، بدا وكأنه تدمير لأساس المعنويات المسيحية ، يعبر عن ذلك ما أعلنه الناقد (كراب روبنسون) البالغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، من أن عمل (جورج إليوت) قد هدم جميع العقائد التى تدور حول الخطأ والصواب والحق والباطل . وكتب (الفرد تنسن) فى قصيدة له تحت عنوان «فى ذكراى» «أسير مضطربًا الآن بعد أن كنت أطأ الأرض بثبات » .

وسجل أحد المراقبين الدقيقين ملاحظاته عام ١٨٧٧ حول الموضوع فقال : « يمكن

(*) جورج إليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠ هى مارى آن إيفانز روائية إنجليزية واسمها الأول (جورج إليوت) رمز أدبى مستعار ، رواياتها المشهورة متميزة بأسلوبها الواقعى .

سماع الرجال والنساء يعربون عن عدم اعتقادهم بقضايا كانت فى يوم ما تمثل المبادئ الأساسية للعقيدة المسيحية . وأعرب عديد من الزعماء الدينيين عن قلقهم على إيمان الرجل العادى » .

وفى هذا المضمار أكد الروائى الغاضب (جارلى كينجسلى) قائلاً : لقد سلب بعض الكتاب من أمثال (شتراوس) من الفقراء منقذهم .

وهنا يمكن تثمين عمل (تشيندروف) الذى قضى حياته فى إنجازه . لقد كان (تشيندروف) عازمًا على تكذيب الأشخاص الذين دمروا معتقد العالم المسيحى . ويبدو أن عديداً من المسيحيين كانوا يتطلعون بتلهف إلى مثل ذلك التكذيب .

وقد كتب «تشيندروف» فى كراس نشر فى مارس (آذار) فى عام ١٨٦٤ قائلاً : « آمل أن تخدم كتاباتى هذه النهاية ، وتجعلكم تفقدون الثقة بالنظريات الروائية المنسوجة حول الأناجيل أو بالأحرى ضدها . والتى تقنعكم بأن التفاصيل الجميلة التى تضيفها الأناجيل على منقذنا المقدس مبنية إما على الجهل أو الخداع. » .

وقد نفدت خلال ثلاثة أسابيع فقط جميع نسخ الكتاب الذى ألفه «تشيندروف» والتى بلغ عددها ألفى نسخة .

كما لاقت الأعمال التى هاجمها «تشيندروف» فى كتابه ، لاقت هى الأخرى رواجًا واسعًا، وقد قام أحد الناشرين الفرنسيين عام ١٨٦٣ بنشر الهجوم الأخير حول تاريخ الأناجيل .

وانتقد عالم ألمانى الكتاب الذى ألفه (أرنست رينان) حول حياة المسيح الذى صور فيه المسيح أشبه مايكون بالشخصيات المسرحية الرومانسية وكتب أحد النقاد معقبًا : « بدأ رينان وكأنه مؤلف المسرحية ومدير المسرح ومسئولاً عن إدارة المسرح . فبإشارة منه يُضاء المسرح المفتوح، وبينما تعزف الأوركسترا افتتاحية المسرحية يدخل الناس ليحتلوا مقاعدهم بين الأشجار على ضفاف البحيرة قبل أن يبدأ المسيح بالتبشير بلاهوت الحب اللذيذ كما وصفه رينان » .

أما «تشيندروف» فكان يسخر من جهل (رينان) بجغرافية الكتاب المقدس . وقال عن ذلك معقبًا : « يبدو أن المسيو (رينان) قد أخذ حرية غريبة فيما يتعلق بالأرض المقدسة » .

والشىء الذى وجده مرعبًا حقًا هو افتراض (رينان) بأن معجزات المسيح كانت مبنية

على الخداع بمساعدة أصدقائه الأذكياء . فمثلاً أن صديق المسيح لم يكن ميتًا ولكنه رتب الأمر وطلب تكفينه بقماش ووضعه فى القبر . ولما كان «**العازر**» مصفر اللون من جراء المرض، فقد تكفن ووضع نفسه فى المقبرة العائلية، وظهر كأن المسيح قد أحياه من الموت ، وبعد ذلك اكتشف خدعة العائلة .

لقد كان ذلك الحادث بالنسبة إلى (تشيندروف) الفضيحة الأخيرة فى المؤلف السطحى حيث كتب يقول «ليس هناك من شىء سوى كاريكاتير للتاريخ منذ البداية وحتى نهاية الكتاب». أما موقف (رينان) من قيامة المسيح . فقد بدا فى اللحظة الأولى أقل كفرًا من مسرده لرواية نهوض «**العازر**» من القبر . لذلك لم يثر الرعب فى قلب «**تشيندروف**» – مع أنه كان غير مقبول من قبل علماء مسيحيين آخرين .

وبعد وفاة المسيح ، يبدأ (رينان) برثاء المنقد قائلاً : « أرقد الآن وسط المجد، يا أيها الرائد النبيل . إنك قاهر الموت . خذ الصولجان إلى مملكتك ليلتحق بك عديد من عبادك عبر القرون ، على الطريق السريع الذى عبدته » .

ومن الغريب ألاّ يحلل (رينان) التناقض بين فرضيته حول قيامة المسيح وما كتبه حول خداعات الرسل، وما ورد فى الأناجيل حول المعجزات الأخرى، وخاصة الرواية التى تدور حول قيام«**العازر**» .

وفى الحقيقة أن (رينان) نفى موضوعة القيامة الجسدية للمسيح. وفى وقت لاحق علق (البرت شوايتزر) على الموضوع بقوله : « الجرس يقرع والستارة ترفع والمقاعد الهزازة تميل إلى الأمام وإلى الخلف ولا يسمع للخاتمة صوت . سوف لا يكون للمسيح أى منافس، وستتجدد عقيدته مرة بعد أخرى . وستذرف الدموع على الرواية التى تسرد سيرة حياته وستساعد معاناته على جعل قلوب الناس تلين له ، وطوال قرون سيعلنون أنه من بين أبناء الرجال لم يُخلق إنسان أعظم من السيد يسوع المسيح . » .

وهنا يكمن خلود السيد يسوع المسيح . وقد هاجمت المسيحية القويمة كتاب (أرنست رينان) . الذى يدور حول سيرة حياة السيد يسوع المسيح . وقد ساعدت الضجة على تداول المطبوع فقد صدرت ثمانى طبعات فى الكتاب خلال ثلاثة أشهر . ويبدو أن (تشيندروف) لم يكن مقتنعًا بادعاء (رينان) أن السيد يسوع المسيح هو ابن الإنسان ، وكان (تشيندروف) يعلم بأن مصير «**رينان**» وبقية الأشخاص المشككين بصحة الأناجيل يذهب إلى النسيان . واعتقد (تشيندروف) بأن اكتشافاته حول الأناجيل سيكتب لها الخلود ، مؤكدًا أن الأناجيل شأنها شأن الابن ، سيكتب لها البقاء طيلة بقاء النفس البشرية . وجاءت ثقة (تشيندروف) بنفسه من

قابلياته المتعددة الجوانب وإدراكه أن بعض الأكاديميين يحاربون الأشخاص الذين يشككون بصحة الكتاب المقدس . ومن بين هؤلاء (كارل لايتشمان) الأستاذ فى جامعة برلين الذى كان (تشيندروف) معجبًا به .

لم يكن (لايتشمان) لاهوتيًا. ولكنه عكف على دراسة المخطوطات الجرمانية القديمة . وعندما عكف على دراسة الكتاب المقدس درسه بشغف وبعقل أكاديمى محايد وأعلن عند تهيئته النصوص أنه لا يهتم بمعناها أو تفسيرها مقدار اهتمامه بتقديم نص غير قابل للجدل . وبعد تقديم النص الأصلى سيقوم آخرون بتقديم تفسيرات اللاهوت وقواعد الكتاب المقدس : وعكف (لايتشمان) على تحقيق نص للكتاب المقدس معتمدًا على أقدم المخطوطات التى وقعت بين يديه . وقد أصدر (لايتشمان) طبعته للعهد الجديد عام ١٨٣١ .

ووجد (تشيندروف) النص الذى حققه (لايتشمان) جيدًا. ولكنه غير وافٍ وشخّص (تشيندروف) المشكلة بقوله : « لقد فشل (لايتشمان) فى اكتشاف نص محصن للكتاب المقدس » . وكرس (تشيندروف) حياته لحل هذه المشكلة . ومن أجل إيجاد حل لها بادر إلى جمع ثلاثة آلاف نسخة من الكتب النادرة المحفوظة الآن فى مكتبة جامعة كلاسكو . وليس هناك أدنى شك فى أن أى زائر سيتأثر بالطريقة التى كرس بها (تشيندروف) حياته لإنجاز هذه المهمة .

وتضم المكتبة نسخته من طبعة (إيرازموسى) الأولى للعهد الجديد المدون باللغة اليونانية والذى نشر فى بازل عام ١٥١٦ ، وكذلك نسخة من الطبعة الثانية للكتاب الذى نشر عام ١٥٢١ .

ويبدو أن (تشيندروف) كان يمتلك الطبعة الأولى من ترجمة (لوثر) للعهد الجديد باللغة الألمانية . ونسخًا من الكتاب المقدس للآباء الأوائل من أمثال القديس(هيرونيمس) ونسخة من العمل الثورى (لجون ميل) عن العهد الجديد المدون باللغة اليونانية والذى انتشر فى (لايبزج) عام ١٧١٠ . كما عكف (تشيندروف) على دراسة المخطوطات القديمة . واقتنى كتاب أحد الرهبان الفرنسيين من البندكتيين يُدعى (جان مايبلون) عاش فى القرن السابع عشر جاء فيه شرح فى طريقة تطور النص اللاتينى خلال ألف وسبعمائة عام . كما نجح فى اقتناء مخطوطة أخرى تعود إلى راهب بندكتى مشهور يدعى (برنارد دى جونت فوكون) وقد شجع نشر المخطوطة سنة ١٧٠٨ ألف وسبعمائة وثمانى عديدًا من الدارسين على دراسة حل النقوش والكتابة اليونانية والبيزنطية القديمة .

وقد كتب (تشيندروف) إلى خطيبته (أنجليكا) قائلاً : إننى أواجه مهمة مقدسة هى الصراع من أجل الوقوع على النص الأصلى للعهد الجديد» .

وكان تحت تصرفه أربع مخطوطات قديمة ونادرة : الأولى مخطوطة الإسكندرية التى يعتقد بأن عمرها يناهز الألف والثلاثمائة عام . والمعروضة حاليًا فى المتحف البريطانى . والثانية المخطوطة المسماة (كلار مونتانوس) المعروضة حاليًا فى المتحف الوطنى فى باريس . وتضم المخطوطتان أجزاء من النسخ القديمة للكتاب المقدس، أما المخطوطة الأخرى التى يصعب الوصول إليها فهى المخطوطة «الفاتيكانية» التى يعود تاريخها إلى منتصف القرن الرابع الميلادى، وكان بإمكان هذه المخطوطة إثبات صحة الكتاب المقدس، ولكن سلطات الفاتيكان لا تسمح لأى شخص كان بالاطلاع عليها. أما المخطوطة الرابعة فهى مخطوطة أفرايم المحفوظة فى باريس . وتكمن المشكلة فى عدم استطاعة أى شخص قراءتها . وفيها نص للكتاب المقدس مدون فى القرن الخامس الميلادى، ويبدو أنه بمرور الزمن مُحيت الكتابة من ورقة البردى لتستخدم مرة ثانية من قبل أستاذ سورى يدُعى (أفرايم) . ولم يستطع أحد حل رموز النصوص الإنجيلية التى كانت مدونة فى السابق قبل امحائها .

أما (تشيندروف) فلم يعبأ بهذه المشكلات، إذ قرر نشر طبعة جديدة للعهد الجديد اليونانى خلال عام . وكانت هذه المهمة صعبة . وبصدد هذا الموضوع كتب إلى خطيبته «أنجليكا» يقول : لقد أثقلت كاهلى هذه المهمة الصعبة التى عزمت عليها ، وإنى لواثق أنه ما من أحد يصدق أنى أنجزت المهمة خلال سنة ، الأمر الذى سيعود علىّ بالمديح والذم » . وصح ما توقع (تشيندروف) من ذم زملائه الحساد له متهمين إياه بالغرور . وعن هذا الأمر كتب يقول : إننى أترك مصيرى إلى الله ، ورغم ضيق أفق بعض الذين يثيرون الشكوك حولى وحسدهم إلا أننى أصارع من أجل إنجاز شيء مقدس ، وإن كنت أشعر بالوهن .

وطلب من خطيبته «أنجليكا» ألاّ تعير اهتمامًا لانتقادات الأعداء والحساد قائلاً : إذا حاول البعض التشكيك بالدوافع التى شجعتنى على إنجاز هذا المشروع بقولهم إننى أحاول تحقيق أهداف أخرى غير الأهداف السماوية ، فيجب عدم تصديقهم » .

وقرر (تشيندروف) زيارة باريس ولندن ومناطق أخرى لدراسة تلك المخطوطات . وطلب منحة دراسية من وزارة التربية فى منطقة ساكسونيا إلا أن منافسيه من الأكاديميين حاولوا إعاقة طلبه هذا . .

فكتب إلى أنجليكا قائلاً : « لن أيأس ، فإن عندى إيمانًا بأن الأب فى السماء يحبنى

لأنه يعاقبنى . وإلا فما هو الجرم الذى قمت به لأعانى كل هذه المعاناة ... تركى الدراسة التى كان بالإمكان أن أحقق فيها شيئًا جيدًا وأن أتجه إلى قضايا غير اعتيادية » .

أما عن الآمال الطموحة التى تضمنها مشروعه العظيم فكتب يقول : أمام الله أشعر من أعماق قلبى بأنه ليس الغرور الذى يدفعنى للقيام بهذا العمل بل إلهام فكرى لا يمكننى مقاومته «ورغم ذلك فباستطاعة (تشيندروف) فى بعض الأحيان أن يكون صادقًا فيما يخص طموحاته الكبيرة . فقد كتب إلى خطيبته قائلا : «لدى طموحات أخرى تكمن إحداها فى روما. وإنى على استعداد للقيام بأى مهمة حتى لو كانت تؤدى إلى أن أُلقى بنفسى إلى التهلكة » .

ويبدو أن «تشيندروف» كان مصممًا على تحقيق المخطوطات ، ومن ضمنها المخطوطات الفاتيكانية المحظورة، ويظهر أنه فشل فى آخر الأمر فى تحقيق هدفه، مع أنهُ كان على وشك النجاح . وفى عام ١٨٤٠ حقق «تشيندروف» نجاحًا ساحقًا ورغم محاولات خصومه عرقلة مساعيه ، إلاّ أن «تشيندروف» حقق نجاحًا فى نشاطاته . وقد حصل على منحة من وزير التربية الدكتور (فون فولكيتشتاين) قدرت في حينها بمئتى ثاليرز Thalers ، كما حصل على مبلغ آخر من شقيقه . وفى أكتوبر شدّ (تشيندروف) رحاله لإنجاز مهمته الجديدة ، التى كتب بشأنها إلى خطيبته أنجليكا قائلاً : « مصيرى يدعونى لإنجاز هذه المهمة ويجب أن ألبى الدعوة » .

وعندما وصل (تشيندروف) باريس، واجهت عبقريته لأول مرة تحديًا شاقًا نجح فى تجاوزه . فقد درس مخطوطه (كلارا مونتانوس) وحقق أربعًا وستين صفحة من العهد القديم ومائة وخمسة وأربعين صفحة من العهد الجديد فى مخطوطه (أفرايم) .

وثمة رواية متداولة جديرة أن يشار إليها ، حول عائلة (تشيندروف) ، تذكر والدته وكانت حبلى به إنها صادفت يومًا رجلاً أعمى فى أحد شوارع (لينجنفيلد). فصرخت متضرعة إلى الله قائلة : « يا إلهى لا تدع طفلى يولد أعمى ! » وقد ولد لها ابن ذو نظر حاد . فقد قضى سنتين من عمره فاحصًا ودارسًا الرسائل اليونانية القديمة من مخطوط (أفرايم) التى سُطِّرت فوق النص السريانى .

وفى أوائل عام ألف وثمانمائة وثلاثة وأربعين نشر طبعته للمخطوطة التى حلّ رموزها . وقد كان إنجازًا عظيمًا . وحقق (تشيندروف) شهرة علمية واسعة حين زار لندن وهولندا وسويسرا وإيطاليا بحثًا عن مخطوطات جديدة للكتاب المقدس . وواجه فى روما معارضة ، وإن كان من الصعب معرفة الأشخاص الذين وضعوا العراقيل فى طريقه . إلا أن روايته قد تلقى الضوء على أولئك الأشخاص الذين حاولوا عرقلة مساعيه .

فقد ادعى (تشيندروف) أن البابا «جريجوريوس السادس عشر» سمح له

بالاطلاع على مخطوطة الفاتيكان، ولكن الكاردينال (ماى) الذى كان يرغب بإصدار طبعة باسمه لذلك النص ، عرقل خطط (تشيندروف) . وسمح للعالم الألمانى الاطلاع على مخطوطة الفاتيكان لمدة ست ساعات فقط، ويبدو أن تلك الحادثة قد أثرت على علاقاته فيما بعد مع الكنيسة الكاثوليكية فى تلك الأيام. ولقد كلف ذلك (تشيندروف) كثيراً، إذ ألحق به أضراراً مادية كثيرة. فقد منحته وزارة الأديان والتربية مائتى ثاليرز Tholers فى الوقت الذى بلغت تكاليف رحلته إلى باريس فقط سبعمائة وخمسين ثاليرز . واضطر (تشيندروف) لتغطية متطلبات العيش إلى القيام بأشغال يدوية كاستنساخ المخطوطات إلى أشخاص آخرين وإلى غير ذلك من الأعمال .

والأسوأ من ذلك فشله فى تحقيق الطموح الذى وضعه نصب عينيه عام ألف وثمانمائة وتسعة وثلاثين لإعادة بناء النص الكامل للكتاب المقدس كما دونهُ الرُسل المقدسون وكان (تشيندروف) يعلم جيداً فى قرارة نفسه بأن طبعته النقدية الأولى للعهد الجديد لم تكن مرضية .

ولقد كانت المخطوطات التى وضعت تحت تصرفه غير دقيقة . وبدا واضحاً أمام تشيندروف ضرورة العثور على مصادر جديدة لأجل جمع النص المسند للكتاب المقدس .

ولقد حلل زوج ابنة (تشيندروف) التغير الذى طرأ على طموح والد زوجته . فكتب يقول لقد كان (تشيندروف) مقتنعاً بأن ليس هناك أهم من دراسة المخطوطات القديمه للعهد الجديد للبرهنة على أصالتها .

وبعد سنوات من الدراسة المتواصلة توصل إلى نتيجة وهى أن ما أنجزه لم يكن كافياً . ولأجل البرهنة على وجود الأناجيل وأصالتها كان هدفه البحث عن مخطوطات تقدم الدليل على ذلك .

فجاء به ذلك البحث إلى دير القديسة كاثرينا المشيد فى جبل سيناء .

الفصل الثانى

الديـــــر

ما المكان الذى يستطيع فيه عالم فى القرن التاسع عشر العثور على مصادر للأناجيل المسندة ؟ إن الجواب عن هذا السؤال هو : الشرق الأوسط . ففى ذلك الوقت أفل عهد جامعى الكنوز والتحف التى كانوا يحصلون على عديد منها من الأديرة الشرقية . وقد أطلق البعض على جامعى التحف « بالسراق» . وعن هذا المضمار ذكر (روبرت كارزون) بأن البارون الرابع عشر (روشى) الذى كلف من قبل المتحف البريطانى بالبحث عن مخطوطات قديمة كان قد صرح متفاخراً بأنه كان يدفع راهباً ضريراً طاعناً فى السن إلى تناول الكحول حتى السكر ليسلبه كتبه القديمة .

وفى منتصف القرن الثامن عشر استطاع مطران إنجليزى يدعى (ريتشارد بوكوك) الوصول إلى مكتبة رهبان دير القديسة كاثرينا الواقع فى جبل سيناء حيث شاهد عديداً من المخطوطات . وأعلن فى حينه أنه لم يكن بينها مخطوطة ذات قيمة .

كان المطران (بوكوك) على خطأ . وقد دفع خطؤه آخرين للوقوع فى الخطأ نفسه . فقد صرح (وليم تيرنر) الذى زار الدير عام ١٨١٥ بالقول : لقد صدق الرهبان عندما أخبرونى عند إجابتهم عن سؤالى عن المخطوطات بأن لديهم ثلاث نسخ فقط من الكتاب المقدس معتمدين بتصريحهم هذا على أقوال بيكوك الذى أعلن عدم وجود مخطوطات نفيسة فى دير القديسة كاثرينا .

ولهذا السبب عاد (وليم تيرنر) خالى الوفاض من الدير .

وقد عثر آخرون على كنوز ثمينة قاموا بنهبها . فقد ذكر (وليم جون بانكيك) الذى زار دير القديسة كاثرينا عام ١٨١٥ أنه استطاع العثور على مكتبة تضم مئتى كتاب ، ٧٥ بالمئة كانت مخطوطات و ٩٠ بالمئة من تلك المخطوطات مدونة باللغة اليونانية. وكان (وليم بانكيك) وهو ابن صاحب فندق إنجليزى لا يحمل احتراماً كبيراً للكتب الدينية وقد علق على ذلك بقوله : « لقد كان قسم من تلك الكتب ممتعاً إلا أن معظمها كتب دينية » وقد عاد بخمس مخطوطات وهى .

١ - كتاب هينيستيون حول المقياس اليونانى .

٢ - الكتب الثلاثة الأولى فى ملحمة الإلياذة مع جزء من الكتاب الرابع وتراجيديا اسخيليوس وشعر يونانى .

٣ - كتاب ميديا إلى يوريبيدس وبداية فى كتاب هيبوليتُس .

٤ – أحد أعمال المؤرخ البيزنطى سدرينوس .

٥ – نظريات أرسطو فى علم الفيزياء .

ولقد تمكن وليم بانكيك من مشاهدة جزء بسيط من كنوز الرهبان الأدبية . وفى عام ١٨٢٢ كتب (جون بوركارد) عند زيارته للدير قائلاً : « لديهم مكتبة ثمينة ولكنها دائما مغلقة وتضم حوالى ألف وخمسمائة كتاب باللغة اليونانية وسبعمائة مخطوطة باللغة العربية. » .

وقد أثارت طريقة الرهبان فى إبعاد الزوار عن مكتبة دير القديسة كاثرينا حفيظة الزوار الغربيين الذين تحملوا مشاق السفر للوصول إلى جبل سيناء . وذكر بعضهم بغضب إن الرهبان لا يرجعون إلى كتبهم الثمينة. وكتب فى عام ١٨٣٨ زائر أمريكى يدعى الدكتور (إدوارد روبنسون) قائلاً : «إن المكتبة مهملة تماماً ولم ألاحظ أن المطالعة تشكل جزءاً من مهام أو اهتمام الرهبان فى الدير » .

وفى الواقع أن الرهبان كانوا يدركون قيمة الكنوز الثمينة التى يمتلكونها والتى يحاول الزوار نهبها . وبعد مرور عام على زيارة (روبنسون) ، وصل الدير رئيس الشمامسة (هنرى تاتام) ورفيقة سفره الآنسة (بلات) . ولقد حاول (تاتام) شراء أقدم مخطوطة دينية موجودة فى الدير، والتى نادرا ما سمح له رئيس أساقفة الدير بالاطلاع عليها مبرراً ذلك بقوله : قبل عشر سنوات حاول رجل إنجليزى شراء المخطوطة مقابل ثلاثمائة بادن استرلينى ولكن رئيس الأساقفة فى القاهرة اليونانى الجنسية أرسل توجيهاته إلى الدير بعدم التفريط بالمخطوط بأى شكل من الأشكال » .

وقد أثار رفض الرهبان بيع المخطوطة النفيسة حفيظة (تاتام) ورفيقة سفره الآنسة (بلات) التى علقت على ذلك بقولها : إن مبلغ الثلاثمائة بادن الذى عرض على هؤلاء الرهبان المساكين لقاء أمور من هذا القبيل مبلغ كبير » .

ولكن تلك المخطوطات كانت تمثل قيمة كبيرة بالنسبة (لتشيندروف) فقد أخبر شقيقه (جولياس) عن قناعته بأن تسعا من الأديرة ما زالت تحتفظ بعديدٍ من تلك المخلفات التراثية ، كان (تشيندروف) يبدو مقتنعاً آنذاك بعبقريته وتفوقه على خصومه ومنافسيه فى حقل المخطوطات الإنجيلية . وفى وقت لاحق أخبر شقيقه جولياس قائلا : ليس هناك شخص يضع أمامه هدفًا معينًا مثلى ، لقد تعلمت ألاّ أثق بأعمال سلفى » .

لقد كان (تشيندروف) عازمًا على البحث بنفسه عن مخطوطات جديدة. مما حدا به إلى

اللجوء إلى وزارة التربية والشئون الدينية طالباً منها منحة دراسية. وفى نهاية عام ١٨٤٣ شد (تشيندروف) رحاله متوجهاً إلى روما لكسب بركة الكنيسة للمعرفة وفى مارس من عام ١٨٤٤ أبحر (تشيندروف) من ميناء (ليجورن) فى إيطاليا مستقلاً باخرة حربية فرنسية متوجهة نحو الإسكندرية عن طريق مالطة . وعند وصوله الإسكندرية استقل باخرة صغيرة أقلته إلى القاهرة عن طريق نهر النيل .

وفى القاهرة استقبله رهبان دير القديسة كاثرينا فى البيت الملحق بالدير . ومنذ اللحظة الأولى اتخذ (تشيندروف) موقفاً عدائياً من مضيفيه شأنه فى ذلك شأنه عديد من الزوار الغربيين من طائفة البروتستانت فقد وصف تعبدهم بأنه : ليس هناك أى انسجام فى طريقة تعبدهم » .

كما احتقر موقفهم من المعرفة عندما لم يعروا اهتماماً لمطالبه الملحة .

وفى هذا السياق كتب يقول : « إن وجود مكتبة لدى هؤلاء الرهبان أشبه بوجود سيدات معنا فى الدير » .

وعندما سأل الرهبان عما إذا كانوا يحتفظون بأية مخطوطات قديمة فى القاهرة ، أخبروه (تشيندروف) بأن جميع مخطوطاتهم موجودة فى دير يقع فى جبل سيناء إلا أنه تمكن من إقناعهم بفتح الخزانات التى كانت تستخدم لحفظ الكتب فى بيتهم فى القاهرة .

وعن هذا الأمر كتب (تشيندروف) يقول : « لقد قضوا نصف ساعة فى العثور على المفتاح » وعندما فتحوا الخزانات وجدوها مملوءة بالمخطوطات القديمة » .

ولقد دفعه هذا الاكتشاف إلى قطع الصحراء وتحمل مشاق السفر للوصول إلى دير القديسة كاثرينا، فى ذلك الوقت كان السفر بالوسائط الصناعية الحديثة فى بداياته . فقد كانت البواخر المزودة بعجلات تجذيف منتشرة فى الموانئ اللبنانية والفلسطينية . وفى الوقت الذى نشر فيه (مورى وبيكر) دليلهم السياحى فى الشرق . انتشرت سفريات (توماس كوك)، فى المنطقة .

ورغم ذلك ظل السفر إلى تلك المناطق أمراً شاقًا . وفى عام ١٨٦٢ شد (هنرى توماس باكل) رحاله لزيارة مصر والأراضى المقدسة يصحبه طالبان وعشرون جملاً وحماران وارتدى (هنرى باكل) ورفيقاهُ ملابس داخلية صوفية لتقيهم برودة الصحراء . ورغم ذلك أصيب (باكل) بحمى التايفوئيد وتوفى فى دمشق . وقبل وفاته نحب قائلا : « كتابى .. كتابى لن أتمكن من إنجاز كتابى » .

لقد كانت رحلة (تشيندروف) فى القاهرة إلى جبل سيناء عام ١٨٤٤ رحلة شاقة وخطرة فى وقت معًا :

وكان الروائى الفرنسى المشهور (الكسندر دوماس) ، قد قام برحلة مشابهة عام ١٨٣٦، وعند نفاد ماء الشرب فى الصحراء قال لنفسه : « وطالما سألت نفسى عن الجنون الذى دفعنى إلى هذا المكان الذى سألقى حتفى فيه» . وعند مروره بالهياكل العظمية المتبقية من الجثث التى نهشتها أبناء آوى والضباع وصف (دوماس) المنظر قائلاً :

« لقد أمضينا رحلتنا على صوت الخبب ورءوسنا مطأطأة إلى الأسفل بينما كنا نغلق عيوننا من حين إلى آخر بسبب الخدوش التى تركتها فيها رمال الصحراء ». وعانى فى النهار من ضربة الشمس والحروق التى أصابت بشرته حيث كتب يقول «أستطيع أن أؤكد أنى غالبًا ما كنت أشعر ، عندما نقطع الصحراء ، بأن لدى أنف جديد مع كل مساء » .

وقد كشف (دوماس) ، بوصفه هذا رومانسية الصحراء ومعاناتها .

إن قلة من الغربيين كانوا ماهرين فى امتطاء الجمل. أما بالنسبة إلى «الكسندر دوماس» فقد كانت طريقة عدو الجمل التى تشبه ضربات سيف خفى تسبب له آلاما وعذابًا متواصلا » . ونتيجة هذه الآلام قضى «دوماس» ليالى رهيبة وصفها بقوله « لقد كنت أقضى الليالى متحملاً الآلام المضنية فى كل مكان من جسدى ». ومع ذلك كان يدرك جيدًا أنه سيعانى هذا العذاب مجددًا عند عودته إلى القاهرة. وفى الحقيقة كانت رحلة العودة أسوأ . فقد أصيب (دوماس) بجنون مؤقت وهلوسة، وذلك خلال هبوب عاصفة رملية منعتهم عن تناول الطعام مدة ثلاثين ساعة .

ولم يكن بالمستطاع تقدير احتياجات القافلة المسافرة فى الصحراء إلى الماء . ففى هذا الشأن ذكر البروفسور (فليندرز بنترى) عام ١٩٠٦ عند دراسته الآثار المصرية فى سيناء أنه فى إحدى المرات أمطرت السماء لمدة يومين بلا انقطاع متسببة فى حدوث سيول اجتاحت منحدر الجبل . وبعد مرور أسبوع غطت الزهور الوادى . كما أن تقلبات الحالة الجوية فى تلك المنطقة لم تخلُ من المخاطر . فقد شاهد القس (إن. دبليوهولاند) عام ١٨٦٧ خلال رحلته فى صحراء سيناء ، قافلة مؤلفة من ثلاثين شخصًا وقطعانا من الماشية والبغال تقاد إلى حتفها فى وادى فيران وذلك بسبب السيول الجارفة التى حدثت فجأة .

كما أن شحة الماء فى الصحراء لا تقل خطورة عن السيول الجارفة التى تسببها الأمطار الغزيرة .

وينقل القس (سى بيكر ينج كلارك) شكوى أحد المسافرين من مشاق الرحلة إلى دير القديسة كاثرينا : « لقد كنا نستريح لفترة ساعتين أو ثلاث ساعات غالبًا ما كان يقاطعها التنبيه المتكرر الذى كان يرهق أسماعنا إذا ما حوصرنا فى المنطقة فسنموت من العطش » .

ورغم تلك المخاطر فنادراً ما نلاحظ أن أحد المسافرين إلى جبل سيناء يصاب بخيبة أمل . وتستغرق الرحلة إلى جبل سيناء أربعة أيام على ظهر الجمال . ومعظم الرحالة كانوا يقطعون أوقاتهم فى الصحراء فى الرسم والتنقيب والحوار . وقد كتب الروائى دوماس : «أشعر من دون ريب بأن الأيام الأربعة التى قضيناها فى صحراء سيناء كانت أسعد أيام حياتى وأكثرها انشغالاً» . وقد دفعت الرغبة فى الانطواء والهروب من الحضارة الغربية ، العديد من الأشخاص من كلا الجنسين إلى اللجوء إلى الصحراء المقفرة . ومن ذكريات (دوماس) فى تلك الرحلة ما كتبه : « فى إحدى المرات تسلقت إلى قمة جبل سيناء وجلست على صخرة أتناول الطعام الذى هيأه لى الرهبان فى الدير . وحين انتصبت واقفًا لاحظت اسمًا منقوشًا على الصخرة التى جلست عليها . وإذ قرأت الاسم وجدت أنه يعود إلى سيدة انجليزية تدعى الآنسة «بينيت» . وعند عودتى إلى الدير راجعت سجل الزوار فلاحظت أن عدد الزوار الإنجليز إلى الدير يفوق عدد الزوار الآخرين من جنسيات أخرى . فقد لاحظت أن شخصًا أمريكيًا واحداً زار الدير واثنين وعشرين فرنسيًا وأربعة آلاف إنجليزى من بينهم الآنسة بينيت » .

ولقد شعـر زوار آخرون زاروا الديـر بالهدوء نفسه الذى شـعـر به الروائى الفرنسـى «دوماس» .

وفى نهاية القرن التاسع عشر اصطحب أحد أساتذة جامعة كمبردج يدعى البروفسور (بنسلى) زوجته إلى جبل سيناء وتبين أنه بعد مرور ثلاثة أيام على عودته إلى إنجلترا توفى دون سابق إنذار .

وقد وصفت السيدة «بنسلى» الفترة التى قضتها مع زوجها فى جبل سيناء بأنها أشبه بالحلم إذ كتبت تقول : « أتذكر الأفق الممتد فى الصحراء والضياء الذهبى اللون المنبعث من الصحراء وأشعة الشمس الأبدية . كنت أستمع إلى صوت خرير المياه وحركة أشجار النخيل . ولا أدرى فى هذه اللحظة أكانت ذكرياتى حلمًا من الماضى أم رؤيا المستقبل ؟ »

لقد كان دير القديسة كاثرينا آنذاك ، كما هو عليه الآن ، بقعة رومانسية . حتى طريقة الدخول إلى الدير، إذ كان الرهبان يساعدون الزوار على الدخول إلى الدير بواسطة الحبل

والبكرة ، فقد كانوا يلقون بالحبل إلى الزائر ليتشبث به ثم يقومون بسحبه بواسطة البكرة . ففى عام ١٦٠٠ زار رجل فرنسى يدعى (هنرى كاستيل) الدير وسجل مشاهداته فى الدير ، والتى جاء فيها : « لقد وجدت راهبًا واحدًا فقط قال لى بأنه تضور جوعًا . كما شاهدت خمسة وعشرين راهبًا آخرين يقطنون سفح الجبل . » ويبدو أن كاستيل قد زار الدير عندما كان مستوى المعيشة قد انخفض هناك .

ويبدو أن ثروات الرهبان قد انتعشت عندما زار الروائى الفرنسى (الكسندر دوماس) الدير . فقد سجل مشاهداته قائلا « عند زيارتى للدير شاهدت ستين راهبًا وثلاثمائة خادم . وكان الخدم يقدمون لى فى وجبات الطعام المؤلفة من البيض واللوز والكعك والجبن والتمر والبراندى . لقد كانت واحات الرهبان مزدهرة حيث توجد فيها مزارع واسعة للكروم وعند مغادرتى الدير زودنى الرهبان بالبرتقال والكشمش وشراب مستخلص من التمر ». وظل الحبل والبكرة الطريقة الوحيدة للوصول إلى الدير .

كما جاء فى مشاهدات (دوماس) التى سجلها : « طفنا حول جدران الدير المنيعة ملتقين بكل خطوة نخطوها بالبدو الرحل الذين كانوا شبه عراة . ويبدو أن منظر الدير قد جذبهم إلى تلك المنطقة آملين العيش على الحسنات التى يقدمها الرهبان لهم على نحو ما يشبه وضع الفقراء الذين يوجدون بالقرب من أبواب الكنائس بأمل الحصول على حسنات الأغنياء ».

ورغم أن (دوماس) كان يحمل رسالة إلى الرهبان تتضمن تعريفًا بشخصه إلا أنه كان يخشى أن يبدى الرهبان عدم استعدادهم لاستقباله .

وجاء فى وصفه لمشاهداته خلال الرحلة التى قام بها إلى دير القديسة كاثرينا : «فى بادئ الأمر أدلوا بالسلة بواسطة الحبل لتسلم الرسالة والحقائب ثم رموا الحبل مثبتًا فى نهايته قضيب على هيئة صليب لحمل الزوار إلى الدير » .

وقد تمتع القراء بالوصف الذى دونه «الكسندر دوماس» عن رحلته إلى دير القديسة كاثرينا ويبدو أن (دوماس) قد ساعد القراء على الهرب من حياتهم الرتيبة المملة ليحملهم إلى عالم الخيال البعيد . ولم يعد القراء الغربيون ينظرون إلى الدير كملجأ للقوى الروحية بل جنة بعيدة لم تصلها مشكلات العالم الحقيقى .

ولقد شجع الوصف الذى سجلة «دوماس» الروائى (بيرلوتى) على القيام برحلة إلى دير القديسة كاثرينا . فشد رحاله عام ١٨٩٤ آملاً استرجاع الإيمان بهذا العالم بعد أن أرهقته

حياة باريس . وفى ٢٢ شباط من العام نفسه وجد (بيرلوتى) نفسه جالسًا تحت أشجار النخيل فى واحة موسى التى تبعد مسيرة نصف ساعة من البحر الأحمر وقد غمرته مشاعر متضاربة سجلها فى الأسطر الآتية : «بدا جميع ما حولنا أشبه ما يكون بالفراغ المطلق ... الشفق فى الصحراء التى اجتاحتها الرياح الباردة ... والألوان الباهتة التى غطت رمال الصحراء ... وعتمة السماء التى بدت فى الأفق الدائرى وكأنها على وشك أن تهوى على الصحراء وتسحقها »

لقد بدت الصحراء أمام (لوتى) كئيبة مما دفعهُ إلى الانطواء والعزلة ... ورغم تلك الكآبة كان «لوتى» يشعر بنشوة فى بعض الأحيان . فقد جاء فى مشاهداته التى سجلها : «تبدو الصحراء مخيفة بعظمتها وسعتها كما يضفى الجو النقى الذى يسود الصحراء عمقًا مريبًا على أبعاد الصحراء والمناطق البعيدة من الصحراء . كما تبدو سلسلة الجبال المتداخلة وكأنها تشكل بداية العالم الذى لم تلمسه يد البشر بمحيط جاف وصلب لم تغير من طبيعته الخطرة المنتشرة فية » .

وفى شهر مارس تمكن الفريق الذى كان يصاحب (لوتى) من مشاهدة أشجار الصفصاف المحيطة بالدير وكان (لوتى) والبعثة المرافقه له قد مكثوا يومين فى تسلق الجليد ومواجهة العواصف التى اجتاحت المنطقة . وبدا الجبل المقدس (للوتى) ساكنًا وباردًا « فارغًا أشبه ما يكون بروح الإنسان الحديث » وأخيراً وصل (لوتى) والبعثة المرافقة له جدران الدير الشاهقه وهم يرتجفون من برد العواصف الثلجية التى اجتاحت المنطقة فى تلك الأيام .

وكتب «لوتى» أيضًا : « وفى هذه الأثناء فتحت بوابة حديدية صغيرة . وما إن دخلنا عبرالبوابة حتى واجهتنا بوابتان أخريان بالحجم نفسه قادتانا إلى نفق قادنا بدوره إلى قبو وما إن دخلنا القبو حتى أغلقت الأبواب خلفنا . بعد ذلك تسلقنا سلمًا متهدمًا نحت من الصخور قادنا إلى دار الضيافة الخاص بالحجاج والذى يقع فى أعلى القلعة » . وجاء فى كتابات (لوتى) : « ما إن دخلنا دار الضيافة حتى سارع الرهبان بملابسهم السود وشعورهم الطويلة لاستقبالنا مقدمين لنا قهوة من إبريق نحاسى سخن على الفحم . بدا كل شىء فى هذا الدير الذى شيدة الإمبراطور «جوستينيان» قبل أربعة عشر قرنًا وكأنه مهمل . لقد بدت غرف نومنا الجرداء البيضاء اللون أشبه شىء بالسكن التركى المتواضع فلم يكن فيها سوى أيقونة متواضعة مثبتة فوق الديوان وأمامها قنديل ينبعث منه ضياء خافت . » .

ولاحظ (لوتى) أسماء الحجاج الذين زاروا الدير منقوشة على جدرانه الغرفة . ولاحظ أيضًا أن أغلب الأسماء كانت مكتوبة باللغة الروسية والعربية واليونانية .

وفى الصباح تجول «لوتى» داخل الدير فاندهش مما رآه . فقد شاهد كنيسة بيزنطية وجامعاً وأكواخاً وأروقة وسلالم متشابكة . كما شاهد صالات وأقواساً . لقد لاحظ «لوتى» أن هذه الشواخص جميعها قد شيدت فى مكان صغير وعلى نحو مصعد ومحاطة بسور واق .

وجاء فى وصفه جبل سيناء : « إنه جبل شاهق يغطيه حجر الغرانيت . قممه عمودية وشاهقة بحيث يصاب المرء بالدوار لدى تطلعه أيها . والسماء فى تلك المنطقة صافية الزرقة وشفافة وأشعة الشمس هى الأخرى مدهشة . » .

وقد ألهمت رومانسية المنطقة الفنانين الأوربيين فوثقوها بتخطيطاتهم ولوحاتهم وخاصة الأديرة والأماكن المقدسة الأخرى . وكان من هؤلاء الفنانين الفنان الإنجليزى (فردريك كاثيرود) الذى اصطحب معه خلال زيارته الأولى إلى مصر عام ١٨٢٣ آله رسم تساعد على ظهور الصورة على الورقة عن طريق الانعكاس . ويبدو أن (كاثيرود) قد عاد مرة ثانية إلى مصر مع بعثة (روبرت هاى) التى اهتمت بالتنقيب فى المواقع القديمة وتسجيلها بالرسوم الدقيقة . كما رسم الفنانون الفرنسيون دير القديسة كاثرينا وذلك خلال استكشافهم جمال الشرق . وكان الفنان الكونت (ليون دى لابورد) من بين هؤلاء الفنانين . ومعظم اللوحات تصور الرحالة عند دخولهم الدير بواسطة الحبل والبكرة .

ومما يدعو للدهشة غياب هذا المشهد عن أعمال الفنان الاسكتلندى (ديفيد روبرت) الذى يعد من أعظم الفنانين المختصين بتخطيط الأبنية والذى بدت رحلته إلى الشرق وكأنها مغامرة تجارية رغم أنها كانت حلمهُ منذ الطفولة . ولأجل الحصول على تسهيلات خلال رحلته إلى مصر حصل على رسالة تعريف موجهة إلى «محمد على» وقد ساعدته تلك الرسالة فى الحصول على عديد من التسهيلات . وقد سجل (روبرت) العديد من التخطيطات السريعة عن مختلف المشاهد فى المنطقة التى اسوتطاع تحويلها إلى مطبوعات مصوره فوتوغرافية عند عودته إلى أوروبا .

واستطاع روبرت خلال السنوات (١٨٤٥ - ١٨٥٢) طبع عشرين كتاباً دارت حول مصر وسورية والأراضى المقدسة لاقت نجاحاً واسعاً . واشتملت أعماله على تخطيطات لجبل سيناء ودير القديسة كاثرينا ، فوجه بذلك أنظار الأوروبيين مرة أخرى إلى الشرق .

والسؤال الذى قد يبرز هنا هو ما الذى دفع بالرهبان لتشييد الدير فى هذه البقعة النائية ؟ الجواب عن ذلك التساؤل هو ظهور أنبياء اليهود فى تلك المنطقة ، «موسى» «وإيليا» ،

من ناحية ، والقتل الوحشى للرهبان الذى استدر عطف أكثر الإمبراطورات البيزنطيات تديناً وهى (ثيودورا) زوجة الإمبراطور «جوستنيان» .

يعتقد اليهود أن الله ظهر «لموسى» فى صحراء سيناء . وبحسب كتاب «الخروج»، إن أبناء إسرائيل وصلوا هذه المنطقة النائية بعد مرور ثلاثة أشهر على خروجهم من مصر . وبموجب الكتاب أيضًا إنهم ضربوا خيامهم بمواجهة الجبل . وفى صباح اليوم الثالث على مكوثهم فى تلك الخيام شاهدوا الرعد والبرق على قمة الجبل وظهور غيوم كثيفة يصاحبها صوت مدوٍ أشبه ما يكون بالصوت الذى يصدر عن النفخ فى بوق كبير . مما أثار الرعب والخوف فى نفوس المعسكرين فى الخيام . وبعد ذلك سلم الله النبى «موسى» الوصايا العشر على قمة جبل سيناء .

وهناك رواية أخرى حول الخروج تروى : إن «موسى» شاهد الله لأول مرة حينما كان يرعى ماشية والد زوجته (جثرو) إذ ظهرت له الملائكة على شكل لهيب نار منبعثة من وسط الغابة . ولقد استغرب «موسى» عند مشاهدته الغابة تحترق دون أن يأتى اللهيب على حرق الأشجار . وفى تلك اللحظة سمع صوت الرب يناديه فى الغابة قائلاً : « لا تقترب إلى هاهنا ، اخلع حذاءَك من رجليك . لأن الموقع الذى أنت واقف عليه أرض مقدّسةٌ . » . وتذكر الرواية إن «موسى» غطى وجهه لخشيته من التطلع إلى وجه الله .

وحسب روايات كتب الخروج إن «موسى» شاهد الله فعلاً عندما جلب من جبل سيناء الأختام الصخرية منقوشًا عليها الوصايا العشر ، فقد كان وجهه يشع نورًا بحيث خشى الناس الاقتراب منه . وتذكر الرواية أن «موسى» كان يغطى وجهه عند مخاطبته شعبه ويرفع الغطاء من على وجهه عند مخاطبته الرب . وبعد وفاة موسى « لم يظهر نبى فى إسرائيل مثل النبى «موسى» الذى شاهد الرب» كما ورد فى الكتاب المقدس .

ولسنوات عديدة دار الجدل بين العلماء حول البقعة المحددة لجميع الأحداث التى سجلت فى الكتاب المقدس فيما يخص تجوال أبناء إسرائيل فى الصحراء المقفرة . وليس بإمكان أحد التأكيد على أن تلك الرؤى التى ظهرت «لموسى» وقعت بالفعل فى المكان الذى يطلق عليه جبل سيناء .

أولاً : إن ما ورد فى التوراة يثير مشكلات ولا يمكن الاستناد إلى صحة ما جاء فيها . ذلك لأن التعاليم التى بشر بها «موسى» تناقلتْ شفاهه عبر قرون عديدة . فهناك أكثر من رواية فى العهد القديم تدور حول قصة الخروج . ومن المحال التأكد من المكان المحدد الذى

عبر منه أبناء إسرائيل البحر الأحمر. وذلك من خلال الروايات العديدة التى بين أيدينا ، ولا تخبرنا الروايات فى شكلها الحالى عن شخصية فرعون، الذى حاول منع أبناء إسرائيل من الخروج إلى أرض الميعاد .

ثانياً : هناك اختلاف حول اسم جبل سيناء إذ ورد فى بعض الروايات اسم (حوريب) وفى روايات أخرى اسم سيناء . فهل يعنى هذا أنه كان هناك جبلان يطلق على أحدهما اسم (حوريب) ويطلق اسم سيناء على الجبل الثانى ؟ أم هل نحن بصدد الافتراض بأن اسم (حوريب) أطلق على سلسلة الجبال واسم (سيناء) أطلق على قمة الجبل ؟ أم أن العكس هو الصحيح ؟

وهل هناك احتمال لأن تكون القبائل التى قطنت المنطقة قد اختلفت على تسمية الجبل ، فأطلقت عليه إحدى القبائل اسم (حوريب) ، وأطلقت عليه قبيلة أخرى اسم (سيناء) ، كما يرى بعض العلماء ؟

لم يستطع أحد الإجابة بشكل قاطع عن جميع هذه التساؤلات حتى هذه اللحظة .

ثالثاً : أشار العلماء إلى أن قمة الجبل كانت بركانية. وذلك كما ورد فى الفصلين التاسع عشر والعشرين من رواية الخروج. فقد ورد فى الآية (١٨) من الإصحاح التاسع عشر «وكان جبل سيناء كلُّهُ يُدخّن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار . وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جداً » وورد فى الآية (١٨) من الإصحاح العشرين « وكان جميع الشعب يرون الركود والبروق وصوت البوق والجبل يدخّن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد .» .

ونقض علماء آخرون هذا النقاش. وادعوا أن الوصف الذى ورد فى الإصحاحين (١٩) و (٢٠) من كتاب الخروج يشير إلى جبل بركانى . وبما أنهُ ليست هناك أية إشارة إلى وجود رماد فإن الظاهرة التى تم وصفها والتى تشير إلى ظهور الرب هى أشبه ما تكون بعاصفة عاتية منها بظاهرة بركانية، وبهذه الطريقة يمكن الدفاع عن الموقع التاريخى لظهور الرب للنبى «موسى» فى جبل سيناء، حتى وإن لم يكن هناك حمم بركانية فى تلك البقعة .

رابعاً : وهى المسألة التى أثارها العلماء هى مشكلة فنية وعسكرية، فالمعروف أن شبهُ جزيرة سيناء كانت فى ذلك الوقت تقع ضمن نفوذ الفراعنة ، وكان يتعين على أبناء إسرائيل الهروب إلى أماكن أخرى تخلصاً من بطش الفراعنة، والسؤال الذى قد يطرح نفسه هنا هو كيف تمكن «موسى» من الهرب من صحراء سيناء ؟

الجواب عن هذا السؤال : من المعروف أن الجيوش المصرية كانت تحرس الجزيرة خلال

الأشهر التى يجرى فيها التنقيب عن معادن . ويبدو أن «موسى» خرج بشعبه من مصر فى وقت لم تكن هناك أية نشاطات فى التنقيب عن المعادن .

ومن الضرورى أخذ تحذير العالم الألمانى (جيرارد فون راد)، الاختصاصى بالعهد القديم بأذهاننا بصرف النظر عن الاستنتاجات التى توصل إليها القارئ. وكان العالم (جيرارد فون راد) قد قال : « إن الروايات التى دارت حول حياة «موسى» لم تكن مدونة. وإنما تم تناقلها شفوياً طوال هذه القرون » .

وأشار (فون راد) إلى أنه لابد أن يحدث تغيير على النص عند تداوله وتناقله من جيل إلى آخر .

وقد استنتج (فون راد) : « تشير الصور التى قدمت لنا عن شخصية «موسى» إلى أن شخصيته ترتفع إلى مستوى عالٍ جداً . وأن «موسى» قد تجاوز بقابلياته مستوى البشر . وقد أعطتنا تلك الصور الملامح الصحيحة للنبى «موسى» . فقد صورته بهيئة رجل قادر على تحريكنا بإنسانيته » .

وأضاف : « وإننى - شخصياً - أشعر بدفء عند الاستماع إلى كلمات العالم الرومانسى الأخ الدينى (لويس جرو لينبرج) الذى نشر كتابه المشهور الموسوم (أطلس الكتاب المقدس) أول مرة عام ١٩٥٤ .

وكان (جرولينبرج) قد وصف العلماء الذين شككوا بجبل سيناء كونه المكان الذى ظهر عليه الرب أمام «موسى» على أنهم « علماء كراس » .

وجاء فى وصفه جبل سيناء : « إن زيارة واحدة لجبل سيناء كافية لإزالة جميع الشكوك من النفوس. إن منظر الجبل بتكويناته الطوبوجرافية كافية لإلهام الفرد. فالأكداس الهائلة من حجر الجرانيت، الجو، الضياء ، الألوان، والهدوء .. جميع هذه الصفات تجعل من الموقع المكان المناسب للقاء الرب مع الإنسان » .

وقد ثبتت رواية لقاء «موسى» بالرب على جبل سيناء خلال الفترة المسيحية . كما ثبت الاعتقاد السائد بأن (إيليا) قد التقى هو الآخر بالرب فى البقعة المقدسة نفسها .

وبموجب الكتاب الأول للملوك فإن الملكة جيزابيل قررت قتل النبىّ «إيليا» الذى فر منها والتجأ إلى صومعة فى سطح الجبل .

وقد جاءت كلمة الرب لتقول له : « ماذا تفعل هنا يا إيليا ؟ » . وعند وقوف النبى

«إيليا» على قمة الجبل قربه الرب . وفى تلك اللحظة هبت ريح عاتية شقت الجبل إلى نصفين وبعثرت الصخور . ولكن الرب لم يكن فى الريح . وبعد الريح وقع زلزال . ولكن الرب لم يكن فى الزلزال . وبعد الزلزال ارتفعت ألسنة النيران ، ولكن الرب لم يكن اللهيب . وبعد النيران جاء صوت ريح دقيقة . وتشير الرواية إلى أن الرب هو روح تتحدث مع الأنبياء بحميمية .

وقد شيد رهبان جبل سيناء فى وقت لاحق كنيسة فى الكهف الذى جاءت فيه الرؤيا إلى النبى «إيليا» . حسبما ورد فى الروايات .

كرس الدير لأول مرة لإحياء ذكرى تجسد المسيح ، كما ورد فى الأناجيل الثلاثة الأولى التى ذكرت أن المسيح صعد إلى قمة جبل ، حيث أحاطت بوجهه هالة وظهر بجانبه «إيليا» و«موسى» يتحدثان معه . وتذكر الأناجيل أن التجسد حدث لأجل رؤية الرب، كما فعل موسى و«إيليا» . وقد شكلت هذه الظواهر أهمية فى حياة الدير ، لذا كان من الطبيعى ظهور رغبة فى تشييد دير فى البقعة المقدسة التى وقعت فيها الظواهر . أما فى الوقت الحاضر فقد تحول الدير عند الأحداث الرئيسية التى شُيِّد من أجلها. وأعنى هنا تمجيد ذكرى الظواهر ، التى وقعت على جبل سيناء ، وكرس لتمجيد ذكرى القديسة «كاثرينا» . وقطن هذه البقعة المقدسة (جبل سيناء) قبل تشييد الدير عدد من الرهبان المسيحيين من الجنسين كليهما، والذين التجأوا إلى كهوفهم للتعبد .

وقد شيد دير القديسة «كاثرينا» فى هذه البقعة بسبب التقاليد الدينية للكنيسة المسيحية، التى انتشرت فى البرارى وفى أعقاب سنة ٣١٣ عندما اعترف الإمبراطور «قسطنطين» بالمسيحية . قدم هؤلاء الرهبان استرحاماً إلى الإمبراطورة «هيلانة» والدة الإمبراطور «قسطنطين» طالبين حمايتها لهم . وفى عام ٣٣٠، شيدت الإمبراطورة هيلانه كنيسة صغيرة على جبل سيناء كرستها لمريم العذراء . كما أمرت بتشييد برج لحماية موقع الغابة المحروقة . ومنذ ذلك الحين أصبح دير القديسة «كاثرينا» من أشهر المواقع المقدسة لدى المسيحية .

وخلال القرن اللاحق قامت سيدة أرستقراطية أسبانية تدعى (إيثيريا)(*) بزيارة حج إلى جبل سيناء . وجاءت مذكراتها لتكون أول سجل لرحلة من هذا النوع فقد جاء فى مذكراتها أنها لاحظت انتشار عديدٍ من الكهوف مكرسة للشخصيات المقدسة . كما لاحظت وجود كنيسة فى موقع الغابة المحروقة محاطة بحديقة جميلة فيها مياه وفيرة . كما شاهدت المكان الذى طلب منه الرب من «موسى» خلع نعليه .

(*) (إيثيريا) أو إيجيريا ، كانت زيارتها عام ٣٨١ - ٣٨٤ م - المترجم

وذكرت أن الغابة المحروقة ما زالت قائمة حتى هذا اليوم وتقذف بالنيران واللهيب .

وفى هذه المنطقة النائية تطورت الطقوس المسيحية للممارسات الروحية . هو سبب ثالث شجع على تشييد الدير . وكان القديس «أنطونيوس» أول راهب مسيحى يلتجىء إلى البرية المصرية. والقديس «انطونيوس» شاب غنى توفى والده حين كان هو فى العشرين من عمره. وقد باع الأرض التى فى حوزته والبالغة ثلثمائة أكر ، وطلب من شقيقته رعاية جماعة من العذارى الزاهدات ، وكرس نفسه للصلاة وحياة الزهد ، بعد أن وهب أمواله للفقراء . ولما كان بحاجة إلى العزلة فقد عاش لفترة خمسة عشر عامًا بين القبور ، قبل أن يلجأ إلى الجبال ليقضى فيها عشرين عامًا . إلا أنه لم يستطع هناك أن يظل فى عزلته حيث زاره عديد من الناس ، طالبين معونته لإرشادهم إلى طريقة للتغلب على مغريات الحياة .

وغالبًا ما كان القديس «أنطونيوس» يغادر الجبل ليحارب الهرطقة ، أو لمواساة أسرى الإمبراطور (ماكسيميليان) من المسيحيين . وحين شعر بقرب نهايته عاد إلى الجبل برفقة شخصين .

توفى القديس «أنطونيوس» عام ٣٥٦ عن عمر ناهز (١٠٥) عامًا . وفى عام ٣٥٧ سجل القديس (أثناسيوس) سيرة حياة القديس «أنطونيوس» . فقد رأى (أثناسيوس) فى القديس «أنطونيوس» الراهب المثالى. فكتب عنه يقول : «إنه الرجل الذى يستطيع أن يصنع المعجزات والتميز بين الأرواح الخيرة والشريرة »

ولقد اشتهر كتاب (أثناسيوس) عن سيرة حياة القديس «أنطونيوس» وانتشر بشكل واسع فى العالم المسيحى. وقد قرأ الكتاب كل من القديس (هيرونيمس) والقديس (أوجسطين). وقبل نهاية القرن الرابع قام بطريرك أنطاكية بترجمته إلى اللغة اللاتينية .

وقد ألهمت سيرة حياة القديس «أنطونيوس» عديدًا من الرهبان الزاهدين . وبدت سيرة حياتهم غريبة، بل غير مألوفة للآذان الحديثة. وأحد هؤلاء الرهبان كان يدعى (أونوفوريوس) الذى سجل سيرة حياته راهب مصرى يدعى (بافناتس). وعند لقائهما قال (أونوفوريوس) إلى (بافناتس) إنه عاش فى البرارى لمدة سبعين عامًا. فى بادئ الأمر عاش مع مجموعة من الرهبان ، ولكن سيرة حياة «إيليا» و«يوحنا المعمدان» شجعته على التوجه إلى الصحراء . وقد عاش هناك عيشة الرهبان الزاهدين فى ملابس رثة دون طعام أو شراب . حيث اقتات على حبات قليلة من التمر . ولقد تحمل حرارة الصحراء وبرودتها ، كما تحمل

الجوع والعطش . ومقابل تلك المعاناة حظى بسعادة روحية لا توصف ووصف (بافناتس) كيف دعاه (أونوفوريوس) إلى كوخه « وفجأة شحب وجههُ وطلب منى دفنه وأسلم الروح » . وقام (بافناتس) بلف جثمان (أونوفوريوس) بقطعة من ردائه ووضعه فى شق وسط الصخور ولا يزال الحجاج يزورون المكان الذى عاش فيه (أونوفوريوس) .

وليس هناك أدنى شك فى أن يكون قد مات عديد من الزهاد وحيدين فى تلك البقعة . فقد وصف راهب يدعى (ريثو) عاش فى القرن الرابع طريقة عثوره على جثة راهب فى إحدى كهوف الصحراء، وكيف تحولت إلى رماد بمجرد لمسها .

وقد عاش فى تلك المنطقة عديد من الرهبان الزاهدين. فقد وصف أحد الزوار الإيطاليين جبل سيناء فى القرن الرابع وكان يدعى (بوستمينيوس) وجاء فى وصفه أنه التقى بأحد الرهبان عاش فى الجبل لمدة خمسين عامًا « وكان عاريًا يغطى جسمه شعر كث ويتمتع بمنحة سماوية إذ لم نعرف شىء عن عريه »

وكانت تنبعث من هؤلاء الرهبان من الرجال والنساء ممن لم يكونوا يغتسلون رائحة قدسية قدستها المسيحية فى أوائل القرون الوسطى . كما سيلاحظ فى الرواية الجميلة للقديسة مريم المصرية .

كانت «مريم» ابنة شقيق الراهب (أبراهام) الذى رعاها بعد وفاة والديها ، ولكنها انحرفت عن الطريق وتحولت إلى عاهرة . وقد حاول كبير الرهبان دعوتها إلى طريق الصواب، وتوسل إليها طالبًا عودتها إلى حياة العبادة والزهد ، بعد أن تنكر بهيئة جندى ، ودخل وراءها على أنه زبون .

ويبدو أن هذا الراهب قد تمادى فى تنكره، إذ احتفظ بالقلنسوة على رأسه وتناول كأسًا من الشراب . وعندما دخلت عليه مريم ، وبدأت بمداعبته ، ووضعت يديها حول عنقة ، وأخذت تقبله ، انبعثت منه رائحة الزهد والتقشف . فتذكرت مريم حياة التقشف والزهد التى عاشتها فى السابق . وفى تلك اللحظة شعرت وكأن رمحًا قد أصاب روحها فأطلقت صرخة عالية وانخرطت فى النحيب .

كان أسلاف رهبان دير القديسة «كاثرينا» مثل هؤلاء الرهبان الروحانيين . وبمرور الزمن ازدادت كهوف العبادة المنتشرة حول الكنيسة فى جبل سيناء . وكان رهبان تلك الكهوف يلتقون فى الكنائس أيام الأحد للصلاة . وقد شاطر قسمًا منهم كهوفهم رهبان أصغر

منهم سنًا . وكان أحد هؤلاء الرهبان ويدعى (سيلفانوس) يقوم بصنع السلال ويملأها بالتمر ليبيعها على الناس . وكان إيراد تلك السلال يساعده على المعيشة مع صديقه الشاب (زكريا). أما (زكريا) فكان يفضل قضاء أوقاته فى مطالعة الكتب الدينية بدلاً من تناول الطعام . ولهذا السبب كان الراهب «سيلفانوس» ينسى دعوة الراهب الشاب زكريا لتناول وجبات الطعام معـــه .

وكان من بين هؤلاء الرهبان متعبد مسيحى آخر يدعى (كالاكشين) شد رحالة بصحبة زوجته التى كانت تدعى (إيبستيم) متجهًا نحو جبل سيناء، واستغرقت الرحلة عشرة أيام . وعـند وصـوله الجـبل عـاش مـع عشـرة رهـبان بعيدًا عن زوجته التى كانت تعيش مع أربع عذارى .

وقد قدس هؤلاء الرهبان رفاقهم المسيحيين . وكتب راهب مصرى زار الرهبان فى أواخر القرن الرابع، يصف حياة التقشف الصارمة التى كان يعيشها الرهبان : «كانت سيماؤهم أشبه بسيماء الملائكة، فقد بدوا شاحبين وروحانيين ، بسبب الحياة الصارمة التى كانوا يعيشونها » .

واشتهر عديد منهم بممارسته العجيبة . حيث يذكر أن أحد الرهبان ويدعى (أسطيفان) قد درب فهدًا على حراسة الخضروات التى زرعها من الحيوانات الغازية . ويقال إن راهبًا آخر موّه هيأته ليبدو على هيأته نخلة هربًا من الغزاة . وقد قضى العديد من الرهبان حياتهم على قمم الجبال . ولم يعش هؤلاء الرهبان حياة التقشف فحسب ، ولكنهم عاشوا يساعد بعضهم الآخر . وفى هذا الموضوع كتب (روفينوس) : « لقد شاهدت بينهم عديدًا من الآباء الدينيين الذين عاشوا حياة سماوية فى العالم . لقد شاهدت كاهنًا استطاع أن يطهر نفسه من جميع الشكوك بحيث لم يعد يتذكر، إذا كان الشر موجودًا على الأرض ». وعاش هؤلاء الرهبان مشتتين فى البرية متباعدين فى كهوفهم يربطهم الحب، وهم هادئون ورقيقون وكانوا يتنافسون فيما بينهم إذ يسعى كل منهم ليكون أكثر تواضعًا ورحمة وصبرًا ورقة من غيره .

وليس من المستغرب أن تشتهر أقوال هؤلاء الرهبان . وقد نسى عديد منها قبل أن تجمعها (هيلين دارل) فى كتاب أطلقت عليه اسم «آباء الصحراء» . وقد اقتبست (هيلين دارل)، ملاحظة المؤرخ الكنيسى الألمانى (أدولف فون هادناك) الذى قال : « إذا سمح لى باستخدام لغة قوية، فلن أزد فى القول على أنه ليس هناك من كتاب ذى تأثير بيّن على مصر وعرب آسيا وأوروبا مثل كتاب سيرة حياة القديس أنطونيوس » .

وفى العصور الوسطى قدس العالم المسيحى الأماكن التى قطنها القديس «أنطونيوس» . ولقد ألهمت تعاليم القديس «أنطونيوس» التى بشرت بالعزلة عديداً من الأتباع . وكان القديسون ينصحون الشباب فى الرهبان بالعزلة : « اذهب واعتصم فى كهفك وستتعلم الشىء الكثير » . وفى الوقت نفسه كان آباء الصحراء يدركون جيداً أن العزلة وحدها ليست كافية لتحقيق القداسة . وقد ذكرت رئيسة أحد الأديرة للراهبات وتدعى (مطرونة) : «من الأفضل للفرد العيش مع الجماهير والانغمار فى حياة التأمل الداخلى بمحض إرادته بدلاً من العزلة فى كهف والتطلع دائماً نحو الجماهير » . كما نصح آباء الصحراء الرهبان المتطلعين إلى تحقيق القداسة بالصيام والتأكيد فى الوقت نفسه على أن الصيام وحده ليس كافياً لجعل الراهب قديساً. وذهب الأب (هاييريكوس) أحد رؤساء الأديرة إلى حد القول : «إن من الأفضل للإنسان تناول اللحم والخمر على أن يأكل لحم أخيه حيًا» . وآمن قديسو الصحراء بأن محاربة رغبات الجسد يجب ألاّ تتوقف . وأصعب شىء محاربة النزعات الشيطانية . وفى هذا الشأن يقول رئيس الدير «أنطونيوس» : « إن الذى يعيش فى عزلة يهرب من ثلاثة شرور : سماع الشر، والنطق بالشر، ومشاهدة الشر . ولكن علينا الاستمرار فى المجاهدة لجعل قلوبنا صافية » .

ويبدو أن هدف جميع رجال الدين واحد ، وهو التواضع ونكران الذات .

وجاء فى إحدى الروايات التى تصف تواضع رجال الدين : إن الشيطان ظهر لأحد الإخوان المسيحيين الدينيين متنكراً بهيئة ملاك النور وخاطب الأخ قائلاً : « انظر إلى إننى جبرائيل وإنى أخاطبك فأجابه الأخ الزاهد. انظر إلّى ، إننى غير جدير بالمكانة التى يبعث فيها إلىّ بملاك النور ... فتش عن شخص آخر » . وما أن نطق الأخ الزاهد بهذه الكلمات حتى اختفى الشيطان .

وقد بنيت التقاليد الروحية لدير القديسة «كاثرينا» على حكمة هؤلاء الآباء الروحانيين الصحراويين . ولم يحظ هؤلاء الآباء بقداسة جمع الأشخاص . فغالبًا ما كانوا عرضة لهجمات الغزاة . عندما شيد الرهبان ديرهم على جبل سيناء لم تكن الإمبراطورة قادرة آنذاك على توفير الحماية لهم فالتجأ معظمهم إلى الكهوف المنتشرة فى سطح الجبل وقضوا فيها معظم الوقت فى العبادة والتأمل .

وعند تعرض الرهبان لهجمات الغزاة ذكر أحدهم وهو مصرى كان يدعى (آمونيوس) وكان مختبئًا فى أحد أبراج الدير قائلاً : «شاهدت الغزاة يهاجمون الرهبان، فهرعت إلى

سطح الجبل فوجدت ثماني وثلاثين جثة للرهبان . ووردت بعد ذلك أنباء تشير إلى مقتل أربعين راهبًا آخر من كلا الجنسين مع الأطفال وكانت جثثهم ملقاة بالقرب من (رايثو) » .

واستمرت تلك الهجمات ، كما أشار القديس (نيلوس) ، فى أوائل القرن الخامس . كان (نيلوس) موظفًا كبيرًا لدى إمبراطور القسطنطينة . وفى يوم ما قرر زيارة الجبل المقدس مع أطفاله . وعند وصوله إلى الجبل قرر البقاء فى الدير والعيش مع بقية الزهاد . وقد شاهد القديس (نيلوس) الهجمات التى كان يقوم بها الغزاة ضد الزهاد ، فيقوم هو بدفنهم . ويعود بقاء دير القديسة «كاترينا» إلى عادة الناس من مختلف المعتقدات باضطهاد بعضهم الاخر لدرجة القتل .

وفى القرن التاسع كتب بطريرك الإسكندرية ويدعى «يوثيكيوس» عن هيكل الدير . ولا يزال الوصف الذى كتبه محفوظًا : فى مكتبة الدير .

وليس هناك أدنى شك فى أن الوصف الذى سجله «يوثيكيوس» لايخلو من قيمة تاريخية على الرغم من أنه كتب بعد مرور ثلاثمائة سنة على الأحداث التى تمت الإشارة إليها آنفًا . ويخبرنا (يوثيكيوس) فى وصفة كيف أن رهبان جبل سيناء توجهوا إلى الإمبراطور «جوستينيان» طالبين منه توفير الحماية لهم بعد أن أنهكهم اضطهاد الغزاة ، وتضرعوا إلى الإمبراطور لتشييد دير لهم يوفر لهم الأمان .

ووافق الإمبراطور (جوستينيان) على طلبهم فأمر بتشيد دير لهم، وأخبرهم بأنه سيكون محصنًا بحيث لا يمكن اختراقه . وكان الإمبراطور «جوستينيان» قد تزوج من امرأة رائعة فى الجمال والأخلاق .

وحسبما ورد فى كتاب (أسرار التاريخ) ، الذى ألفه مؤرخ البلاط (بروكوبيوس) أن الإمبراطورة «ثيودورا» كانت فى بداية حياتهاممثلة وراقصة مشهورة فى القسطنطينية .

وحسب رواية المؤرخ (بروكوبيوس) أن الإمبراطورة (ثيودرا) ولدت عام ٥٠٠ ميلادية فى قبرص أو سورية ثم نزحت مع والديها إلى بيزنطية . وكان والدها يعمل حارس الدببة فى المسرح الصيفى . وبعد وفاته ترك وراءة أرملة وابنتين ، صادف أن تكون الإبنة الصغرى لذلك الحارس هى الإمبراطورة (ثيودورا) . وحسب الرواية أن (ثيودورا) صاحبت شقيقتها الكبرى إلى المسرح، وعندما بلغت من العمر عشرين عامًا صعدت المسرح، وكانت - حسبما - يذكر المؤرخ (بروكوبيوس) صغيرة وجميلة وذات عينين سوداوين جميلتين وحاجبين كثين . أما رقصها فكان يتصف بالابتذال والرخص . وقد جاء فى وصف المؤرخ (جيبن) للراقصة والممثلة (ثيودورا) : «إن جمال ثيودوره كان موضوع مدح ومصدر بهجة كبيرة للجمهور أكثر من

المهارة التى أبدتها كممثلة . لقد اتسمت بتقاطيع وجه دقيقة . أما لون بشرتها فقد ساده الشحوب . واتصفت عيناها بجاذبية لا توصف . وبدت الراقصة «ثيودورا» فى حركاتها الرشيقة صغيرة وأنيقة ، وفى الوقت الذى ادعى فيه بعض العشاق بأن الرسم والشعر أخفقا فى تصوير جمالها ورشاقة إيقاعاتها ، أكد آخرون أن رقصها اتصف بالابتذال عند محاولاتها إثارة شهوات الجمهور، كما يُذكر أن الراقصة (ثيودورا) انحدرت بمستواها إلى درجات واطئة بحيث أصبح جمهورها يشمل جماعة هجينة تضم مواطنين وغرباء من مختلف الطبقات والمهنى. ويذكر أن العشيق المحظوظ الذى كانت تقطع له (ثيودورا) وعداً بقضاء ليلة فى المتعة معه غالباً ما كان يُطرد فى الفراش من قبل عشيق آخر أكثر غنى أو نفوذاً. وكان الرجال يتحاشون التحدث إليها عندما تسير فى الطرقات خشية الفضيحة.» .

ويذكر أن (ثيودورا) تركت المسرح لتلتحق بعشيقها (بينتا بولس) الذى أصبح حاكماً فى أفريقيا، وقد تخلى عنها عندما ضجر منها، وشرعت (ثيودورا) بالتجول فى الطرقات دون نقود فساعدها رجل متدين . وكانت قد بلغت من العمر أربعين عاماً . وبدت أكثر حشمة ووقاراً من السابق . وبوقارها تمكنت من أسر قلب رجل أصبح إمبراطوراً فيما بعد .

ويذكر (بروكوبيوس) أن (ثيودورا) تمكنت من إيقاع الرجل فى شباكها بالحب والسحر. وقد عارضت عمة (جوستنيان) زواجه من الممثلة «ثيودورا» وكانت عمتهُ فى ذلك الوقت إمبراطورة. وعندما توفيت عام ٥٢٣ بادر عم (جوستنيان) الذى كان إمبراطوراً إلى منح (ثيودورا) أحد ألقاب النبلاء، وألغى القانون الذى يحظر زواج عضو الشيوخ من ممثلة . وكان (جوستنيان) فى ذلك الوقت عضواً فى مجلس الشيوخ . وبعد وفاة عمه الإمبراطور عام ٥٢٧ أصبح (جوستنيان) إمبراطوراً . وتوجت (ثيودورا) فى عيد الفصح فى كنيسة القديسة صوفيا كامبراطورة .

وظلت الإمبراطورة «ثيودورا» ترعى الفنون وتبسط حمايتها على الكنيسة معارضة بذلك رغبات زوجها . وربما يعود السبب فى ذلك إلى الرحمة والمساعدة اللتين أظهرهما لها رجال الدين حينما كانت فقيرة . فعلى سبيل المثال عندما نفى بطريرك القسطنطينية (إنثيميوس) ، اضطر إلى اللجوء إلى الإمبراطورة (ثيودورا) فوفرت له الحماية فى جناحها الخاص . واعتقد فى حينها أنهُ مات ولكن أمرهُ انكشف بعد مرور اثنى عشر عاماً.» وذلك عندما توفيت الإمبراطورة . كما كانت الإمبراطورة (ثيودورا) امرأة شجاعة ففى يناير من عام ٥٣٢ قالت لزوجها الإمبراطور (جوستينيان) . الذى كان على وشك الفرار بعد أن هاجم عصاة قصره الإمبراطورى :

« اهرب إذا شئت أيها الإمبراطور . إنك غنى وسفنك مستعدة، والبحر هادئ. ولكنى سأبقى هنا لأنى أومن بالمثل القائل . إن اللون البنفسجى هو أفضل الأغطية للكفن » . واسترجع الإمبراطور قواه وتمكن من القضاء على العصاة .

حكمت (ثيودورا) لفترة إحدى وعشرين سنة ، ورغم عطفها على رجال الدين كانت قاسية مع أعدائها مثل البابا (سيلفريوس) الذى خلعته من منصبه بالقوة . وكما ذكرنا فإنها كانت مخلصة لرجال الدين الذين عطفوا عليها فى بداية حياتها . فقد استقبلت عديداً من الرهبان المصريين والسوريين فى قصرها.

توفيت الإمبراطورة (ثيودورا) فى ٢٩ يونيو من عام ٥٤٨ وهى تعانى من مرض السرطان . ويمكن مشاهدة صورها منقوشة بالفسيسفاء فى كنيسة القديسة فيتالى فى راڤينا وهى مرتدية رداء طويلاً بنفسجى اللون بحواشٍ مطرزة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة ويزين شعرها اللؤلؤ . وأفضل الأماكن بالنسبة لها كان دير القديسة «كاثرينا» فى جبل سيناء والكنائس .

ويذكر المؤرخ (يوتيكيوس) إن الإمبراطور «جوستينيان» أراد بناء الدير على قمة جبل سيناء ولكن لصعوبة إيصال المياه إلى قمة الجبل ، اختيرت الغابة المحروقة كموقع لتشييد الدير . وبسبب ذلك التغير قرر الإمبراطور إعدام المعمارى الذى أشرف على تشييد الدير . وتبدو هذه الرواية غير موثقة ؛ إذ عُثر على كتابات منقوشة على الجدران فيها مديح للمهندس المعمارى وزوجته وعائلته حيث جاء فى النقوش : «أيها الرب الذى ظهر فى هذه البقعة المقدسة، بارك وارحم خادمك اسطيفان من (إيلا) مهندس هذا الدير وكذلك زوجته (نونا) وليحل الأمان قلوب أطفالهما جورج وسرجيوس وثيودورا »

وقد جاءت إشارة إلى عزم الإمبراطور على تشييد الدير على قمة الجبل فى الوصف الذى سجلة المؤرخ (بردكوبيوس) فقد جاء فيه :

بما أنه لم يكن لهؤلاء الرهبان أية رغبات حيث تساموا برغباتهم على العواطف الإنسانية ، وبما أنهم لم يمتلكوا شيئاً ولم يهتموا بأنفسهم ولم يسعوا وراء الملذات فقد شيد الإمبراطور «جوستينيان» لهم كنيسة كرسها لمريم العذراء . كان الرهبان يقضون أوقاتهم

فيها فى الصلاة والتعبد وخدمة الرب . وقد شيّد الإمبراطور هذه الكنيسة فى سطح الجبل إذ لم يكن بالإمكان الوصول إلى قمة الجبل خلال الليل بسبب الرعد المستمر وتجسدات الهية مرعبة أخرى » .

ومن كتابات (بيروكوبيوس) يظهر أنه لم يزر جبل سيناء فقد كتب مرة يقول : « اعتبر زيارة الجبل مهمة متعبة أشبه بعبور محيط واسع فى وعاء مجنون » . ويبدو أن (بيروكوبيوس) لم يدرك أن جدران القلعة التى شيدها الإمبراطور (جوستينيان) تحيط بالكنيسة التى شيدها اسطيفان فى الغابة المحروقة. ورغم ذلك فلقد كان من الواضح أن مثل تلك القلعة قد شيدت بالفعل . فقد كتب (بيروكوبيوس) يقول : « شيّد إمبراطورنا قلعة منيعة على سطح الجبل وحصّنها من الداخل بالجنود والحراس لمنع العرب المسلمين من غزو فلسطين سراً من تلك النقطة » .

وليس هناك أدنى شك فى أنه كان لدى الإمبراطور «**جوستينيان**» أسباب أخرى دعته لتشييد القلعة على جبل سيناء بجانب هدفه المعلن عنه، إلا وهو حماية الرهبان . وقد ساعدتنا تقواه وتقوى زوجته الإمبراطورة (ثيودورا) على البت فى التاريخ الذى شيدت فيه الكنيسة على الجبل . فقد جاء فى الكتابات المنقوشة على حواشى السقف : « فى ذكرى إمبراطورنا التقى جوستينيان وإمبراطورتنا . لترقد روحها بسلام » وليس هناك أدنى شك بأن الكنيسة قد شيدت فى الفترة الواقعة بين وفاة الإمبراطورة (ثيودورا) عام ٥٤٨ ووفاة الإمبراطور «**جوستينيان**» الذى توفى بعدها بسبعة عشر عاماً » .

أصبح الدير الآن مقراً للغذاء الروحى لآباء الصحراء. وهو يقع فى أكثر الأماكن قدسية فى العالم بالقرب من بيت لحم والقدس . وقد حظى الدير بحماية الإمبراطورية . وهو يعود إلى جميع الطوائف المسيحية ، فهو غير مقتصر على الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فحسب، وتقدم إلى الدير كل عام هدايا ثمينة من جميع الطوائف المسيحية فى العالم .

ففى القرن السابع منح البابا رئيس الدير (يوحنا كليماكوس) أغطية صوفية لخمسة عشر سريراً ومبلغاً من المال لشراء ريش للوسائد .

وفى القرنيين الثالث والرابع عشر منح الباباوات حمايتهم/ الدير، كما منحوا الدير امتيازات أكدوها بموجب بيان بابوى . بحيث ترقى رئيس الدير إلى درجة بطريرك وتدريجًا من سلطته لتشمل الأبرشيات المجاورة فى (فاران) و (ريثو) ، ويدأ الرهبان بانتخاب رئيس أساقفة ، كما هو عليه الوضع الآن مرسوم من قبل بطريرك القدس . وبذلك أصبح الزعيم الروحى لأصغر الكنائس المستقلة فى العالم .

وقد عاد الاستقلال الذى تتمتع به كنيسة سيناء بعدة فوائد . إحداها فى ابتعادها عن الانقسام الحاد الذى وقع عام ١٠٥٤ حين انشقت الكنيسة الارثذوكسية فى الشرق عن الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب واستمر الرهبان اللاتين فى العيش فى الدير (وقد كان أغلبهم من فرنسا) مشيدين بكنيستهم ويستخدمون كتب الدين الخاصة لهم . وقد زار الدير خلال القرون الثلاثة : الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر العديد من الحجاج الإنجليز والألمان والهولنديين والفرنسين ونقشوا شعارهم على جدران الدير . وشيّد الصليبيون أبوابًا خشبية كبيرة لكنيسة (جوستينيان) . وقد اختلفت الأسباب التى دفعت هؤلاء الحجاج لزيارة جبل سيناء . فبعضهم جذبته الأساطير العجيبة التى دارت حول المكان ، ففى القرن السابع قدم الحجاج إلى هذا المكان لمشاهدة الرهبان مثل الراهب (أورونتيوس) الذى كان يوقد البخور بأصابعة وقد فقد أصبعًا من جراء قيامة بذلك العمل . وزار آخرون الجبل بحثًا عن السلام والمغفرة، ويذكر أنه فى القرن التاسع زار الجبل شقيقان مقيدان إلى بعضهما . ويذكر أن الشقيقان وهما من مقاطعة بريطانيا الفرنسية قاما بقتل عمهما مما دعا الملك لوثر إلى إصدار أمر باصطحابهما فى رحلة إلى روما والقدس وسيناء وهما مقيدان إلى بعضهما . وقد قضى الشقيقان ثلاث سنوات فى جبل سيناء . وعند عودتهما إلى مسقط رأسيهما توفى أحدهما فى (رين) .

وما تزال الهدايا والأموال تتدفق على الدير ويذكر أن رئيس أساقفة كريت منح رهبان دير القديسة «كاثرينا» عام ١٢٠٣ أملاكًا وأراضى فى كريت تعود على الدير بمبلغ أربعمائة دوكا فى السنة . وعندما سيطر أهالى البندقية الفينيقيون على كريت عام ١٢٠٤ ثبت قاضى البندقية (بيترو ريانى) الرهبان فى أملاكهم كما فعل بقية القضاة حتى فقدت البندقية السيطرة على الجزيرة عام ١٦٤٥ . وفى القرن الثالث عشر أكد الباباوات للرهبان عائدات الأراضى التى احتلها الصليبيون لهم . وبذلك امتدت ممتلكات دير القديسة «كاثرينا» لتشمل مزارع كروم ومستشفيات وغابات وكنائس وعقارات ومخابز وحقوقًا تجارية فى العديد من الأماكن

مثل ريثو والاسكندرية والقدس ولوديسيا وانطاكية ودمشق والقسطنطينية وكريت وفاران وقبرص .

وعكف الدير فى الوقت نفسه على اقتناء الأيقونات النادرة . وقد يندهش المرء للوهلة الأولى عند مشاهدته هذه الثروة الفنية النادرة حيث يضم دير القديسة كاثرينا أكثر من ألفى أيقونة وقد أخذ المسيحيون الأوائل الوصية الثانية من الوصايا التى سلمت إلى موسى على جبل سيناء مأخذ الجدية . وقد جاء فى الوصية : « سوف تجعل من نفسك صورة محفورة أو شبيهًا بشىء فى السماء أو الأرض أو الماء . سوف لا تنحنى لها أو تخدمها » وهذا يعنى أن الأيقونات تتعارض مع ما ورد فى الوصية بما أنها صور لمخلوقات أرضية كرست للعبادة .

وقد قال الرسول بولس عندما كان يعظ فى أثينا : بما أننا أبناء الله فليس أمامنا أى عذر للتفكير بأن الرب يشبه تمثالاً منحوتًا من الحجر أو الذهب أو الفضة من قبل الإنسان » وقد تسبب الرسول بولس وشخصان مؤيدان له فى اندلاع شغب فى أفسس وذلك عندما هددوا صائغ فضة يدعى (ديميترس) بتحطيم أصنامه . وكما كان الصائغ (ديميترس) يوظف العديد من المهرة لصنع الأضرحة وتماثيل للآلهة (دايانا) فقد جاء فى نقاش الرسول بولس «إن مثل هذه الآلهة التى صنعتها أيدى البشر ليست بالآلهة على الإطلاق وإيمانا منهم بالتعاليم اليهودية هذه كان المسيحيون الأوائل حذرين بتجنب الوقوع فى أخطاء منافسيهم الوثنيين الذين كانوا يصنعون صور الأب والسيد المسيح يسوع .

هذا يعنى أن الأيقونات تعارض ما ورد فى الوصية حيث تشتمل على صور لمخلوقات أرضية ويبدو أنه كلما ابتعدت المسيحية عن أصلها اليهودى وأخذت العديد من أوجه التراث الدينى اليونانى ، أصبح من السهل نسيان النقاء السابق .

وفى القرن الرابع الميلادى ذكر الكتاب المسيحيون أن صور مريم العذراء وابنها يسوع ورسله بدأت تظهر فى الكنائس .

وعارض العديد من المسيحين بشدة هذا التطور الجديد .

ويذكر أنه فى القرن الرابع الميلادى قام المطران (بيفانيوس) من سالاميس بتمزيق صور مرسومة على إحدى الستائر . وتطور الأمر فيما بعد ليدفع مسيحيى الشرق إلى تحطيم الأيقونات ، بل قتل بعضهم البعض الآخر وذلك خلال الجدل الذى دار حولها .

وفى عام ٧٢٦ ميلادية حرم الإمبراطور «لاون الثالث» عبادة الصور . ولقد واجه تحريمه هذا معارضة . فقد منع جمهور من الرعاع القتلة ضباط الإمبراطور عند محاولتهم تحطيم أيقونة مثبتة فى مدخل القصر الإمبراطورى وبعد مرور أربع سنوات أصدر الإمبراطور «لاون» مرسومًا يقضى بتحطيم جميع الصور .

وهكذا بدأت الخلافات بين المسيحيين حول موضوع تثبيت الأيقونات على جدران الكنائس وقد دامت تلك الخلافات مائة وعشرين عامًا . وعارض الرهبان مجادلة الإمبراطور العلمانى فى إصدار مرسوم يحدد نشاطات الكنيسة . وقد عارض البابا «جريجوريوس» الثانى والبابا «جريجوريوس» الثالث محاولة الإمبراطور، ولكن الإمبراطور «لاون» كان، كما يبدو، عارض وجهة نظره حول الأيقونات. وقد نفذ الإمبراطور خطته فأمر بتدمير العديد من صور السيد المسيح يسوع وأمه مريم العذراء ورسله ، والتى كانت منتشرة فى العالم المسيحى.

وفى عام ٧٥٤ ميلادية دعا خلف «لاون» الإمبراطور (كوستانثين الخامس كوبرونيموس) المجمع الكنيسى للاجتماع فى حيرة Hiera وقد حضر الاجتماع ٣٣٨ أبًا وافقوا على تحريم الأيقونات . وتم إعدام أحد الرهبان ويدعى «اسطيفان» الصغير عندما حاول تشجيع الحركة المعارضة للقرار الذى اتخذه المجمع الكنيسى . وقد أهان الإمبراطور «كوستانثين» الرهبان وأمر بإعدام بطريرك القسطنطينية الذى كان متهاونًا فى تشجيع تحريم الأيقونات وقد رد المدافعون عن إكرام الأيقونات على تلك الهجمات . وجاء فى دفاعهم أن الأيقونات مقبولة لاهوتيًا . وفى عام ٤٥١ ميلادية أعلن المجمع الأعلى لمنطقة خلقيدونية إن المسيح كان يتمتع بطبيعتين إحداها إلهية والثانية إنسانية . وادعى المدافعون عن إكرام الأيقونات بأنها (يقصد بها الأيقونات) تجسد الطبيعة الإنسانية للمسيح . وحول هذا الموضوع تساءل «يوحنا الدمشقى» الذى عاش فى حماية فلسطين المسلمة فى القرن السابع الميلادى قائلاً : إذا ظهر ابن الإنسان على هيئة إنسان فلماذا لايمكن رسم صورته البشرية على الخشب ؟ وانتشرت مثل هذه النقاشات فى مجمع نيقية الثانى وذلك عام ٧٨٧ ميلادية . ولم ينتهِ النقاش حول موضوع تحريم الأيقونات إلا بعد مرور خمسين عامًا عندما أكدت الإمبراطورة «ثيودورا» (أرملة الإمبراطور نيوفوليس) القرار .

وخلال فترة الخلافات هذه كان تم تدمير آلاف الأيقونات . وإنه لمن المدهش حقًا أن تنجو أيقونات دير القديسة كاثرينا من تلك الحملة المحمومة التى راح ضحيتها آلاف الأيقونات النفيسة . وقد ساعد خضوع مصر للإسلام عام ٦٤٢ بموافقة بطريرك القسطنطينية ، على إبقاء الدير خارج نطاق موجه تحريم الأيقونات التى اجتاحت العالم المسيحى . وازدهرت فى تلك المنطقة صناعة الأيقونات . وليس هناك أدنى شك بأن المسلمين الأشداء أنقذوا الأيقونات المحفوظة حاليًا فى دير القديسة «كاثرينا» من الحملة المحمومة التى اجتاحت العالم المسيحى .

وفى القرن التاسع أصبح الدير أكثر قدسية من السابق ، خاصة عندما اكتشف الرهبان على سطح الجبل جثمان القديسة **«كاترينا»** . التى انتقلت من الإسكندرية إلى جبل سيناء بمعجزة .

ويذكر إن «كاثرينا» الابنة الغنية للملك قد هاجمت الإمبراطور (مكسيميانس) لوثنيته . وكان الإمبراطور قد كلف خمسين رجلاً متعلماً فى محاولة رد **«كاثرينا»** عن المسيحية ولسوء حظ الإمبراطور تمكنت كاثرينا من اقناع الرجال المتعلمين الإيمان بالدين المسيحى . وتذكر بعض الروايات أن الأمبراطور (مكسيميانس) أراد أن يزنى **«بكاثرينا»** ولكنها ردعته . وقد آثاره روعها وإيمانها بالتعاليم المسيحية ، فقرر إعدامها . إلا أن العجلات التى قطعت رأس **كاثرينا** تحطمت من تلقائها . كما تذكر بعض الروايات إن حليبًا تدفق من شرايينها بدلاً من الدم عندما فصل رأسها عن جسدها .

والشىء الأكيد أن الرهبان عثروا على جثمانها فى جبل سيناء وما يزال يحتفظ به فى الدير . ويحتوى على عظام تنضج زيتًا . ويقوم الرهبان بجمع قطرات الزيت لبيعة على الحجاج بأسعار باهضة الثمن ولا تزال عظام القديسة **«كاثرينا»** تنضج زيتًا حتى يومنا هذا ، وعندما ساعدت الهدنة التى تم التوصل إليها بين السلطان والمسيحيين القاضى «ثيتمار» Thietmar على زيارة الدير وقد شاهد جثمان القديسة «كاثرينا» كما شاهد الزيت ينضح من عظامها . وعاد بقطرات من ذلك الزيت المقدس الباهض الثمن .

وتذكر إحدى الروايات إن **«هنرى الثانى»** من مدينة بدونزويك الألمانية زار الدير عام ١٣٣٠ وعاد بقطرات زيت وقطعة صغيرة من عظام القديسة كاثرينا وقد عادت شهرة القديسة كاثرينا بدعاية وثروة طائلة على الدير . وكان للدير روابط وثيقة بفرنسا . ففى عام ١٢٢٩ شيّد الملك لويس كنيسة فى باريس كرسها للقديسة **«كاثرينا»**. كما أن دوق نورماندى كان قد تبرع بمبالغ طائلة إلى الدير. وقد تبرع الرهبان بإحدى أصابع القديسة **«كاثرينا»** إلى مدينة روان أخذوا بعدها يزورون المدينة كل عام لجمع التبرعات من الذهب والفضة دعمًا للدير.

وأعطى فرسان أوروبا الضمان والحماية لحجاج دير القديسة **«كاثرينا»**. كما أن الفرسان الصليبيين أنفسهم كانوا يقطنون بعض الوقت فى الدير حيث يتناولون وجبات الطعام وينقشون شعارهم على حاشيات الأبواب. وبنهاية الصليبيين عاد شىء من الاستقرار إلى منطقة الشرق الأوسط وتحسنت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين . وتمكن العديد من رجال البلاط الغربى من زيارة سيناء بسهولة .

وفى القرن الرابع عشر زار جبل سيناء «هنرى الثانى» من مدينة بروتوديوك الألمانية، وفيليب من ارتواز Artois ، والدوق البرت من النمسا ، والرهبان الأوغسطينيون من فيرونا وفلور ينتاين ، ويطلق عليهم اسم «فريكو بالدى» وقد أخبرنا هؤلاء الرهبان بأنهم شاهدوا مئتى راهب يعيشون فى دير القديسة كاثرينا . كما أخبرونا أن الرحلة كانت شاقة . وقد مات فى الطريق الصحراوى المطران (هوجو) من فيرودون . كما قطع الصحراء على ظهر حصان زائر ألمانى يدعى «فون بالدينسال» ، اضطُر لاستئجار جمال من سكان المنطقة يحمل الطعام والذرة . ولاحظ (فون بالدينسال) خلو جبل سيناء من القمل والذباب . كما لاحظ العديد من القناديل التى كانت متدلية من سقف كنيسة (جوستينيان) .

أما الرهبان فقد اندهشوا بدورهم عند رؤية حصان بالقرب من دير القديسة كاثرينا . وقضى (فون بالدينسال) بعض الوقت أمام رأس وعظام القديسة كاثرينا التى كانت مسجاة فى قبر من المرمر مغطى بقماش أحمر مطرز بالخيوط الذهبية . وعند عودته إلى أوروبا نشر مذكراته عن الرحلة . وقد لاقت مذكراته رواجًا واسعًا فى السوق وقام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية راهب من كنيسة القديس «برتن» ، يدعى (جيهان لى لونغ دبريز) .

كما لاقى الكتاب الذى نشره الإيطالى (نيكولاس دى مارتونى) عن مشاهداته فى الرحلة إلى جبل سيناء هو الآخر رواجًا فى السوق . وجاء فى كتاب (نيكولاس) أنه واجه متاعب عديدة فى الصحراء وذلك خلال رحلته إلى جبل سيناء . وعند وصوله إلى الدير قام رئيس الدير بنفسه بغسل قدمى «نيكولاس» وذلك قبل تناول وجبة العشاء ، بينما كان بقية الرهبان ينشدون التراتيل الدينية باللغة اليونانية . ويبدو أن مثل هذه الأمور كانت من ضمن الطقوس التى يقوم بها رهبان دير القديسة كاثرينا .

ولقد كانت الرحلة إلى جبل سيناء مكلفة ومتعبة فى الوقت نفسه .

وقد قام الأشخاص الميسورون من كلا الجنس الذين زاروا الدير بدعمه ماديًا . ويُذكر أنه فى القرن الرابع عشر ضم الدير إضافة إلى الخدم من «الدجبلجة»، أكثر من أربعمائة راهبًا . وكان من بين خدم الدير عرب وجورجيون . كلفوا بخدمة مائة مصلى صغيرة. بعضها مشيد داخل جدران الدير والأخرى منتشرة فى ضواحى الدير . وبدا رهبان الدير قادرين على طلب المبالغ التى يحتاجونها من الغرب كما أنهم كانوا يجمعون الموارد التى تدر عليهم من ممتلكاتهم المنتشرة فى الخارج .

وعندما احتل الأتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣ وبسطوا نفوذهم على سيناء طلبوا من

رهبان الدير دفع جزية سنوية مقدارها ٧٠٠ دوكا واتجه الرهبان إلى أوربا طلبًا للمساعدة . ووعد ملك فرنسا لويس الحادى عشر رهبان الدير بتزويدهم بمنحة مقدارها ٢٠٠٠ دوكا سنويًا. كما وعدت ملكة أسبانيا إيزابيل رهبان الدير بمنحة سنوية مقدارها خمسمائة دوكا .

والحياة فى الدير مكرسة للصلاة والتعبد ومطالعة الكتب الدينية ، كالكتاب المقدس وسيرة حياة القديسين والتراتيل والمزامير وتحتوى مكتبة الدير على كتب قديمة ونفيسة يعود تاريخ قسم منها إلى فترة سبقت تاريخ تشييد الدير . وقد تجمعت هذه الكتب من الهدايا التى كان رهبان الدير يتسلمونها والمبالغ التى يحصلون عليها من التبرعات والموارد والتى كانوا يخصصون قسمًا منها لشراء الكتب . وتكشف بعض كتب الدير التأثير الإسلامى على العالم كما تحتوى كتب أخرى على مواعظ الكهنة الذين عاشوا فى الدير . وقد زوقت الكتب بأسلوب فنانى القسطنطينية . ويبدو أن حياة الزهد التى عاشها آباء الصحراء قد انطبعت فى أذهان الرهبان مثلما انطبعت المعاناة التى وردت فى العهد القديم . وقد تم تصوير تلك المعاناة فى مخطوطات قديمة محفوظة فى دير القديسة كاثرينا . وتصور المعاناة شخصًا جالسًا فى حفرة يحك الدمامل المنتشرة فى جسده بصخرة وتمثل هذه الصورة الصبر على الحياة الصعبة والمعاناة . كما تحتوى مكتبة الدير على كتب كبار الرهبان مثل الراهب (يوحنا كليماكوس) كما تحتوى على أعمال وثنية . مثل كتب هومروس وأرسطو ورحلات المنقبين والملاحين . ورغم أن رقائق البردى كانت معروفة منذ الأزمنة القديمة، إلا أن الرومان نادرًا ما استخدموها على معرفتهم بها . وقد لاحظ الدكتور (ميخائيل كلانجى) من جامعة كلاسكو أن المسيحيين الأوائل بدوا وكأنهم يفضلون المظهر الخارجى للكتاب ، وذلك لتتميز مخطوطاتهم عن مخطوطات اليهود وكتب الكفرة . وفضّل المسيحيون الأوائل استخدام البردى على الرق لارتباط الأول ، بأذهان المسيحيين الأوائل بالسحر الذى كان يمارسه الكفرة والذى كان المسيحيون عازمين على إبطاله .

وتوصل (ميخائيل كلانجى) إلى النتيجة الآتية : يمكن القول إن المسيحيين كانوا أول من اكتشف الكتابة على البردى . فقد تمت مباركة الاختراع عام ٣٣٢ عندما أمر الإمبراطور قوسطنتيس لشراء خمسين نسخة من مخطوطة الكتاب المقدس من الخطاط المشهور الذى عاش فى مدينة يوسيبيوس الخزرية التى تقع بالقرب من مدينة حيفا فى فلسطين وذلك فى القرن الرابع .

ويبدو أن الإمبراطوركوستانثين قرر إهداء تلك النسخ إلى الكنائس الرئيسية فى

الإمبراطورية . ويظهر أن إحدى نسخ الكتاب المقدس هذه قد وجدت طريقها لترحل إلى دير القديسة كاثرينا ، وظلت محفوظة فى الدير لقرون عديدة غير معروفة من قبل العالم الخارجى.

وقد شعر الروائى الفرنسى (الكسندر دوماس) خلال الزيارة التى قام بها إلى الدير عام ١٨٣٦ ، بأن مكتبة الدير تحتوى على كنوز ثمينة من المخطوطات لم يطلع عليها الرهبان .

وقد علق (دوماس) على ذلك بقوله : « إن قيمة المخطوطات الموجودة فى هذه المكتبة وأهميتها لن يدركها العالم الخارجى إلى أن يقوم عالم شاب أوربى يحبس نفسه لمدة عام أو عامين وسط الكتب المغطاة بالأتربة » .

فى ١١ مايو (آيار) من عام ١٨٤٤ وصل القاهرة بدو رحل وعرضوا على «تشيندروف» اصطحابه إلى جبل سيناء . وكان (تشيندروف) يبلغ تسعة وعشرين عامًا فى ذلك الوقت .

وذكر العالم الألمانى «تشيندروف» : « لقد قدموا لى المشورة مقابل مبلغ معين . فلقد عرضت عليهم فى بادئ الأمر مبلغ مئة وأربعين جنيهًا لكل جمل من الجمال الثلاثة . وسألتهم عما إذا كانوا يقبلون بالعرض أم يرفضونه . ولسوء حظى رفض البدو العرض . وفى اللحظة المناسبة تدخل القنصل النمساوى فى القاهرة وأقنعهم بمحاولة التفاوض مرة أخرى . عند ذاك عرضت عليهم مبلغ أربعمائة وثمانين جنيها أجرة للجمال الأربعة وثلاثة مرافقين من الخدم » .

وقد قبلوا بالعرض وشدوا الرحال ليقطعوا الرحلة الشاقة عبر الصحراء . لقد كانت الحرارة شديدة . وقد أثارت قبعة «تشيندروف» المصنوعة من القش والمزينة بشريط طويل أخضر اللون الخوف بين الجمال . ولكنها كانت مفيدة فى تلك الرحلة الشاقة . فعندما طارت من على رأسه فى إحدى المرات عند هبوب عاصفة خشى «تشيندروف» أن يموت من الحر . مما دفع مرافقيه إلى قضاء يوم كامل فى البحث عنها حتى عثروا عليها. وبسبب الحرارة المحرقة اضطروا للسفر عند انبثاق الفجر والاستراحة فى خيامهم من الساعة العاشرة صباحًا وحتى الساعة الخامسة بعد الظهر ثم استئناف السير لمدة ست ساعات أخرى مرة ثانية .

وشعر «تشيندروف» وكأنه فى حمام تركى . وكان ينام خلال الليل فى العراء ، وبجانبه حقائبه وبندقيته المحشوة وأحد حراسة من البدو المرافقين له .

ولم يتحدث «تشيندروف» مع الناس الذين التقى به وهو فى طريقة إلى جبل سيناء .

وقد لاحظ «تشيندروف» أن النسوة كنّ يعتقدنّ بعين الحسود . فالأمر الذى أثار غيظه أنه حين كان يلاطف بعض الأطفال تبادر أمهاتهم إلى وجوههم . ورغم أنه كان لديهم مؤونة كافية ويضمنها الماء الذى كان فى الأباريق المثبتة على جانبى أحد الجمال ، إلا أن المجموعة التى رافقته كانت تضغط عليه بالاقتصاد فى المؤونة خشية نفادها . وكانوا قد قطعوا البحر الأحمر وقضوا ليلة تحت الجدران الصخرية الشاهقة فى (رأس أبو زميتا) قبل أن يختاروا الطريق الوحيد المؤدى إلى جبل سيناء والممتد فى الجبال الشاهقة عبر سهول (مركة).

وفى اليوم الثانى عشر وصل (تشيندروف) والبعثة المرافقة له سهل (رها) المنبسط الذى ترتفع فيه الصخرة الشمالية الجرداء من جبل سيناء وقد وصف الدير بالكلمات الآتية :

« الدير محاط بحديقة غناء مملوءة بأثمار طازجة مثل الرمان والبرتقال والكمثرى » .

وعند وصول «تشيندروف» الدير أدلى له الحبل وقد ثبتت به سلة وذلك فى الساعة العاشرة تماماً كالمعتاد . فوضع «تشيندروف» إحدى الرسالتين اللتين زودته بهما دار الراهبات فى القاهرة. وكانت الرسالة الأخرى غير وافية بالغرض فمزقها. ثم سحبت السلة مع الرسالة. وبعد فترة تم أدلاء الحبل مثبتاً فيه القضيب المعقوف لسحب «تشيندروف» ورفاقه إلى الأعلى.

فى بادىء الأمر كان «تشيندروف» يشعر بالارتياح فكتب يقول : « ما أجمل الدير فى وسط الصحراء الجرداء برمالها وصخورها ... فجأة تجد نفسك تقطن بين جدران مضيافة .. حيث تلتقى بالرهبان بوجوههم السمحة فى كل مكان .. فى القاعات ، فى الباحات الأنيقة الجميلة » .

وكتب إلى خطيبته انجليكا يقول : « تتألف وجبات الطعام التى تقدم لنا فى الدير من الدجاج والحمام والأرز والجبن والشاى والقهوة .. وخلال تجوالنا فى المنطقة كنا نضرب الخيام فى الصحراء خلال النهار. أما خلال الليل فكنا نحتمى من البرد بالفراء وغطاء من الصوف .. وكثيراً ما نسمع عواء الذئاب ونشاهد آثار النمور والدببة وأبناء آوى فى المنطقة » .

كان دير القديسة «**كاثرينا**» بمثابة واحة بعد الرحلة الشاقة التى قطعوها .

وكتب «تشيندروف» إلى خطيبته انجليكا وذلك خلال شهر كانون الأول يقول : « أشعر وكأننى متجه نحو احتفال كبير حان وقته الآن » .

الفصل الثالث

بدايات النجاح

بدأت تشغل ذهن «تشيندروف» فكرة محددة فى أعقاب الرحلة التى قام بها إلى دير القديسة «كاثرينا» عام ١٨٤٢ وهى احتمال وجود مخطوطات نادرة ، مخزونة فى مكان ما فى الأديرة اليونانية والقبطية والسريانية والأرمنية . لم يكن «تشيندروف» يحلم بالقيمة التاريخية للمخطوطة التى عثر عليها فى جبل سيناء . ورغم ذلك ، كان يحتقر رهبان دير القديسة «كاثرينا» الذين استطاعوا الاحتفاظ بتلك المخطوطات والمحافظة عليها قرونًا عديدة . وللأسف الشديد فقد شاركه فى شعوره هذا العديد من الحجاج البروتستانت الذين زاروا الدير فى القرن التاسع عشر . وقد ساعدت دراسة مواقف هؤلاء الحجاج على تفسير موقف «تشيندروف» الأخير من مضيفيه الأرثوذكسى .

فعلى سبيل المثال وصل الدير عام ١٨٧٧ أستاذ أمريكى متخصص فى أدبيات الكتاب المقدس يدعى (فيليب شاف) . ويظهر أنه لم يستمتع بالرحلة ، كما لم تستمتع زوجته وابنته ومرافقوه الأربعة الآخرون . ويسترجع الأستاذ (شاف) فى ذهنه رومانسية حياة المخيم التى تقع بين الذكريات والتوقعات أكثر من التجربة الحقيقية . فكتب يقول : « كانت الرحلة متعبة وشاقة منذ البداية وحتى النهاية » بهذه الكلمات يصف (شاف) رحلته إلى جبل سيناء ونظر إلى سكان جبل سيناء على أنهم أفضل بقليل من المجانين الذين يؤمنون بالخرافات . وكتب عن البيئة المحيطة بالدير، يقول : « إنها ملأى بالأساطير السخيفة التى تقلل من وقار المسافر البروتستنتى .» وشاهد (شاف) الصخرة التى تسلم منها «موسى» الوصايا العشر والصخرة التى تفجر منها الماء، كما شاهد قالب العجل الذهبى الذى عبدهُ الإسرائيليون الكفرة ، وعلق على الموضوع قائلاً : « ليس فيه أى شبه بالعجل أو شبه بأى حيوان آخر » .

أما الرهبان فقد وصف «شاف» حياتهم بالكلمات الآتية : « إنهم يعيشون حياة بسيطة، كسولة ، مملة وسخيفة » . واتفق (شاف) مع آراء بعض العلماء الأوروبيين مثل الأستاذ (دين ستانلى) والأستاذ (بالمر) اللذين أعلنا فشلهما فى زعزعة العرب بمعتقدهم . وفشلهما أيضًا فى إضافة شيئًا ما إلى المعرفة الموجودة فى الشرق فى موضوعات الجغرافيا والتاريخ والجيولوجيا .

ولم يلاحظ (شاف) أى توجه آخر فى أفكار الرهبان سوى تكريس حياتهم للعبادة والصلاة . والتقى (شاف) على جبل موسى بامرأتين إنجليزتين شجاعتين تدعى إحداهما الآنسة (بروكل هرست) والأخرى الآنسة (بوث) .

وقد زارت الدير فى نهاية القرن التاسع عشر سيدتان إنجليزيتان أخريان هما الآنسة

(اغنس سميث لويس) وتوأمها الآنسة (مارغريت دنلوب جبسن) . وكانت رحلتهما شاقة ومتعبة. وقد وقعت لهما عدة حوادث فى الطريق . فقد عصفت الرياح بخيامهما ونفد ماء الشرب منهما . وجاء فى وصفهما للرحلة : « كان الطريق الذى قطعناه فى صحراء تبدو بدون نهاية وفى أرض صخرية خالية من النبات سوى بعض الأشواك التى كانت تجذب الجمال فتتوقف عندها لتقتات على بعضها »

وكان رئيس أساقفة دير القديسة «كاثرينا» قد استقبلهما بحفاوة فى القاهرة . واستعادتا بذهنيهما حفل الاستقبال الذى أقامه رئيس الأساقفة على شرفهما بعد تسلمه رسالة معنونة إلى الرهبان مرسلة من معاون عميد جامعة كمبردج . وشعرت السيدتان اللتان كانتا تنتميان إلى مذهب البروتستنت القسيسين (Presbiterians) باحتقار نحو رهبان دير القديسة «كاثرينا» رغم الحفاوة التى لقيتاها فى القاهرة وجبل سيناء من قبل الرهبان الأرثوذكسى . وكتبت السيدة لويس : « يمكن ملاحظة التدهور فى عقلية رهبان الدير من طريقه تحوير أجزاء من أبنية الدير لتناسب المتطلبات الملحة » .

ورغم انتمائهما إلى الديانة نفسها فإن الفجوة الثقافية بين الرحالة الغربيين ورهبان الشرق الأدنى كانت من السعة بحيث بدا من الصعب تقليصها .

وانتقد (جون جى اكنيار) عند وصفه الزيارة التى قام بها إلى الدير عام ١٨٣٩ الفوضى التى أثارها الرهبان عند دخولهم الدير .

أما السيدة (أم – أى روجرز) فقد أرسلت إلى السير (جارلس دبليو ويلسون) وصفًا لدعوة الرهبان للصلاة من قبل راهب آخر وذلك لنشره فى كتابه المرسوم (فلسطين فى صور) الذى يعد من أكثر أدب الرحلات انتشارًا . وجاء فى وصفها : « كان الراهب يقوم بالقرع على قطعة معدنية محنية مثبتة بحبل عند دعوته الرهبان للصلاة » .

ولم تتضمن كتابات السيدة (روجرز) أو السيد (جون اكيناز) أية إشارة إلى احتمالى تضمن صلاة الرهبان تأملاً داخليًا فشل الزوار القادمون من الغرب المتحضر فى إدراكه .

وعندما حاولت السيدة (أغنس لويس) مشاركة الرهبان فى صلاتهم فشلت فى الانسجام معهم . واتفقت شقيقتها معها فى رفضها طقوس الرهبان الأرثوذكسى . ولكنهما اعترفتا بوجود تراتيل جميلة : « لقد تضمنت طقوس الصلاة تراتيل جميلة رغم التكرار .

Hagios Otheos Oud Kyrie Eleison .

وعند تسلق الشقيقتين قمة الجبل وقعت مشادة ثقافية – دينية بينهما وبين الرهبان

الأرثوذكسي. ويبدو أنهما ، وهما في طريقهما إلى قمة الجبل ، شاهدتا مسيرة لبعض الرهبان فبادرتا بالأدب الإنجليزي المألوف بالقاء التحية عليهم : « صباح الخير » .

واعتقد رئيس الرهبان أنهما ترغبان في مشاركتهم الصلاة عندما مدتا يديهما للمصافحة فبادر إلى رشهما بالماء المقدس ورفع الصليب أمام السيدة (لويس) لتقبله . وبدا رئيس الرهبان مصممًا على موقفه فاستمر رافعًا الصليب أمامها طالبًا منها تقبيله رغم الملاحظة التي أبداها أحد الرهبان الذي كان يتبع المسيرة بقولة : « إن صلاتها تختلف عن صلاتنا » وأمام هذا الموقف المحرج اضطرت السيدة (اغنس لويس) التي تنتمي إلى كنيسة القسيسين البروتستنتية إلى طبع قبلة على الصليب مرددة « إني أعبد المنقذ الذي مات على الصليب » .

ثم بدأت بالتذمر متسائلة عما إذا كانت على خطأ أو صواب !

وأخيرًا توصلت إلى نتيجة : هي أنها كانت على صواب لأن رئيس الرهبان كان مغفلاً . وقالت : « لو فعلت العكس لأوقعت رئيس الرهبان في حيرة . وهناك احتمال أن يتصورني ملحدة إذ أن مقدار إدراكه محدود »

وأقسمت بأن الحادث لن يتكرر : « لقد كان درسًا علمني عدم التقرب من الرهبان الأرثوذكس عندما يكونون في طريقهم للصلاة » .

وخلاصة القول : إن هؤلاء الزوار الغربيين بذلوا جهدًا محدودًا في محاولة فهم ثقافة رهبان دير القديسة «كاثرينا» وطريقة عبادتهم وصلاتهم والذين كانوا يشعرون بتفوقهم عليهم . وكانت السيدة (لويس) والسيدة (جبسن) مؤمنتين بتفوقهما الديني على رهبان دير القديسة «كاثرينا» . وكثيرًا ما بدت الدهشة في عيون الرهبان عند ملاحظتهم عدم التزام الزوار بأوقات الصيام التي تحددها الديانة المسيحية . ومن الغريب أن يبادر الرهبان للترحيب بالضيوف وبذل ما في وسعهم لتوفير أسباب الراحة لهم..

وعندما قامت السيدة «بنسلي» بزيارة سيناء عام ١٨٩٦ بادرت الشقيقتان (أغنس لويس) و (مارغريت جبسن) بالعمل بصفة أدلاء لها . ولقد لاحظت السيدة «بنسلي» الحب الذي يكنه الرهبان إلى السيدة (أغنس لويس) رغم نظرة التعالي التي كانت تنظر بها إلى رهبان الكنيسة الشرقية . فقد كتبت السيدة «بنسلي» وصفًا للترحاب الذي أبداه الرهبان لهم عند وصولهم الدير : « عند وصولنا للدير بادر أحد الرهبان للترحيب بالسيدة «لويس» التي

التقى بها فى وقت سابق. وبدأ يربت على كتفيها ويلمس رداءها، وأجلسها بالقرب منه واضعًا يدهُ حول ذراعيها » . ثم بدأ يجرى معها حوارًا حميمًا باللغة اليونانية الحديثة الذى لم نفهم منه شيئًا وتخلل الحديث ضحكات دلت على أن الحديث كان ممتعًا . »

ولقد أثار هذا المشهد الممتع حفيظة السيدة (بنسلى) التى خشيت من حدوث نفسه لها . وفجأة قاطعت السيدة (بنسلى) الحديث الحميم الذى كان يدور بين السيدة (اغنس لويس) والراهب بالإعراب عن رغبتها فى مشاهدة كنوز الدير .

وفى تلك الأثناء أدركت السيدة (بنسلى) ضرورة كسب ود الراهب الطيب ، ولكنها لم تستطع إبعاد فكرة احتمال تعرضها بدورها إلى ما تعرضت له السيدة (لويس) تمامًا ،

كانت السيدة «بنسلى» تحتقر جميع الشرقيين وليس الرهبان الشرقيين فحسب . ويبدو أنها كانت تؤمن بأن بمستطاع مشعوذ من الشارع جذب سكان القاهرة برمتهم بطريقة تبدو مستحيلة مع الأوروبيين . واعترفت قائلة : « لا أدرى من احترمه أكثر العرب الذين آمنوا به على أنه ساحر كبير له إلهام الرب أم نحن الذين لم نشاهد مثل هذه المهارة التى أظهرها فى خدع لا يمكن تفسيرها » .

ولم يكن لدى السيدة «بنسلى» أى برهان للافتراض بأن النظارة العرب آمنوا بأن بمستطاع المشعوذ فى الشارع إخراج دجاجة من فمة وأفاعٍ من أذنيه .

إن الشعور الغربى بالتفوق هو الذى ساعد زوار جبل سيناء الذين هم أقل أمانة من السيدة (لويس) والسيدة (بنسلى) والبعثة المرافقة ، والذين حاولوا بدون أى حياء خداع الرهبان وسرقة تراثهم منهم .

وفى عام ١٨٩٦ لاحظت السيدة «بنسلى» الطريقة الحذرة التى كان الرهبان يحافظون بها على كتبهم . كانوا يقومون بترتيبها على الرفوف بكل دقة ويحفظون المخطوطات فى خزانات واسعة . ورغم ذلك شعرت أن بمستطاعها السخرية من مكتباتهم . وبمستطاعنا اليوم الضحك على فشل الزوار الغربيين فى فهم مصادر الروحانية المسيحية عند رهبان الكنيسة الشرقية .

وليس هناك أدنى شك فى أن الرهبان بدورهم رسموا صورة عن زوارهم الغربيين لا ندرى . إن كانت تتعاطف معهم أم تقف ضدهم .

وقد رسم «تشيندروف» بدوره صورة عن الرهبان اتصفت بالقسوة ، فقد ورد فى

كتاباته أنه خلال زيارته للأديرة بحثًا عن مخطوطات «كان الرهبان الضيقو الأفق يهرعون نحوى طالبين المشورة . وكان بعضهم يتصف بالغباء » .

وأضاف . « إذا كان هناك نموذج للحياة يعود مباشرة إلى ضيق الأفق فهو الحياة التى يعيشها الرهبان » وقد شمل «تشيندروف» بإنتقاده دير القديسة «كاثرينا» ويبدو أن «تشيندروف» لم يستطع القبول بحق هؤلاء الرهبان فى العيش بمعتقداتهم القديمة وعدم اتباعهم أسلوب حياته . فكتب عنهم يقول : « لو حاول أولئك الرهبان ملء أوقات فراغهم بأمور ثقافية جدية فإن حياة الرهبنة كانت ستكون مثمرة ومباركة » وحسب اعتقاد «تشيندروف» أن المستوى الثقافى للرهبان الذين عاشوا فى الدير كان أقل من مستوى خريجى جامعة لايبزك وحول هذا الأمر كتب يقول : « لا توجد هنا قاعات محاضرات ، حيث يستطيع طالب العلم الجلوس عند قدمى المعلم بحثًا عن الحقيقة . ثم ليس هناك رهبان يستحقون إطلاق صفة رجال القلم عليهم ، كما كان يطلق على العلماء فى السابق من الذين أغنوا تراث العالم بكتاباتهم الغنية » .

وخلاصة القول : إن رهبان دير القديسة «كاثرينا» المنتمين إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لا يشبهون علماء القرون الوسطى أو المصلحين اللوثريين وقد وصفهم «تشيندروف» بحكمه : «لم تضم أروقة وقاعات الدير مفكرين كبارًا . ولا توجد فى الدير صوامع، يمكن للفرد العزلة فيها وترك روحه للصراع الفكرى ، كما هو عليه الحال فى المركز اللوثرى فى (اير فورت Erfurt) . إن الحياة فى الدير فارغة وهى أشبه شىء بفوهة بركان محروقة » .

وسرعان ما بدأ «تشيندروف» بملاحظة الحقد والشر فى سمات رهبان دير القديسة «كاثرينا» فقد كتب : «يمكن ملاحظة الإزدواجية فى نظرات رئيس الرهبان» . وجاءت كلمات «تشيندروف» لتمثل الانطباع الذى يتركه رهبان دير القديسة «كاثرينا» لدى الرحالة الغربيين من طائفة البروتستنت الذين زاروا الدير فى القرن التاسع عشر. ولم يتردد «تشيندروف» فى نشر وجهات نظره حول رهبان دير القديسة «كاثرينا» عندما عودته إلى أوروبا .

ويبدو أنه لم يخطر ببال «تشيندروف» أن سلوكه ومحاولته اقتناء الكنوز النفيسة التى يحتفظ بها الرهبان فيهما نفاق كبير . ربما كان أكبر من النفاق الذى لاحظهُ فى قسمات رئيس الرهبان . لقد نسى «تشيندروف» هدفه من وراء الرحلة التى قام بها إلى جبل سيناء. لقد كان هدفه العثور على مخطوطات الكتاب المقدس والعودة بها إلى أوروبا إذا تمكن من ذلك

أما عن الحياة الدينية فى جبل سيناء فقد كتب «تشيندروف» : « لقد تدهورت الحياة الدينية فى هذه البقعة من العالم بحيث أصبحت عبئًا يوميًا فيه تفصيلات عديدة حول قواعد الصيام». واتهم «تشيندروف» الرهبان بالنفاق مدعيًا بأن تعاليم القديس (باسيليوس) التى يتبعها الرهبان تحظر تناول الخمر . ولكنهم تحايلوا على ذلك وأخبروه بأن التعاليم لا تحظر تناول الشراب المقطر فكانوا يتناولون البراندى المستخلص من تقطير التمور .

وفى هذا المضمار اختلف مع آراء «تشيندروف» . فحسب تجربتى الخاصة : كان الرهبان على استعداد لتقديم نوع من الشراب شبيه بالخمر إلى ضيوفهم ، وكانوا على استعداد لتناول شيء قليل منه ، وإن كان ليس فى خلال الأيام التى تحددها تعاليم القديس (باسيليوس) .

وليس هناك أدنى شك فى أن «تشيندروف» كان يحمل كراهية كبيرة لرهبان دير القديسة «كاثرينا» فبعد مرور ثمانية أيام على وصوله إلى الدير كتب إلى خطيبته إنجليكا يقول : « آه من هؤلاء الرهبان لو كان لدى القوة العسكرية لحققت مأثرة كبيرة وذلك بدل إلقاء القضيب الحديدى المعقوف على جدران الدير » .

ومن المؤلم أن نشاهد إنسانًا يحمل حقدًا وكراهية فى العالم الشامخ على قمة هذا الجبل . وكان «تشيندروف» ينعت القاطنين فى الدير « بالجهلة » . وجاء فى وصف «تشيندروف» لفترة مكوثه فى الدير : «كان الخادم الذى خصص لخدمتى متوسط الذكاء . أما المكتبة التى احتفظ الرهبان بكتبهم ومخطوطاتهم فيها فكانت بائسة». وقد تمكن «تشيندروف» بالكراهية التى يحملها لرهبان الدير من نهب أثمن كنوزهم. واستطاع «تشيندروف» الحفاظ على تعاليمه اللوثرية وسط الكراهية التى كان يحملها لإخوانه المسيحيين. وفى يوم مشمس من عام ١٨٤٤ وبينما كان جالسًا على قمة جبل سيناء قرر إرسال نسخة من كتاب التراتيل التى كان يرددها إلى انجليكا : «آه لو منحتنى الروح المقدسة قوتها الأبدية » .

ورغم الكراهية التى كان «تشيندروف» يكنها للرهبان تمكن اثنان منهما من كسب وده أحدهما يدعى (جريجوريوس) وهو مسئول عن الضيوف . ويبدو أنه كان جنديًا قبل انخراطهُ فى سلك الرهبنة . وقد عكف على التمرن ببندقية «تشيندروف» يوميًا وذلك بإطلاق عيارات نارية على قطعة كاشى معلقة على جدار الدير . أما الراهب الآخر فكان يدعى (كيريلوس) وقد عكف كما يبدو على تقديم خدمات عديدة إلى «تشيندروف» . ويبدو أن «تشيندروف» تمكن عن طريق (كيريلوس) من التوصل إلى أكبر مكتشفاته .

وحسب اعتقاد «تشـيندروف» أن (كيريلوس) انتمى إلى سلك الرهبنه دون رغبته وأجبر على الدخول إلى الدير لعدم طاعته للبطريرك . كان (كيريلوس) فى منتصف الأربعينات من عمره ، وقد وجده «تشـيندروف» صادقًا ومتعلمًا وجادًا ومحبوبًا . وجاء فى وصف «تشـيندروف» لهما . « كانا للوحيدين من بين رهبان الدير اللذين أظهرا اهتمامًا ملحوظًا بالمخطوطات المحفوظة فيه » . ويبدو أن (كيريلوس) سمح «لتشـيندروف» باستعارة المخطوطات من مكتبة الدير لدراستها وتحقيقها فى غرفته . وفى ذلك الوقت كانت الكتب والمخطوطات تحفظ فى ثلاث غرف مستقلة . وفى مايو (آيار) من عام ١٨٤٤ اكتشف «تشـيندروف» مخطوطة فى إحدى الغرف الثلاث وصفها : « بأنها جوهرة أبحاثى ». وقد عثر على المخطوطة كما جاء فى أقواله : « عندما كنت متجها نحو الرفوف وجدت فى وسط القاعة الكبيرة سلة مهملات كبيرة ملأى بالرقائق القديمة. وأخبرنى أمين المكتبة بأن مجموعتين أخريين من الرقائق القديمة قد التهمتها النيران . والأمر الذى أثار استغرابى وجود صفحات من الرقائق مدون عليها العهد القديم باللغة الإغريقية . وقد بدت لى أنها أقدم مخطوطة شاهدتها فى حياتى » .

وادعى «تشيندروف» بأنه عثر على مئة وتسع وعشرين مخطوطة من العهد القديم . وأعطاة (كيريلوس) ثلاثًا وأربعين مخطوطة كانت ستلقى فى النار بدورها . وعندما حاول أخذ بقية المخطوطات رفض رئيس الدير السماح له بإخراجها من الدير ، واعتقد «تشيندروف» فى حينه بأن الاهتمام الذى أبداه بالمخطوطات ربما قد أثار شكوك الرهبان بقيمة تلك المخطوطات . فقد كتب يقول : « لم يعر أى شخص فى الدير أى اهتمام بالرقائق هذه قبل عام ١٨٤٤ » .

وسمح له رئيس الدير بتدوين ملاحظات حول مضمون المخطوطات التى أبدى الرهبان الرغبة فى الاحتفاظ بها .

وحول هذا الموضوع كتب يقول : « استنسخت صفحة من نص اشعيا وارميا وطلبت من الرهبان الاعتناء بالمخطوطات المشابهة إذا وقعت بين أيديهم » . وغادر «تشيندروف» الدير حاملاً معه ثلاثًا وأربعين مخطوطة متوجهًا إلى القاهرة .

والرواية التى سردها «تشيندروف» حول إهمال الرهبان للمخطوطات تبيّن مدى جهل رهبان دير القديس «**كاثرينا**» .

ولقد حاول «تشيندروف» عند سرده للرواية أن يصورهم بدرجة أدنى من درجة الجهل. ولقد ظهرت الرواية فى العديد من الصحف والدوريات التى تصدر فى العالم المسيحى. وفى عام ١٩٢٧ سرد الرواية زوج ابنة «تشيندروف» ويدعى (لودفيج شنلر) كما روتها حفيدته عام ١٩٥٦ وتدعى (هيلدا غارد برهدند) . وقد ظهرت الرواية عندما نشرت المكتبة البريطانية موضوعًا حول المخطوطة السينائية التى عاد بها «تشيندروف» من دير القديسة «كاثرينا» عام ١٨٥٩ أى بعد مرور أربعة عشر عامًا على رحلته الأولى . والمخطوطة محفوظة حاليًا فى المكتبة البريطانية .

ويبدو من الصعب بالنسبة لى تصديق الرواية . التى سردها «تشيندروف» عندما قال إنه عثر على المخطوطات الثلاث والأربعين فى سلة المهملات ، وكانت بوضع جيد وبعيدة عن الظروف المريبة التى ساعدت «تشيندروف» على أخذ المخطوطة السينائية من الرهبان عام ١٨٥٩ ، وقد حاول «تشيندروف» بذل قصارى جهده للبرهنه على أن مالكى المخطوطة الأصليين غير مؤهلين للاحتفاظ بها .

ولم يحاول «تشيندروف» الاعتراف بالجهد الذى بذلة رهبان دير القديسة «كاثرينا» للحفاظ على تلك المخطوطة النفيسة طيلة تلك القرون . ولا يمكن لأى شخص معرفة الطريقة التى وصلت بها المخطوطة إلى دير القديسة «كاثرينا» والتى تعد أقدم من تاريخ بناية الدير والتى كانت محفوظة فى وقت ما فى مكتبة الخزر Caesavea التى تعد من أكبر المكتبات وأهمها فى العالم بعد مكتبة الاسكندرية ومكتبة القدس .

وتوجد صفحات من بين الصفحات الثلاث والأربعين التى عاد بها «تشيندروف» من جبل سيناء ، مدون عليها ملاحظات بخط «بامفيليوس» . وكتب «بامفيليوس» أنهُ اعتمد فى الملاحظات التى دونها على تلك الصفحات على أعمال إنجيلية مشهورة وهى الهكسبالا لاورنجى .Hexaple of Ovigen التى كانت محفوظة فى مكتبة الخزر .

وليس هناك أدنى شك فى أن المخطوطات التى عثر عليها «تشيندروف» فى جبل سيناء كانت محفوظة فى يوم ما فى مكتبة الخزر حيث دون عليها «بامفيليوس» الملاحظات. وعندما احتل العرب الإمبراطورية الرومانية عام ٦٣٨ كان هناك احتمال بأن اللاجئين حملوا المخطوطة الإنجيلية إلى سيناء . وليس من السهل البت فيما إذا كان ذلك قد حدث بعد هجرة اللاجئين مباشرة أم فى سنوات لاحقة . ولكن ليس هناك أدنى شك فى أن رهبان دير القديسة «كاثرينا» اعتنوا بالمخطوطات لفترة مئة عام قبل أن يعثر عليها «تشيندروف» . وفى يناير

(كانون الثانى) من عام ١٨٤٥ عاد «تشيندروف» إلى لايبزك . ويبدو أنه فتش خلال رحلته إلى المنطقة عن مخطوطات قديمة أخرى فى الأديرة القبطية المنتشرة فى الصحراء الليبية وكذلك فى القدس وبيت لحم ودير القديس سابا Saba فى سواحل البحر الميت . وقد قاده بحثه إلى الناصرة وسميرنا وجزيرة بطموس وبيروت والقسطنطينية وأثينا . وزار «تشيندروف» مكتبات فينا وميونخ فى طريق عودته إلى وطنه .

ويذكر أن «تشيندروف» أعطى الملك الساكسونى «فردريك أوغسطس الثانى» جميع المخطوطات التى عثر عليها فى جبل سيناء ، وذلك مقابل نفقات الرحلة التى تحملها الملك .

وحسب ادعاءات صهر «تشيندروف» (لودفيج شنلر) ، إن «تشيندروف» طور فجأة نشاطة على أمل تحقيق المخطوطات وذلك ليعود بالمنفعة العامة على الإنسانية ويغنى المعرفة والثقافة ويبدو مثل هذا التطور بعيداً بعض الشىء عن الواقع إذ أن «تشيندروف» لم يكن ليسمح لأى شخص بالاطلاع على أسرارة حتى بعد أن حقق شهرة واسعة .

والمعروف أن «تشيندروف» أظهر حقداً كبيراً للعلماء الذين فاقوهُ شهرة . وأحدهم كان العالم الإنجيلى البريطانى (صاموئيل بريدو تريجيل) . وفى الوقت الذى يتحدث فيه «تشيندروف» عن استقامته كان يوجه الاتهامات إلى رهبان جبل سيناء ناعتًا إياهم بالنفاق. كما اتهم منافسه العالم البريطانى (تريجيل) بالنفاق أيضاً إذ كتب عنه يقول : « كان ورعًا متدينًا يكثر الحديث لا يتردد فى استخدام جميع أسلحة الحقد والنفاق الموجودة فى العالم » .

وهناك اعتقاد بأن يكون «تشيندروف» نفسه قد تصرف بالطريقة التى وصف فيها «تريجيل» ، ذلك أنه ، عند نشره اكتشافه الجديد فى منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر ، قرر نشر الشىء القليل عن الموضوع بشكل يساعد على الإعلاء من شأنه وتحقيق شهرته ، ولكنه احتفظ بالتفاصيل لنفسه ، حتى لا تتيح الفرصة أمام عالم آخر لمشاركته فى نهب بقية المخطوطات ففى عام ١٨٤٦ نشر «تشيندروف» كتابه الذى احتوى على الثلاث والأربعين مخطوطة ، وأطلق على الكتاب اسم مخطوطة (فردريك أوجسطين) . والشىء المثير فى هذه الطبعة أن «تشيندروف» امتنع عن الإفصاح عن المكان الذى عثر فيه على المخطوطات ، كما امتنع عن الإدلاء بشىء عما إذا كان قد خلف وراءهُ فى جبل سيناء ثمانين مخطوطة أخرى .

وحاول زوج ابنته (لودفيج شنلر) تبرير التعتيم المتعمد ، وذلك بإثارة الشعور القومى

عند الألمان فكتب يقول : « لو كشف «تشيندروف» عن مكان المخطوطات لتوجه الإنجليز على الفور إلى المكان لشراء المخطوطات بمبالغ طائلة ثم نقلها إلى المتحف البريطانى فى لندن».

وفى الواقع أن «تشيندروف» حاول اقتناء المخطوطات والاحتفاظ بها لنفسه ، ولذلك أشار فى كتابه الذى ضم الثلاث والأربعين مخطوطة إلى أن مصدر تلك المخطوطات من الشرق فى مكان ما مجاور لمصر - وكان «تشيندروف» قد طلب من صديقة الدكتور (برونزيك) الذى كان يشرف على صحة مستشار مصر ، التقرب من الرهبان ومحاولة شراء بقية المخطوطات. ويبدو أن الدكتور (برونزيك) قد فشل فى المهمة . فكتب إلى «تشيندروف» يقول : « لقد أدرك الرهبان قيمة المخطوطات بعد مغادرتك الدير فهم لا يبدون أى استعداد لبيعها بأى ثمن » .

وكان «تشيندروف» قد ترقى فى ذلك الوقت فأصبح يحتل كرسى أستاذ فوق العادة فى جامعة لايبزك وأصدر «تشيندروف» كتابًا آخر يضم مشاهداته فى الشرق بضمنها رحلته إلى جبل سيناء . وقد تحفظ مرة أخرى فى الإشارة إلى المخطوطة التى عثر عليها فى الدير . وأكد «تشيندروف» فى وصفه اشمئزازه من طريقة معيشة الرهبان واستهجن حتى الرياضة التى كان سكان تلك المنطقة يتسلون بها وهى المبارزة بالعصى .

واستمر «تشيندروف» ينشر أعماله الأدبية ، التى زادت من مكانته وشهرته . وبدا فى ذلك الوقت عازفًا على الذهاب ثانية إلى جبل سيناء للعودة ببقية المخطوطات .

وفى نهاية عام ١٨٥٢ م أبحر «تشيندروف» مرة ثانية متوجهًا إلى الشرق مخلفًا وراءه زوجته انجليكا والأطفال لترعاهم . وفى الحادى والعشرين من يناير (كانون الثانى) من عام ١٨٥٣ م كتبت انجليكا إلى زوجها لتصف له المشاعر التى انتابتها عند دخولها غرفة المكتبة ورؤيتها قبعة زوجها الحبيب على منضدة الكتابة وقصيدة كتبها ابنهما بول ومهداة إلى والده بمناسبة عيد ميلادة وبعد يومين كتبت له مرة أخرى تصف مشاعرها نحوه واشتياقها له تقول : «لا أستطيع تحمل فراقك لإدراكى بالمصاعب الشاقة التى تواجهك » .

وبالفعل كانت رحلته الثانية إلى جبل سيناء محفوفة بالمصاعب فقد واجهته عاصفة وهو فى طريقه من الاسكندرية إلى القاهرة .

وعاد «تشيندروف» إلى ألمانيا هذه المرة فارغ اليدين . وقد رافقه فى رحلته هذه المرة

زوج وزوجته من ألمانيا. والغريب فى الأمر عدم تمكن «تشيندروف» من الاطلاع على بقية المخطوطات البالغ عددها ستًا وثمانين مخطوطة مع أنهُ شاهدها خلال زيارته الأولى للدير قبل ذلك التاريخ بتسع سنوات. ويبدو أنه لم تكن لدى الرهبان الرغبة فى عرضها على «تشيندروف» .

وحول هذا الموضوع كتب «تشيندروف» : «كل الذى استطعت العثور عليه هو شذرة صغيرة لمخطوطة من نفس مجموعة المخطوطات ، مستخدمة كما يبدو كمؤشر وظهر على جانبيها أحد عشر سطرًا من الكتاب الأول للكتاب المقدس » . وقد أقنعت تلك الشذرة «تشيندروف» بأن النص الكامل للمخطوطة احتوى على النص الكامل للعهد القديم وخشى «تشيندروف» من أن يكون الجزء الأكبر من المخطوطة قد تعرض للتلف منذ فترة .

ورغم الكآبة التى شعر بها لفشلة فى العثور على بقية المخطوطة إلا أنه لم يفقد حماسه المألوف . كما عثر «تشيندروف» على ست عشرة مخطوطة مسحت الكتابات القديمة منها لتدون مكانها كتابات جديدة عليها ، وعلى العديد من المخطوطات اليونانية والقبطية والسريانية والصربية . وقد عثر على هذه المخطوطات فى أماكن مختلفة مثل القاهرة والاسكندرية والقدس واللاذقية Laodicia وسميرنا Smyrna والقسطنطينية وجبل آثوس Athos . وقرر «تشيندروف» تحقيق أقدم مخطوطة عثر عليها فى رحلته الثالثة وهى مخطوطة «بوهان» التى أطلق عليها هذا الاسم تيمنًا باسم ولى العهد الساكسونى : وعند الانتهاء من تحقيقه شكر «تشيندروف» الرب بقوله : «شكرًا للرب على بركته هذه لمساعدتى فى العثور على المخطوطه».

واستمر «تشيندروف» فى إصدار مطبوعات عن مكتشفاته وذلك وسط شهرة متصاعدة. كما أصدر طبعات جديدة محسنة عن العهد الجديد باللغة اليونانية . وفى نهاية حياته فحص نصوص ثلاثًا وعشرين مخطوطة وحقق نصوص سبع عشرة مخطوطة أخرى مزودًا العالم بـ عشرين طبعة من العهد الجديد باللغة اليونانية .

وقد أزعجة فشلة فى الحصول على جميع المخطوطات الموجودة فى الدير ، وأثار حفيظته خلال أربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر . والشىء الذى أزعجهُ أكثر صدور تقارير تشير إلى قيام بعض العلماء بتحقيق المخطوطات النفيسة الموجودة فى جبل سيناء من بينهم الضابط الاسكوتلندى الميجر «ماكلويد» والعالم الروسى (بورفيراس أو سينسكى) الذى شاهد المجموعة الكاملة للمخطوطات باستثناء الثلاث والأربعين مخطوطة التى كانت بحوزة «تشيندروف» . وكان ذلك عام ١٨٤٥ م والمرة الثانية عام ١٨٥٠ .

ولم يكن «أوسبنسكى» بعالم كبير ليدرك القيمة الأثرية للمخطوطات ، رغم إدراكه أنه عـثر علـى كـنز ثمين وقد لاحظ «أوسبنسكى» عام ١٨٥٧ أن تلك المخطوطة ربما كانت أقدم مخطوطة فى الكنيسة الأرثنوكسية ، وذلك لندرتها الأثرية .

ولم يعلم «تشيندروف» بإطلاع أوسبنسكى على المخطوطة التى طالما رغب بالإطلاع عليها حتى عام ١٨٥٩ . وأن الإشارة إلى مكانة قيام عالم آخر باكتشاف المخطوطات كانت وحدها كافية لآثارة حفيظة «تشيندروف» فقد جاء فى الرسالة التى كتبها «تشيندروف» إلى صديقه الاسكتلندى الدكتور (صاموئيل ديفيد سون) فى مدينة كلاسكو : « إن افتقار الروس الذين يفتشون عن الكفر إلى التفكير الصحيح دفعنى إلى إصدار كراس بعنوان (الخلافات حول الكتاب المقدس فى جبل سيناء » .

وعاد «تشيندروف» إلى وطنه ، وهو راضٍ عن نفسه ، على الأقل لفشل الآخرين فى العثور على المخطوطة . وقد وجد «تشيندروف» السلوى فى تحقيق المخطوطات الأخرى التى عثر عليها فى القاهرة والإسكندرية والقدس واللاذقية والقسطنطينية ودير جبل آثوس Athos الذى يقع فى مقدونيا .

وجاء فى الرسالة التى كتبها إلى انجليكا : « رغم فشلى فى تحقيق أكبر طموح راودنى فى حياتى كان الاحترام الذى حظيت به خلال حياتى كان أكثر من توقعاتى » .

وظلت القصة محيرة .

فقد نشر «تشيندروف» مقتطفات من سفر التكوين من الفصل الرابع والعشرين الذى عثر عليه فى دير القديس «كاثرينا» . وقد ذاع صيته فى حينه . فقد كتب معاون عميد جامعة كمبردج بعد اللقاء به عام ١٨٥٥ «رغم صغر سنه إلا أنه استطاع القيام بعمل يستغرق إنجازه قرنًا» . ومما يثير الدهشة أن «تشيندروف» قرر زيارة الدير للمرة الثالثة ، رغم فشلة فى العثور على أى مخطوطة خلال زيارته الثانية للدير . ولا يدرى صهرهُ وحفيدته ما إذا كان «تشـــيندروف» قد اعتقد بأن علماء آخرين قد يكون من بينهم عالم إنجليزى ، قد تمكنوا من شراء بقية الرقائق من الرهبان، وأنه غير اعتقادهُ تدريجيًا عندما لم يصدر أى مطبوع حولها :

وقد بدأ «تشيندروف» إجراء الترتيبات اللازمة لزيارته الأخيرة لدير القديسة «كاثرينـا». واعتــقد فــى حينــها بأنها رحلته هذه ستمثل فرصته الأخيرة حيث لم يعد صغير السـن، ولا يســتطيع تحمـل مشاق السفر. ولم يستعن هذه المرة بوزارة التربية والشئون الاجتمـاعية السـاكسونية التى مولت رحلاته فى السابق ، ولكنه التجأ إلى أكثر الشخصيات نفوذًا فى الكنيسة الأرثنوكسية إلا هو قيصر روسيا .

الفصل الرابع

اكتشاف المخطوطة

كان «تشـــــيندروف» قد قطع وعداً إلى الوزير المفوض الروسى فى دريسدف الأمير «فولكوفسكى» بإهداء القيصر «الكسندر الثانى» جميع المكتشفات التى يعثر عليها فى جبل سيناء إذا وافق على تمويل رحلته إلى الشرق . وقد لقى اقتراح «تشيندروف» ترحيباً لدى وزير الثقافة الروسى وقيصرة روسيا ووالدتها مما حدا بالقيصر إلى إعلان موافقته .

وفى يناير (كانون الثانى) من عام ١٨٥٩ أبحر «تشيندروف» متوجهاً إلى الشرق مرة أخرى . وحال وصوله إلى الدير قبل نهاية شهر يناير (كانون الثانى) كرس وقته للإطلاع على المخطوطات المحفوظة فى الدير . وقد اكتشف بطريق الصدفة بعض المخطوطات الثمينة ، التى لم تقع عيناه عليها من قبل .

وفى الرابع من فبراير (شباط) طلب من مرافقيه الذين كانوا من البدو التهيؤ لمغادرة الدير بعد ثلاثة أيام للتوجه إلى القاهرة . وفى مساء ذلك اليوم قام بجولة فى الدير مع أحد أولاد الدير وكان شاباً يونانى الجنسية . وفى نهاية الجولة صاحب «تشيندروف» الدليل إلى صومعته لتناول المرطبات .

وفى تلك الأثناء أخبرة الدليل بأنه قد شاهد وقرأ النص اليونانى من العهد القديم ، وأخذ من إحدى زوايا كهفه رزمة مربوطة بقماش أحمر، وطرحها أمام «تشيندروف» وحين أخذها «تشيندروف» إلى مخزنه للإطلاع عليها وجد أن الرزمة تحتوى على الصفحات الثمانين من المخطوطة التى شاهدها عام ١٨٤٤ وكان مجموع الصفحات التى بين يدية ثلثمائة وستاً وأربعين صفحة . وجد «تشيندروف» أنها بالحجم نفسه ومكتوبه بالخط نفسه . وكتب إلى أنجليكا يصف مشاعرة قائلاً : «لقد جلست لوحدى أتطلع إلى صفحات هذه المخطوطة بفرح وسعادة» والأمر الذى أثار دهشته أن اكتشافه كان قد تضمن صفحات المخطوطة على العهدين القديم والجديد . وجاء فى الرسالة التى بعثها إلى زوجته أنجليكا : « إن صفحات هذه المخطوطة فريدة من نوعها فى العالم . وبما أن مخطوطة الفاتيكان ومخطوطة الاسكندرية المحفوظتين فى لندن خاليتين من النص الكامل للعهد الجديد ، فإن تضمن هذه المخطوطة للعهدين يجعلها مهمة للمعرفة المسيحية . ولما لم يكن هناك أدنى شك فى أن مخطوطة سيناء هذه هى أقدم من المخطوطتين المشار إليهما فى أعلاه فإن اكتشافها يمثل حدثاً مهماً فى المعرفة بعامة والمعرفة المسيحية بخاصة . وبطبيعة الحال ليس هناك من شخص فى الدير يدرك قيمة المعلومات الموجودة فى المخطوطة » .

وعندما كان الدليل اليونانى الشاب يتلو . المخطوطة على مسامع «تشيندروف»،

دهش الأخير إذ اكتشف أن المخطوطة تحتوى على النص الكامل لرسالة «برنابا» التى عدت مفقودة من النص اليونانى وما يزال هذا الاعتقاد قائمًا حتى يومنا هذا .

وجاء فى رسالته إلى زوجته انجليكا يصف مشاعره عند مشاهدته المخطوطة : « لقد ترقرقت مقلتاى بالدموع ، وازدادت ضربات قلبى » .

ثم اختار صفحة أخرى من المخطوطة وعندما شاهد العنوان المثبت عليها (الراعى) أدرك أن هذه الصفحة تمثل كتاب الرؤى المكتوب فى القرن الثانى الميلادى من قبل أحد الأتباع المسيحيين ويدعى (هرماس) وقد أثار اكتشافه هذا مزيجًا من المشاعر فى أعماقه سجلها فى رسالة بعث بها إلى زوجته أنجليكا جاء فيها : « كثيرًا ما كنت أقول لنفسى إننى سأتوجه إلى الدير باسم الرب بحثًا عن الكنوز النفيسة التى تحمل ثمارًا للكنيسة » .

وفى تلك اللحظة أدرك «تشيندروف» المشكلة التى سيواجهها ، إذ كان يدرك جيدًا أن بمستطاعه إغناء المعرفة فى العالم بإضافة مكتشف جديد مهم إلى المعرفة المسيحية ، إذا تمكن من إخراج المخطوطات خارج الدير . ومن جهة أخرى تذكر «تشيندروف» الوعد الذى قطعه لقيصر روسيًا بإهدائه جميع مكتشفاته مقابل تحمل القيصر مصاريف رحلته إلى الشرق.

وفى تلك الأثناء بادر «تشيندروف» إلى عرض مبلغ من المال على الدليل اليونانى مقابل السماح له باصطحاب المخطوطة . غير أن الدليل اليونانى الشاب رفض العرض الذى تقدم به «تشيندروف» لإدراكه بعدم وجود خيار آخر أمامه حتى لو كان لديه الاستعداد لخذلان زملائه الرهبان فهو قد استعار المخطوطة من أمين غرفة المقدسات فى الدير الراهب (سكيفو فيلاكس فيتاليوس) لعرضها على «تشيندروف» .

وعكف «تشيندروف» يدرس الطريقة التى يمكن بواسطتها إقناع الرهبان باصطحاب المخطوطة الثمينة والتى كانت ستشغله لفترة عشرة أعوام .

ففى بادئ الأمر سأل «تشيندروف» الرهبان عما إذا كان بمستطاعه نقل المخطوطة إلى الفرع التابع للدير فى القاهرة لأجل استنساخها، ورفض أمين غرفة المقدسات (فيتاليوس) مقترحه . ثم قرر التضرع إلى رئيس الرهبان فى الدير ، ولسوء حظه كان رئيس الرهبان فى القاهرة فى طريقة إلى القسطنطينية مع بقية رؤساء رهبان الأديرة التابعة لدير القديسة كاثرينا لانتخاب رئيس أساقفة جديد بدل الرئيس السابق الذى توفى عن عمر ناهز التسعين

عامًا ، وكان موضوع اختيار رئيس الأساقفه يقلق الرهبان بما أن اختيارهم يجب أن يبارك من قبل بطريـرك القدس الذى يـرفض مباركة رئيس الأسـاقفة المنتخب من قبل الرهبان المجتمعين .

وغادر «تشيندروف» برفقة مرافقه الشيخ ناصر متوجها إلى القاهرة على أمل اللحاق برئيس رهبـان دير القديسـة «كاثرينا» قبل مغـادرته القاهـرة إلى القسطنطينيـة. ووصـل «تشيندروف» ومرافقه القاهرة خلال سبعة أيام. وعند وصوله القاهرة تمكن من اقناع رؤساء الرهبان بالموافقة على مقترحه وكلف الشيخ ناصر بالعودة إلى جبل سيناء واستغرقت رحلته هذه المرة اثنى عشر يومًا . وقد سمح الرهبان «لتشيندروف» استعارة ثمان صفحات فى كل مـرة لاستنساخها فى مقره فى القاهرة . ولفترة شهرين انغمر «تشيندروف» فى استنسـاخ صفحات المخطوطة وسط جـو القاهرة الخانق . وقد سـاعدة فى عملـه طبيب وصيـدلى ألمانيـان لهما إلمام باللغة اليونانية. وراجع «تشيندروف» الصفحات التى استنسخها والتى ضمت مئة وعشرة آلاف سطر وأضاف عليها «تشيندروف» بذكاء التعبيرات التى أجراها المصححون اللاحقون للمخطوطة . وكان مجموعها اثنى عشر ألف سطر .

ورغم انشغالة فى عمله استطاع «تشيندروف» إيجاد الوقت ليكتب إلى زوجته وأولاده. وقـد جـاء فى إحـدى رسائلـه المؤرخـة فى فبـراير (شبـاط) : «كونـوا أولادًا مطيعين لتحظـوا بـرضـائى . وستكتب والدتكم لى عن تصرفاتكم » . وهمش الرسالة بتوقيعة وبالكلمات التالية. « والـدكم الـذى يحبكم . القاهـرة حيث تكون سحنـه السكان سمـراء أو سمـراء داكنـة وبعض الأحيان سوداء والعديد من الأطفال فى هذا البلد يسيرون عراة صيفًا وشتاءً » .

وبعد الانتهاء من استنساخ المخطوطة التى استعارها من جبل سيناء توجه إلى مكان آخر بحثًا عن مخطوطات أخـرى : ودامـت رحلتـه حتى نهـاية يـوليو (تموز). وفى طـريق عـودته كرس نفسه لدراسة الطريق التى يمكن بواسطتها الحصول على المخطوطة السينائية من الرهبان لإهدائها إلى قيصر روسيا .

ويبـدو أن الخـلاف الـذى كان دائرٌ بين الـرهبـان حـول انتخاب رئيس أساقفة جديد لدير القديسة «كاثرينا» بصالح «تشيندروف» . فقد استطاع «تشيندروف» الحصول عل دعم من قيصر روسيا المرشح المفضل لدى الرهبان . بأمل اقناعهم السماح له بحمل المخطوطة الثمينة معهُ إلى روسيا وجاء فى المذكرات التى كتبها «تشيندروف» فى القاهرة إشارة إلى المقترح الذى قـدمـه إلى رهبان دير القديسـة «كاثرينا» . كما أشـار «تشيندروف» إلى الاستعـداد

الذى أبدوهُ لتقديم المخطوطة هدية إلى قيصر روسيا : « إن رهبان سيناء رغم موافقتهم على المقترح كانوا عاجزين عن تحقيقة لأن البت بمثل هذه الأمور يحتاج إلى الحصول على موافقة رئيس الأساقفة الذى كان كرسية شاغرًا فى ذلك الوقت » .

ووردت عدة إشارات إلى الموضوع نفسه فى رسائل «تشيندروف» اللاحقة .

ويبدو أن الواقع لايثبت ما ورد فى إشارات «تشيندروف» . ففى الرابع والعشرين من فبراير (شباط) من عام ١٨٥٩ سلم «تشيندروف» الرهبان مذكرة أكد فيها استعدادهُ لإعادة المخطوطة خلال خمسة وأربعين يومًا . وفى الثلاثين من مارس (آذار) أى بعد مرور شهر كتب إلى زوجته أنجليكا رسالة شرح فيها خطته فى محاولة إقناع الرهبان بالسماح له بحمل المخطوطة كهدية من طرفهم إلى قيصر روسيا .

وَرغم فشل «تشيندروف» فى إقناعهم، فقد دأب على محاولته إذ سافر إلى القسطنطينية لدعم رئيس الأساقفة فى سيريل وتمكن خلال وجوده فى القسطنطينية من الحصول على وعود من سفير روسيا فى تركيا الأمير «لوبونوف» بدعم انتخابات رئيس أساقفتهم . وفى آخر الأمر وافق رهبان دير القديسة «كاثرينا» على إعارة المخطوطة إلى القيصر لاستنساخها وطبعها وليس إهداءها . وقد بذلك «تشيندروف» جهدًا كبيرًا للحصول على هذه الموافقة وعاد «تشيندروف» إلى القاهرة يوم الرابع والعشرين من سبتمبر (أيلول) .

وجاء فى مذكراته : « أعرب رهبان دير القديسة «كاثرينا» ورئيس أساقفة الدير عن امتنانهم للجهد الذى بذلته لدعم قضيتهم . وفى اليوم التالى تسلمت منهم المخطوطة السينائية لحملها إلى بطرسبورج بحكم الإعارة لاستنساخها» وكان «تشيندروف» يأمل بإقناع الرهبان فى المستقبل بإهداء المخطوطة إلى قيصر روسيا، وحمل «تشيندروف» معهُ رسالة من الأمير «لوبونوف» يدعم اقتراحه يوضح فيها الظروف المحيطة بالموضوع. وجاء فى الرسالة المؤرخة ٢٢ سبتمبر (أيلول) ١٨٥٩ والمعنونة إلى رهبان دير القديسة «كاثرينا» ما يلى :

« أخبرنى السيد «تشيندروف» بأن رهبان دير القديسة «كاثرينا» اقترحوا إهداء قيصر روسيا «الكسندر الثانى» المخطوطة السينائية على أن يتم ذلك عن طريقه. وبما أنه لا يمكن تقديم المخطوطة رسميًا حتى يتم الاعتراف بالأسقف الجديد المنتخب من قبل الباب العالى . فقد أعرب لى «تشيندروف» عن رغبته باستعارة المخطوطة لاستنساخها وطبعها فى بطرسبورج . وفى الوقت الذى أؤيد فيه المقترح أود التأكيد هنا بأنه إذا ما حصلت الموافقة

فستبقى المخطوطة تعتبر من ضمن ممتلكات رهبان دير القديسة «كاثرينا» حتى يحين الوقت ليقوم رئيس أساقفة دير القديسة «كاثرينا» . بإهدائها إلى صاحب الجلالة قيصر روسيا باسم رهبان دير القديسة «كاثرينا». وإذا وقعت ظروف غير متوقعة حالت دون تحقيق ذلك فسيتم إعادة المخطوطة إلى أصحابها الشرعيين بعد الانتهاء من طباعتها » .

وسلم «تشيندروف» الرسالة إلى الرهبان حال وصوله الدير . وقد سجل فقرات من الرسالة فى مذكراته، لكنه لم يتطرق إلى الرسالة التى وجهها إلى رهبان دير القديسة «كاثرينا» المؤرخة فى الثامن والعشرون من سبتمبر (أيلول) عام ١٨٥٩ والتى ظلت محفوظة فى الدير حتى تم اكتشافها عام ١٩٦٠ بضمن مجموعة أخرى من رسائل البروفسور (أهور سفيسينكو) . وكانت الرسالة مدونة بخط «تشيندروف» بلغة يونانية ركيكة حررت بمساعدة أحد كتاب العدل فى القاهرة .

وقد أثارت رسالة «تشيندروف» التى تم اكتشافها عام ١٩٦٠ اهتمام رهبان دير القديسة «كاثرينا» بحيث عرضوها فى خزانة المعروضات الدائمة وعندما بدأ لون الحبر يبهت عرضت صورة مستنسخة للرسالة مرفق بها ترجمة وجاء فى الرسالة :

أنا الموقع أدناه «قسطنطين فون تشيندروف» المبعوث بأمر من قيصر روسيا ألكسندر الثانى إلى الشرق أشهد بأن الجمعية المقدسة فى دير القديسة «كاثرينا» قد سلمتنى بناء على الرسالة التى تسلمتها من الأمير «لوبونوف» مخطوطة قديمة للعهدين القديم والجديد وذلك على شكل إعارة . وأشهد أن المخطوطة المؤلفة من ثلثمائة وست وأربعين صفحة وشذرات صغيرة هى من ممتلكات الدير المذكور . وسأقوم بنقل المخطوطة إلى بطرسبورج لأجل مقارنتها مع النسخة المنقولة التى تمت طباعتها .

لقد عهدت لى هذه المخطوطة بموجب الشروط المدونة فى رسالة الأمير «لوبونوف» المؤرخة فى العاشر من سبتمبر (أيلول) ١٨٥٩ وتحمل رقم ٥١٠ .

وإنى أتعهد بإعادة المخطوطة إلى الجمعية المقدسة فى جبل سيناء بهيئة جيدة عند طلبهم » .

وغادر «تشيندروف» القاهرة حاملاً معه المخطوطة ولم يشاهد رهبان دير القديسة «كاثرينا». المخطوطة مرة ثانية. وعاد «تشيندروف» إلى أوروبا مكللاً بالنصر. ووصل بطرسبورج عن طريق لايبزك. وجاء فى مذكراته بتاريخ ١٩ نوفمبر (تشرين) الثانى ١٨٥٩ :

«قدمت إلى صاحب الجلالة قيصر روسيا مجموعة المخطوطات النفيسة التى كانت بحوزتى والمدونة باللغات اليونانية والسريانية والقبطية والعربية ومن ضمنها للمخطوطة السينائية التى توجت تلك المخطوطات» وليس هناك إشارة فى مذكرات «تشيندروف» تدل على ملكيته للمخطوطة السينائية ليقوم بتقديمها إلى القيصر «الكسندر الثانى» وزوجته قيصرة روسيا. وعندما اقترح «تشيندروف» على القيصر نشر المخطوطة وافق فوراً على تمويل الطباعة شرط أن تصدر مع الذكرى الألفية للقيصرية الروسية والتى صادفت فى خريف عام ١٨٦٢ .

وبدأ هذا الطلب تعجيزياً حتى بالنسبة إلى عالم يتمتع بقابليات خارقة مثل «تشيندروف» ، فقد كان يعنى إنجاز تحقيق ونشر المخطوطة خلال سنتين وكانت الكلمات فى المخطوطة مكتوبة بأحرف لاتينية . وخلت المخطوطة من عناوين للفصول أو أقسام بالنسبة للفصول . وكانت المخطوطة مدونة بدون تنقيط ، كما لم تترك مسافات بين الكلمات . واشتملت على العديد من التصحيحات والتعديلات المضافة .

وتمكن «تشيندروف» عند تحقيقه المخطوطة من تجاوز العديد من العقبات . فقد وجد مثلاً سبعة أحجام للحرف اليونانى (أوميجا) فى المخطوطة ورفض «تشيندروف» دعوة القيصر لتحقيق المخطوطة فى بطرسبورج ، وفضل تحقيقها والإشراف على طباعتها فى لايبزك. وقام بثلاث زيارات إلى بطرسبورج خلال سبعة وعشرون شهراً. ونجح «تشيندروف» فى إصدار أربع ملازم بوقت قياسى. وأخيراً صدرت طبعة الكتاب المقدس لجبل سيناء. وخلال تلك الفترة رفض «تشيندروف» تلبية جميع الدعوات بضمنها الدعوة التى تلقاها من صديقة الدكتور (صاموئيل ديفيد سون) لحضور اجتماعات الجمعية البريطانية. وجاء فى رسالة الاعتزار : « لقد كرست جميع وقتى للعمل الجبار الذى حدثتك عنه. حيث يتطلب منى إصدار أربعة ملازم لنص المخطوطة وذلك فى خريف ١٨٦٢ ، وإنى مستمر بالعمل ولا أتوقف إلا خلال سفرى إلى بطرسبورج فى مايو (آيار) حيث يتعين علىّ تقديم تقرير حول مراحل إنجاز العمل والإعداد لصدور طبعة المخطوطة .

ويبدو أن «تشيندروف» تمكن من إيجاد الوقت لعرض المخطوطة على ملك بروسيا «وليم» فى برلين . كما سمح لخصمه البروفسور (صاموئيل بريدو بريجيل) لدراسة المخطوطة لبضعة أيام ، فقد تركها فى حوزته عدة أيام فى لايبزك . وندم فيما بعد على ذلك . واستمر «تشيندروف» فى تكريس جميع وقته لتحقيق المخطوطة . وفى تلك الأثناء اتفق مع (فروينا وفلينج) إحدى دور النشر فى لايبزك . لتهيئة ورق جيد يشابه رقائق المخطوطة . وقام بنقل

الكلمات والسطور كما وردت فى المخطوطة . كما نقل العديد من الأحرف التى كانت مدونة باللون الأحمر وكذلك الإشارات بشكل مطابق للنص الأصلى . وقبل صدور نسخة المخطوطة انطلقت إشاعات تشكك بالمخطوطة وتصفها بكونها مزورة. فقد ادعى (قسطنطين سيمونيدس) الذى كان يعد من أشهر مزورى الوثائق فى القرن التاسع عشر بأنه قد دون المخطوطة . واشتهر (سيمونيدس) فى ذلك الوقت ببيعه المخطوطات المزورة والأصلية . ويذكر أنه فشل فى اقناع السيد (فردريك مادن) أحد مسئولى المتحف البريطانى لبيعة مخطوطاته المزورة ، وعندما كان فى انجلترا خلال الفترة (١٨٥٣ - ١٨٥٥) . قبل أن يعود فى اليوم التالى ليبيعهُ مخطوطات أصلية . ولكنه نجح فى بيع إحدى وثلاثين مخطوطة مزورة إلى جامع المخطوطات البريطانى السيد (توماس فيلبس) وكان ذلك فى يوليو (تموز) فى عام ١٨٥٥. كما نجح فى عقد صفقة مع جامعة لايبزك . وكان (سيمونيدس) قد باع للجامعة ثلاث صفحات مزورة من مخطوطة (راعى هرماس) مدونة باللغة اليونانية ادعى بأنه عثر عليها فى دير جريجوريوس الذى يقع فى جبل آثوس وبينما كان «تشيندروف» على وشك إصدار طبعة المخطوطة السينائية ، ظهر (سيمونيدس) ليدعى بأنه قد زور المخطوطة خلال مكوثه فى جبل آثوس ، عام ١٨٤٠ . وقد أقنع (سيمونيدس) راهبًا يونانيًا يدعى (كالينيكوس) بالشهادة لصالحه .

وكان (سيمونيدس) ماهرًا فى تزوير المخطوطات مما دفع العديد إلى تصديق ادعائه بكون المخطوطة السينائية مزورة . وجاء فى ادعاء (سيمونيدس) أن عمهُ (بندكت) كان قد اقترح عليه تزوير المخطوطة لتقديمها إلى قيصر روسيا . وأنه عندما أنجز المخطوطة لم ترقه الفكرة ، فبادر إلى إهدائها إلى رئيس أساقفة دير القديسة «كاثرينا» . وبهذه الطريقة وصلت المخطوطة إلى دير القديسة «كاثرينا» ووقعت بيد «تشيندروف» .

وأشار أحد خبراء القرن العشرين مختص فى المخطوطات المزورة ويدعى «أى . چى . قرار» قائلاً : «ليس هناك أدنى شك بأن الملابسات التى أحاطت بالمخطوطة وإدعاء (سيمونيدس) بتزويرها قد أثارت غضب العالم «تشيندروف» » .

وكان «تشيندروف» يدرك جيدًا أن (سيمونيدس) حاول الانتقام منه بشكل مضحك ، بعد أن فضحه «تشيندروف» عندما حاول «سيمونيدس» بيع نسخة مزورة من مخطوطة (راعى هرماس) إلى جامعة لايبزك .

وأعرب «تشيندروف» عن دهشته من موقف بعض الأشخاص ، وذلك فى الرسالة التى كتبها إلى العالم المختص بالسريانية القس (وليم كيرتون) قائلاً ، إنه فى الوقت الذى شكره

عديدون على الإنجاز الكبير الذى حققه التزم آخرون الصمت خجلاً من محاولة (سيمونيدس) خداعهم ..

وكتب «تشيندروف» إلى صديقة (ديفيد سون) متذمراً من خبث (سيمونيدس) قائلاً : «من المقالات العديدة التى كتبت حول تلاعب (سيمونيدس) وعدم نزاهته ، لم تقع عيناى على مقال حاول فيه كاتبه دحض ادعاء (سيمونيدس) بتزويره المخطوطة السينائية . »

وجاء فى الرسالة أيضًا : « يبدو أن أساتذة برلين كانوا معتدّين بآرائهم ولم يحاولوا معرفة السبب الذى دفع (بسيمونيدس) إلى التصرف بهذا الشكل تجاهى أو إدراك الكراهية التى كان يكنها لى عندما كشفت تزويراته وخداعه » .

إلا أن عدداً لا بأس به من العلماء كانوا يدركون فى الواقع هذه الحقيقة ، وبضمنهم سىء الحظ (تريجلر) الذى كتب معلقًا على الموضوع : «إن (سيمونيدس) كان متأكداً من أصالة المخطوطة السينائية كما هو متأكد من وجوده » .

ورغم موقف (تريجلر) المشرف من («تشيندروف») إلا أن تصريح (تريجلر) لم يشجع («تشيندروف») على معاملته معاملة حسنة .

وقد لاحظ العلماء فيما بعد تضمين «تشيندروف» فى طبعته المخطوطة السينائية معلومات اكتشفها (تريجلر) ولكنه تعمد عدم الإشارة إلى المصدر .

وقد أثرت الشكوك التى أثارها (سيمونيدس) حول المخطوطة على دراسات الكتاب المقدس واستغرقت وقتًا أطول لترك أثرها على العالم المسيحى .

ولم يكن هناك شىء يمكنه التقليل من وقع طبعة («تشيندروف») للمخطوطة على عالم اللاهوت .

وفى أعقاب عيد الفصح من عام ١٨٦٢ مباشرة ظهر اثنان وعشرون سفراً من العهد القديم وتسعة وعشرون سفراً من العهد الجديد فى ثلاثة أجزاء مع ملحق يضم رسائل **«برنابا وراعى هرماس»** .

وكان لون الحبر البنى اللون المستخدم فى الطباعة مطابقًا للحبر المستخدم فى المخطوطة الأصلية .

كما طبعت عشرون نسخة على الرقائق لإهدائها إلى الملوك .

وفى بداية أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٨٦٢ أبحر («تشيندروف») متجها نحو

بطرسبورج حاملاً معهُ واحداً وثلاثين صندوقًا تحتوى على ألف ومئتين واثنتين وثلاثين نسخة من طبعة المخطوطة . وبلغت زنة الشحنة ألفًا وثلثمائة باوند. وفى العاشر من نوفمبر (تشرين الثانى) سلم «تشيندروف» فى (تزاركو سيلو) النسخ الأولى من طبعته المخطوطة إلى قيصر روسيا .. أما المخطوطة الأصلية فقد تم عرضها فى المكتبة الملكية العامة .

وأهدى قيصر روسيا إلى المكتبات العامة فى العالم مئتين وثلاثًا وعشرين نسخة من المطبوع. ومن سخرية القدر أن تصل إحدى تلك النسخ إلى دير القديسة «كاثرينا» والمعروضة حاليًا فى مكتبة الدير بدلا من النسخة الأصلية. وقام «تشيندروف» ببيع بقية النسخ. وذاع صيت «تشيندروف» فى العالم. وكتب صهره : « لقد حقق «تشيندروف» نجاحًا واسعًا وحاز على أوسمة من جميع بلاطات أوروبا » . كما منحته جامعة أوكسفورد وجامعة كمبردج درجة شرف . وتسلم «تشيندروف» رسالة موقعة من البابا جاء فيها : «كنت أفضل اكتشاف المخطوطة السينائية بدلاً من جوهرة كوهى نور التى بحوزة ملكة إنجلترا » . أما ملك ساكسون فقد عينه مستشارًا خاصًا .

وكتب صهر «تشيندروف» يقول : « رغم السعادة التى عادت بها الأوسمة والألقاب والرتب على «تشيندروف» لكنها كانت ذات أهمية ثانوية بالنسبة له . فقد ركز جل اهتمامه . على إضافة شيىء جديد إلى علم اللاهوت » وهذا لا يعنى أنه لم يشعر بسعادة الأوسمة التى حصل عليها فقد كتب إلى زوجة صديقه الإسكتلندى (صاموئيل ديفيدسون) فى ظهر الصورة التى أرسلها إليها : « أرسل إليكما صورتى بملابسى الإعتيادية بما أنه لا تتوافر لدى الآن صورة بملابس المراسيم الخاصة والأوسمة الفخمة التى حصلت عليها وسأقوم بإرسال مثل تلك الصورة لكما حال توافرها . »

ويعث «تشيندروف» مع صورته بصورة أخرى لإبنته الكسندرا كتب خلفها أبعث مع صورتى بصورة لأصغر بناتى الكسندرا وهى الابنة الروحية للدوقة الروسية «الكسندرا قسطنطين» شقيقة قيصرة روسيا » .

قد يعتقد البعض بأن الوقت قد حان الآن لإعادة المخطوطة الأصلية إلى دير القديسة «كاثرينا» . وكان «تشيندروف» قد همش طبعة المخطوطة المهداة إلى قيصر روسيا عام ١٨٦٢ بالكلمات التالية : « إن هذا الأثر المقدس من أيام أول إمبراطور مسيحى له مكانة مثل مكانة الكنز المقدس فى سفح الجبل الذى شاهد فيه «موسى» وجه الله وتسلم منه الوصايا العشر » .

وقد تضمنت الوصايا العشر نصائح محددة مثل «سوف لن تسرق». أما طبعة «تشيندروف» للمخطوطة فقد تضمنت أموراً أخرى مثل إن الاحتفاظ بالمخطوطة فى بطرسبورج . قد يبعث الإرتياح فى نفوس بعض الأشخاص مثل «تشيندروف» والقيصر. ويبدو أن مثل هذا الترتيب لم يحظ بموافقة رهبان دير القديسة «كاثرينا»، فقد عثر البروفسور (سفيسنكو) على رسالة فى الدير تتضمن تذمر الرهبان من الإشاعات التى انتشرت فى القاهرة عام ١٨٥٩ والتى أشارت إلى عزم الرهبان إهداء المخطوطة إلى القيصر . وهناك احتمال بأن يكون «تشيندروف» نفسة وراء مثل تلك الإشاعات . ولم يظهر رئيس الأساقفة (سيريل) أية إشارة تدل على استعداده أو قدرته على إقناع الرهبان بإهداء المخطوطة إلى قيصر روسيا. وكان «تشيندروف» قد دعم (سيريل) خلال الترشيح ليتسلم مقعد رئيس الأساقفة ووجد «تشيندروف» نفسه فى حيرة . فقد أهدى قيصر روسيا المخطوطة التى كانت من ممتلكات دير القديسة «كاثرينا» فى ذلك الوقت وحصل على أموال ومكانة رفيعة وأوسمة . ويبدو أن «تشيندروف» قد أخفى ، وبكل حذر ، الترتيبات الأولية التى توصل إليها مع الرهبان لاصطحاب المخطوطة إلى روسيا . وعندما طلب «تشيندروف» من رئيس الأساقفة (سيريل) أن يحاول اقناع الرهبان بالموافقة على إهداء المخطوطة إلى قيصر روسيا ، التزم (سيريل) جانب الصمت . وانعكست هذه المشكلات فى البلاط الروسى . فقد اتخذت الترتيبات اللازمة للاحتفاظ بالمخطوطة فى وزارة الخارجية الروسية كإشارة إلى مجهولية ملكيتها ، وذلك بعد عرضها فى المكتبة الملكية العامة .

ولم تكن متاعب «تشيندروف» كبيرة عند مقارنتها بالمتاعب التى واجهت رئيس الأساقفة (سيريل) الذى تم انتخابه لذلك المنصب بأمل استعادة المخطوطة وإعادتها إلى دير القديسة «كاثرينا» .

واشتدت الخلافات داخل دير القديسة «كاثرينا» فى الحادى والعشرين من يناير (كانون الثانى) من عام ١٨٦٧ بسبب موافقة رئيس الأساقفة (سيريل) على إعادة المخطوطة إلى «تشيندروف» . انتهت بتنحية رئيس الأساقفة (سيريل) فى منصبة .

وأصر (سيريل) على أقواله حتى بعد تنحيته من منصبه مدعياً بأنه أعار المخطوطة إلى «تشيندروف» . أما («تشيندروف») فقد انتابه الذعر من الخلافات التى كانت تدور من رهبان دير القديسة «كاثرينا» . واستغل أعداؤه الفرصة فأطلقوا الإشاعات والشكوك حوله لدرجة اتهامة بسرقة المخطوطة .

وفى ذلك الوقت قام السفير الروسى لدى الباب العالى الأمير (إن . بى . أغناتيف)

بإجراء مفاوضات علنية مع رهبان دير القديسة «كاثرينا» مستخدمًا مصطلح الكتاب المقدس السينائى على المخطوطة وذلك فى مفاوضاته التحريرية والشفوية .

أما «تشيندروف» فقد هرع مرة أخرى إلى روسيا . ورغم تدهور صحته فقد أبدى استعداده للسفر إلى جبل سيناء للمرة الرابعة . ورفض السفير الروسى الأمير (أغناتيف) أن تكون له أية علاقة بالموضوع . ولم يكن لدى «تشيندروف» ، الذى كان وراء المشكلات ، التى أثرت حول المخطوطة ، نية السفر إلى جبل سيناء هذه المرة بتمويل من روسيا أو ممثلاً عنها .

وجاءت تنحية (سيريل) من منصبة لتعطى السفير الروسى الفرصة للتفاوض مع الرهبان ومحاولة إقناعهم بإهداء المخطوطة إلى القيصر. ووافق الروس على الاعتراف برئيس الأساقفة الجديد (كاليستراتوس) بشرط التعاون معهم فيما يخص اهداء المخطوطة . أما السفير الروسى الأمير (أغناتيف) فقد نصح الروس منح الرهبان مبلغًا من المال « لنكون على حق عندما نؤكد على شرائنا المخطوطة وليس سرقتها » .

وبعد مفاوضات موسعة وافق رئيس الأساقفة (كاليستراتوس) على إهداء المخطوطة إلى قيصر روسيا ، وأقنع رهبان دير القديسة «كاثرينا» بالتوقيع على إهداء المخطوطة الثمينة إلى قيصر وقيصرة روسيا . ومقابل تلك الهدية الثمينة تسلم الرهبان من الروس مبلغ تسعة آلاف روبل أي ما يعادل ألفًا وثلثمائة وخمسين » باونًا استرلينيًا فى ذلك الوقت مع بعض الأوسمة من قيصر روسيا ، وفى ذلك الوقت فقط بادر قيصر روسيا بتكريم («تشيندروف») على الهدية الثمينة التى قدمها له . وشعر («تشيندروف») بسعادة كبيرة للتقدير الذى خطى به ، رغم إدراكه بأن الأمير (أغناتيف) قد أبعدهُ عن المفاوضات التى دارت مع الرهبان حول إهداء المخطوطة .

وفى السابع والعشرين من مايو (آيار) من عام ١٨٦٩ كتب إلى صديقة (صاموئيل ديفيد سون) رسالة مطولة من لايبزك تضمنت مديحًا لشخصه جاء فيها : « سأحاول أن أسجل مذكراتى عن قريب وأشير فيها إلى حيازة الحكومة الروسية المخطوطة السينائية . ولقد استغل قيصر روسيا الفرصة لمنحى لقب نبيل روسى ، وكنت قد بدأت عام ١٨٦٨ بالإشراف شخصيًا فى بطرسبورج على موضوع إهداء المخطوطة. وفى مارس (آذار) عام ١٨٦٨ بدأت مراسيم التقديم الحقيقية للمخطوطة كهدية من رهبان دير القديسة «كاثرينا» إلى قيصر روسيا » .

ومما يثير الاستغراب اكتشاف أن التاريخ الذى حدده «تشيندروف» على أنه التاريخ

الحقيقى الذى تم إهداء المخطوطه فيه إلى قيصر روسيا هو عام ١٨٦٨ فى الوقت الذى ادعى فيه «تشيندروف» بأنه قدم المخطوطة إلى قيصر وقيصرة روسيا بتاريخ التاسع عشر من نوفمبر (تشرين الثانى) من عام ١٨٥٩ وكان «تشيندروف» سعيداً باللقب الذى منحة إياهُ قيصر روسيا. وقد وصفه «تشيندروف» : « إنه يشبه لقب فارس الذى يمنح عادة فى بريطانيا » . وكتب إلى صديقه (ديفيد سون) نص الكلمة التى تليت عند منحه اللقب والتى جاء فيها : « اعترافًا بخدماتك الاستثنائية للمعرفة الإنسانية بصورة عامة. واعترافا بالجهود الناجحة التى بذلتها فى مساعدة قيصر روسيا فى الحصول على أقدم مخطوطة للكتاب المقدس تقرر منحك لقب نبيل ». وحدد تاريخ منحه اللقب فى ٧ مايو (آيار) من عام ١٨٦٩ (الذى يقابل الخامس والعشرين من إبريل (نيسان) فى التقويم القديم) .

ونقلت المخطوطة من خزانات وزارة الخارجية الروسية لتعرض مرة أخرى فى المكتبة الإمبراطورية العامة .

وقد شعر «تشيندروف» بسعادة كبيرة عند إنجازة هذه المهمة . وقد نقل عن لسانه عالم اللاهوت الأمريكى (فيليب شاف) الذى كان يدرس تعاليم الكتاب المقدس فى كلية اللاهوت فى نيويورك عندما زاره فى أواخر أيام حياته قولهُ : « لم أستطع نسيان السعادة التى شعرت بها عند اكتشافى المخطوطة التى ستخلدنى » ووصف البروفسور (شاف) «تشيندروف» بأنه أسعد عالم لاهوت شاهده فى حياته . كما أشار إلى الاحترام الذى يكنه غالبية الناس إلى «تشيندروف» فقد كتب عنه يقول : « ليس هناك من عالم يضاهى بعزمه المستمر على البحث والتحقيق والنشر مثل العالم «تشيندروف» »

أما عن المخطوطة السينائية فقد أكد البروفسور (شاف) قائلا : «إن الرهبان كانوا يجهلون وجودها وأهميتها. وعندما عثر عليها العالم الألمانى «تشيندروف» أنقذها من دمار محتمل » .

ورغم الشهرة الواسعة التى حظى بها «تشيندروف» فقد لاحظ البروفسور (شاف) عندما زارة فى لايبزك والمرة الثانية فى (لودفيغ شافن) بأن «تشيندروف» كان متحمسًا لتبرير سلوكه فيما يخص المشكلات التى وقعت عند إهدائه المخطوطة إلى قيصر روسيا .

ويستعيد البروفسور (شاف) لقاءة مع «تشيندروف» ورواية «تشيندروف» حول المخطوطة : « قال «تشيندروف» أنه نصح قيصر روسيا بمنح الرهبان مبلغًا من المال وضريحًا ثمينًا لحفظ رفاة القديسة «كاثرينا» » .

ويبدو أن «تشيندروف» عرض على البروفسور (شاف) رسالتين من رئيس الأساقفة

(كاليستراتوس) مليئة بالمديح . جاء فى إحداهما «تم إهداء المخطوطة السينائية إلى القيصر كشهادة على ولاء الرهبان الأبدى » .

كما أعطى البروفسور (شاف) براهين على التأثير السلبى الذى تركه تصرف «تشيندروف» بين الرهبان أنفسهم . فقد لاحظ «تشيندروف» فى أعقاب زيارته إلى جبل سيناء عام ١٨٧٧ ، إمكانية التوصل إلى مكتشف أدبى آخر أقل أهمية من المخطوطة السينائية شرط أن يقوم بالبحث عالم لدية قابلية وقدرة على التحقيق والبحث بصبر .

وأضاف البروفسور (شاف) : «لقد كان من المفيد أن يقوم عالم لاهوتى بقضاء بضعة أسابيع فى دير القديسة «كاثرينا» للتنقيب عن مخطوطات أثرية مشابهة للمخطوطة السينائية إلا أن التجربة التى مر بها الرهبان مع «تشيندروف» جعلتهم شكاكين وحذرين» .

ولم يشعر رهبان دير القديسة «كاثرينا» بارتياح للموضوع وظلوا كذلك حتى يومنا هذا. وليس من المستغرب أن يكتب أحد خصوم «تشيندروف» وهو العالم الروسى (أوزبينسكى) عن عدم ارتياح رهبان دير القديسة «كاثرينا» إلى الفكرة ، وذلك عام ١٨٦٠ . أما الرحالة الألمانى المشهور (جورج ايرز) فقد لاحظ انزعاج رئيس الأساقفة (كاليستراتوس) من الموضوع ، وذلك عام ١٨٦٩ - وربما كان سبب انزعاج رئيس الأساقفة تسلمه مبلغًا من المال مقابل التنازل عن حقوق ملكية المخطوطة . واستمر العلماء يطرقون . أبواب الدير بحثًا عن أثر علمى آخر ففى عام ١٨٧٥ حاول البروفسور (بركلس جريجوريورس) الأستاذ فى كليه اللاهوت فى القدس البحث عن منفذ للوصول إلى مكتبة دير القديسة «كاثرينا» حيث كتب يقول : « إن سلوك «تشيندروف» فى الدير واستغلاله للرهبان جعلهم يشكون بالعلماء الغربيين بحيث رفضوا السماح لأى شخص البحث فى رفوفهم . لذلك شعرت بأننى حققت نجاحًا ساحقًا هذه السنة عندما أقنعت رئيس أساقفة دير القديسة «كاثرينا» بالسماح لى فى البحث عن مخطوطات أثرية»

وفى عام ١٩٠٦ زار دير القديسة «كاثرينا» البروفسور (سى . آر . جريجورى) من جامعة لايبزك وعاد خالى الوفاض .. ومع أن البروفسور (جريجورى) لم يخلف كرسى «تشيندروف» المهنى، إلا أنه دافع عن سلوكه باستمرار وذلك فى الطبعات اللاحقة للمخطوطة السينائية أما البروفسور (فيليب شاف) فقد ذكر إن الرهبان بدأوا ينكرون قيام قيصر روسيا بدفع مبالغ لهم مقابل تنازلهم عن المخطوطة .. وذكروا أنهم رفضوا قبول المبالغ وطالبوا باسترجاع المخطوطة التى تمت إعارتها إلى روسيا قبل أن تسرق منهم ولكن دون جدوى . ولا

يزال رهبان دير القديسة «كاثرينا» يحيطون الكنوز المخطوطة لديهم بسرية تامه حتى يومنا هذا ، بسبب سلوك «تشيندروف» عام ١٨٥٩ .

ولا تختفى شخصية «قسطنطين تشيندروف» من الرواية، إذ سنعود إليها مرة ثانية لنتحدث عن انفعاله وسرعة غضبة وصرامته وحدة ذكائه . ويبدو أن الخلافات التى وقعت فى ستينيات القرن التاسع عشر مثلت البداية لدفع الثمن .

وكما أنجز مشروعه الضخم عند إصدارة أول طبعة للمخطوطة السينائية فى وقت قصير فقد استمر فى التحقيق والنشر بدون تعب ولا ملل حتى عام ١٨٦٩. وكان «تشيندروف» فى ذلك الوقت يعانى قلق داخلى لإدراكه أن مفاوضاته مع رهبان جبل سيناء يمكن أن تؤدى إلى كارثة فى أية لحظة .

وفى الرابع عشر من مايو (آيار) من عام ١٨٦٤ أخبر صديقه (صاموئيل ديفيد سون) قائلاً : « شعرت خلال الأيام القليلة الماضية بألم فى جبينى منعنى من العمل » . وقد نصحة طبيبه البروفسور (ريديوس) الذى كانت تربطة «بتشيندروف» صداقة حميمة لمدة تزيد على ثلاثين عاماً ، بعدم القيام بأعمال جديدة خاصة بعد الجهد الذى بذله خلال الأعوام الماضية .

وفى عام ١٨٧٠ أصيب بمرض خطير أوقعه طريح الفراش ولم يسترجع صحته لفترة طويلة .

وفى الخامس عشر من مايو (آيار) من عام ١٨٧٣ ذكر صهره (لودفيج شنلر) : «أصيب تشندروف بجلطة أدت إلى شللة ولم يشف منها تماماً » . وبدأ «تشيندروف» بعد مرور دور النقاهة بالتمرن على الكلام والسير ومحاولة الكتابة بيده اليسرى . ولم يطرأ تحسن ملحوظ على صحته. وبعد مرور عام أصيب بعدة جلطات. وفى السابع من ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٨٧٤ توفى «تشيندروف» عن عمر ناهز ستين عاماً ودفن فى مقبرة القديس «جون» فى لايبزك .

وجاء فى وصيته : « لقد كان الهدف الذى وضعته نصب عينى هو التوصل إلى الحقيقة التى طالما انحنيت لها .. ولم أحاول أن أكون رأياً على أصوات التصفيق والمديح الذى أحاطنى لفترة طويلة من عمرى . وكان والدى قد أخبرنى مرة بضرورة الكفاح من أجل الوصول إلى الحقيقة التى اعتبرها أهم من المعرفة » .

أما بالنسبة إلى «تشيندروف» فقد بدا الكفاح من أجل الوصول إلى الحقيقة والمعرفة.

الدينية اللتين أصبحتا تمثلان كل شيء بالنسبة له حتى أكثر أهمية من موضوع الإحسان والأمور الأخرى التى تبدو صحيحة معنوياً .

ولخص «تشيندروف» إنجازة بالكلمات التالية : « إن العناية الإلهية قد منحتنا الكتاب المقدس السينائى ليكون بمثابة الضوء الذى يقود الإنسان إلى ما ستكون عليه الكلمات الحقيقية للرب فى هذا الزمن الذى تكثر فيه الهجمات على المسيحية . سيساعد هذا الكتاب فى الدفاع عن الحقيقة وذلك بتحقيقهِ النموذج الأصلى » .

جاءت أقوال «تشيندروف» موضوعية ، أما أن تمثل المخطوطة الحقيقة المطلقة ، فقد جاء الأمر مختلفاً عما تخيلهُ «تشيندروف» وبعيداً عن تطلعاته .

وفى تلك الفترة استمرت المخطوطة تتنقل من مكان إلى آخر. فبعد اندلاع الثورة الروسية عام ١٩١٧، سمح السوفيت ببيع العديد من المخطوطات الثمينة إلى الغرب، وذلك لمواجهة الوضع الاقتصادى المتدهور فى البلاد. وأدى تدفق المخطوطات إلى أوروبا إلى تعريض الكتب النادرة فى السوق الأوروبية للخطر .

وفى عام ١٩٣١ قام بائع الكتب النادرة (موريس ايتنج هاوزن) بزيارة إلى موسكو برفقة ثلاثة أشخاص فى محاولة لإقناع السلطات الروسية بعدم بيع ثلاث نسخ أو أربع من الطبعة الأولى لكتاب هومر فى آنٍ واحد ، مما قد يتسبب فى تخفيض سعرها . وقد عقد (ايتنج هاوزن) صداقة مع رئيس الدائرة المختصة بتبادل المطبوعات فى روسيا الهنجارى الجنسية الذى قام بدورة بتعريف (ايتنج هاوزن) على مساعد القوميسار المسئول عن التجارة الخارجية والذى كان ، فى الوقت نفسه ، مساعد جنرال فى الجيش الأحمر .

وما أن دخل (ايتنج هاوزن) المكتبة الإمبراطورية العامة حتى وقعت عيناه على صندوق مربع الشكل مصنوع من الجلد نُقش عليه الكلمات الآتية « المخطوطة السينائية » .

وقال (ايتنج هاوزن) مازحاً مخاطباً مساعد القوميسار أنهُ إذا كان بحاجة إلى مبلغ من المال فعليه تغليف مخطوطة سيناء بورق أسمر عادى وإرسالها بطرد إلى عنوانه فى لندن .

فأجابه مساعد القوميسار بأنه لم يسمع عن المخطوطة من قبل ولا يعرف عنها شيئاً .

وبعد مرور عامين أى فى عام ١٩٣٣ قام رئيس قسم تبادل المطبوعات الهنجارى بزيارة إلى لندن وسأل (ايتنج هاوزن) فيما إذا كانت مخطوطة سيناء تساوى مليون باون استرلينى . أجابه (أيتنج هاوزن) أنه لا يستطيع تقدير ثمنها ، ولكن إذا كان الروس على استعداد لبيعها فسيحاول إيجاد مشترٍ لهم فى الغرب . وبعد مرور عدة أسابيع قام الملحق الثقافى الروسى فى

باريس الرفيق (إيلين) بالاتصال (باتينج هاوزن) وأخبره بأن الحكومة الروسية على استعداد لبيع المخطوطة بـ (مئتى ألف باون استرلينى حينئذ قام (أيتنج هوزن) بالاتصال بالسير (فردريك كيفين) من المتحف البريطانى ، وبدأت أكبر عملية مساومة حول أثمن كتاب مقدس فى العالم . ونيابة عن المتحف البريطانى قام السير «فردريك» بالاتصال بالملحق الثقافى وعرض عليه مبلغ أربعين ألف باون استرلينى ثمنًا للمخطوطة مما اضطر الملحق الثقافى إلى تخفيض السعر إلى مائة ألف باون .

وقام السير (فردريك) بالاتصال برئيس الوزراء البريطانى (رامساى ماكدونالد) وأسقف كانتربرى بصفتهما عضوين فى مجلس أمناء المتحف ليبلغهما بالصفقة . ورفع السير (فردوريك) السعر إلى ستون ألف باون وأخيراً وافق على مبلغ المائة ألف باون الذى طلبه الملحق الثقافى الروسى الرفيق (إيلين) .

وفى ديسمبر (كانون الأول) من العام نفسه أي ١٩٣٣ أعلنت الحكومة البريطانية عن استعدادها لتحمل نصف ثمن المخطوطة على أن يتحمل الجمهور النصف الثانى . وتمت عملية البيع بسرعة. ووصلت المخطوطة لندن يوم السابع والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٩٣٣ بواسطة القطار . وحمل الوفد التجارى الروسى المخطوطة إلى (بوش هاوس) الذى يقع فى شارع ستراند . ومن هناك تم نقلها بواسطة سيارة أجرة إلى المتحف البريطانى فى (بلوم زبرى) وقد أشرف على عملية النقل كل من (موريس أيتنج هاوزن) ورجلى بوليس من محطة البوليس الواقعة فى شارع (فاين) تصاحبهما الآنسة (مارجريت لين) من صحيفة الديلى اكسبريس. وعند وصولهم المتحف شاهدوا جمهوراً كبيراً متجمعًا فى الساحة الكبيرة خارج بوابة المتحف . وما أن ترجل (أيتنج هاوزن) من سيارة الأجرة حاملاً معهُ المخطوطة السينائية حتى بادر الجمهور إلى رفع قبعاتهم احترامًا للكتاب المقدس . وما أن حملت المخطوطة إلى المتحف بعرضها فى إحدى الخزانات حتى هرع الجمهور لمشاهدتها.

وقد ورد وصف للجمهور المتلهف إلى إلقاء نظرة على المخطوطة السينائية فى إحدى أعداد المجلة الفصلية التى تصدر عن المتحف البريطانى لعام ١٩٣٤ : «لم يشهد المتحف البريطانى فى تاريخه هذا العدد من الزوار الذين وقفوا بصبر بانتظار دورهم لإلقاء نظرة على صفحات المخطوطة » .

وعندما جاء دور العلماء لإلقاء نظرة على صفحات المخطوطة تسلم كل منهم مطوية تتضمن معلومات عامة عن أمكنة حفظ المخطوطات :

أ – مخطوطة الفاتيكان محفوظة فى روما

ب – مخطوطة أفرام Ephvaew محفوظة فى باريس

جـ – مخطوطة بيزى Bezae محفوظة فى كمبردج

د – إلخ .

ولم يتحمل «تشيندروف» أن يكون تسلسل مخطوطته العظيمة الأخير ، وذلك بموجب تسلسل الأحرف الأبجدية . لذلك بادر إلى تبويبها مرة ثانية بموجب تسلسل الحروف العبرية ، فأعطاها حرف ألف Aleph . والآن أصبحت المخطوطة السينائية تحمل رقم تسلسل (٤٣٧٢٥) فى المتحف البريطانى. ولكن جميع العلماء يشيرون إليها باسم مخطوطة ألف Aleph .

والأمر الذى لا يمكن تصديقة أن الروس أرسلوا المخطوطة إلى المتحف البريطانى قبل تسلم ثمنها . ويبدو أن وزير الخزانة البريطانى أمر بدفع المبلغ كاملاً بعد مرور أسبوعين على تسلم المخطوطة . وكان الجمهور قد تبرع بمبلغ ٥٣ ألف باون استرلينى ودفعت الحكومة البريطانية بقية المبلغ .

وبعد مرور ثلاثين عامًا كتب (أيتنج هاوزن) : « لقد رحبت دول عديدة بنقل المخطوطة من روسيا إلى انجلترا » . ومثل هذا التصريح خال من الصحة . فالولايات المتحدة على سبيل المثال كانت على استعداد لشراء المخطوطة بسعر أعلى إلا أن بريطانيا نجحت فى ركلها فى المؤخرة . كما شعر العديد من الألمان بخيبة أمل لعدم احتفاظهم بالمخطوطة لتضاف إلى مجدهم القومى بوصفها قد اكتشفت من قبل أحد أعظم علمائها . وانزعج رهبان دير القديسة «كاثرينا» بدورهم من الترتيبات التى تمت بين روسيا وإنجلترا .

ويبدو من الصعب البت فى الموضوع وفيما إذا كان بيع المخطوطة أمرًا مشروعًا أم لا :

وقد كتب (كاسبار رينية جريجورى) معلقًا على الموضوع قائلاً : « لقد تم ترتيب بيع المخطوطة على شكل صفقة تجارية بحتة » .

وهناك شك فى أن يكون جميع رهبان دير القديسة «كاثرينا» قد وافقوا على بيع المخطوطة إلى القيصر . ولكن الشىء المؤكد أن رهبان دير القديسة «كاثرينا» استلموا مبلغ سبعة آلاف روبل كما استلم زملاؤهم رهبان الدير الملحق بديرهم فى القاهرة مبلغ ألفين روبل. وقد قبل الرهبان المبلغ وحرروا وصولات مؤرخة فى ١٩٠٧ تثبت عائدية المخطوطة للحكومة الروسية .

وشعر العديد من خصوم «تشيندروف» بالحسد من الصفقة التى أتمها «تشيندروف» بخصوص المخطوطة وسخر (جريجورى) من حساد «تشيندروف» الذين ادعوا بأنه اختفى فى الدير بعد سرقته المخطوطة عام ١٨٥٩ قائلاً : «حاول أن تخفى فى جيب سترتك ثلثمائه وستًا وأربعين صفحة من صفحات الرقائق التى يبلغ طوال كل منها ثلاثة وأربعين سم وعرضها سبعة وثلاثين سم » .

ومضى فى دحضه افتراءات الحساد قائلاً : « لم يسرق «تشيندروف» المخطوطة يوم الثامن والعشرين من سبتمبر (أيلول) من عام ١٨٥٩ من الرهبان فى القاهرة ليخفيها فى جيب سترته العملاق . لأنها سلمت له بهيئتها الجيدة من قبل رئيس الدير وبحضور الرهبان الآخرين الذين كانوا فى القاهرة والقنصل الروسى الذى حرر محضرًا رسميًا للإجراءات . وقد سلم الرهبان المخطوطة إلى «تشيندروف» لحملها إلى لايبزك . لتحقيقها وطبعها ومن ثم تقديمها إلى إمبراطور روسيا باسم الرهبان » .

ولقد حاول (جريجورى) أن يصور الرهبان فرحين بالأوسمة التى أنعم بها القيصر عليهم فكتب يقول : «إن لتلك الأوسمة قيمة فى الشرق أعلى من الثمن الذى تدفعه الدوائر المختصة بجمع الأوسمة فى أوروبا الغربية . وقد تسلم الرهبان عددًا من تلك الأوسمة» . وكتب (جريجورى) عن الرهبان : « يعتقد الراهب الشرقى بأنه يقوم بجهد كبير إذا ما أنجز خلال أربع وعشرين ساعة عملاً ينجزه الفرد الأوربى خلال عشرين دقيقة » . وحاول (جريجورى) بوصفة الراهب الشرقى بهذا الشكل ، التقليل من شأن الرهبان الشرقيين ويبدو أنه زار جبل سيناء وعاد خالى الوفاض حيث لم يسمح له الرهبان بسلبهم الكنوز النفيسة الأخرى التى كانت بحوزتهم .

وادعى (جريجورى) أنه إذا كان هناك أى تأخير فى إيصال المخطوطة إلى القيصر فإنه بدون شك غلطة رهبان دير القديسة «كاثرينا» .

وكان الآخرون أقل حقدًا من (جريجورى) فى إطلاقهم الحكم على الرهبان ومما إذا كان نقل المخطوطة من دير القديسة «كاثرينا» إلى بطرسبورج أمرًا صحيحًا أم خطأ .

ولم تتضمن الروايات التى دارت حول موضوع انتقال المخطوطة من جبل سيناء إلى بطرسبورج ومن ثم إلى لندن الحقيقة كاملة .

وجاء فى رواية (أيتنج هاوزن) أنه سمح إلى «تشيندروف» بحمل المخطوطة إلى روسيا وتقديمها شخصيًا إلى القيصر ، وذلك بتاريخ التاسع عشر من نوفمبر (تشرين الثانى)

من عام ١٨٥٩ ، مقابل الدعم الذى حظى به رئيس أساقفة الدير عند انتخابه ، ومبلغ التسعة آلاف روبل والأوسمة التى منحها قيصر روسيا للرهبان .

ومازالت حتى يومنا هذا العبارة منقوشة على الصندوق الذى يضم المخطوطة السينائية ، والمحفوظ فى خزانات المكتبة البريطانية. وقد جاء فيها : «اكتشفت المخطوطة عام ١٨٥٩ من قبل عالم اللاهوت الألمانى «قسطنطين تشيندروف»، وذلك فى دير القديسة «كاثرينا» الذى يقع فى جبل سيناء وقد تم إهداء المخطوطة إلى قيصر روسيا من قبل رهبان الدير »

ويتعامل البريطانيون مع المخطوطة اليوم بكل محبة وعناية وبخاصة العالمان (أج . چى. أم . ميلنى) و (تى . سى. سكيت) اللذان يعملان فى قسم المخطوطات فى المتحف البريطانى. فقد قام العالمان فى فحص المخطوطة ودراستها بدون كلل وبرهنا ، كما سنلاحظ لاحقًا ، على أن «تشيندروف» كان على صواب فيما يخص المقطع الأخير من إنجيل «يوحنا» وعلى خطأ حين افترض أن أربعة خطاطين سطروا المخطوطة .

وقد أعيد تجليد المخطوطة . فأنيطت المهمة (بدوجلاس كوكريل) الذى تمكن من إنجازها بمهارة وذوق رفيع . فقد تمكن فى الحصول على عدد كبير من ألواح شجرة البلوط وتركها لفترة ثلاثة أشهر حتى تأكد من جفافها وعدم وجود التواءات فيها واختار منها الألواح الصالحة لتجليد المخطوطة الثمينة، واستخدم جلد الماعز لتغليف الألواح. وقد تم تجليد المخطوطة بجزأين ونقش فى بدايتها ونهايتها أحرفًا ذهبية زوقت بنقوش بسيطة والمخطوطة معروضة اليوم بهذا الشكل .

الفصل الخامس

أهمية المخطوطة

لم يشك أحد بكفاءة «تشيندروف» وإلمامه بالعلوم الكتابية رغم الصراحة التى اتصف بها. وقد علق صهره على ذلك يقول : « لقد حاول علماء آخرون مثل (بنجل) و(واتسن) و(بنتلى) و (لاكمن) وآخرين غيرهم البحث عن مخطوطات نفيسة ولكنهم فشلوا فى سعيهم لافتقارهم للوسائل الكافية لتحقيق ذلك الهدف فى الوقت الذى تمكن «تشيندروف» فى إنجاز عمله بشكل كامل. وأننى لأتفق مع مقدمة أول ترجمة إنجليزية للموضوع الذى كتبه «تشيندروف» تحت عنوان «متى دُونت أناجيلنا ؟». وكناقد متمرس استطاع «تشيندروف» حل رموز المخطوطات القديمة مقدمًا بذلك خدمات جليلة للأدب اللاهوتى . ويكفى اكتشافه للمخطوطة السينائية ليتبوأ المكانة التى تليق به ولم يكتف «تشيندروف» بتقديم المخطوطة إلى عالم من علماء اللاهوت ولكنه بدأ عازمًا على إبراز أهميتها. واعتقد «تشيندروف» بأنهُ قد عثر أخيرًا على برهان يثبت النص المسند للكتاب المقدس والعهد الجديد. كما أعتقد «تشيندروف» بأن أسفار الكتاب المقدس والعهد الجديد قد دونها الكتبة والرسل أنفسهم . وكان «تشيندروف» يدرك جيداً أن استنساخها عدة مرات خلال خمسة عشر قرنًا « قد أدى إلى حدوث تغيرات فى العديد من المقاطع الأمر الذى يتركنا فى شك حول ماذا قد كتب الرُسل» . ؟

والآن وبعد إكتشاف نص المخطوطة السينائية أصبح الحل فى متناول اليد . لذا فقد نشر فى عام ١٨٦٢ جزءًا رابعًا للنص إضافة للأجزاء الثلاثة تضمن تعليقات «تشيندروف» وتفسيراته لجميع الأجزاء إن نظرة «تشيندروف» الثاقبة فى لغة الأسفار الأولى مكنته من التعرف على أربعة كُتاب ناسخين للنص المسند رغم التشابه الكبير فى خطهم .

إلا أننا نعتقد اليوم بأن ثلاثة نساخ قد نقلوا النص المسند (الأصلى) للمخطوطة بقلم مدبب الرأس لتكون خطوطهم مستقيمة . وقد سطروا الكتاب المقدس إملائيًا . وقد وقع إثنان منهم فى أخطاء فى التنقيط ، أما الخطاط الثالث فلم يخطىء فى التنقيط ويبدو أن الخطاط الثالث قد كتب قسمًا كبيرًا من العهد الجديد وقد اتفق العديد من الأكاديميين على أن هذا النص قد استنسخ عن النص المسند ، وهذا يعنى بأنه لم يتم إملاؤه عليه وبما أن الخطاط نفسه هو الذى كتب تاريخ وأشعار العهد القديم دون الوقوع فى أخطاء إملائيه فعليه يتعذر إثبات النظرية .

أما الخطاط الثانى الذى كان إملاؤه هو الآخر جيداً فقد كتب التنبؤات فى العهد القديم كما كتب فى «راعى هرماس» فى المخطوطة السينائية. أما الخطاط الثالث الذى كان إملاؤه

رديئًا فقد كتب «طوبيا» و«يهوديت» ونصف الجزء الرابع من «المكابين» وثلثى «المزامير» وست صفحات من العهد الجديد . (بضمها الآيات الخمسة الأولى من سفر الرؤية) .

كما أن المصححين أنفسهم يقعون بعض الأحيان فى أخطاء. فمثلا يجب أن يقرأ النص فى الآية العشرين فى الفصل الخامس من الكتاب الأول للمكابين على الشكل الآتى : «إن يهوذا الكابى اصطحب معهُ ثمانية آلاف شخص إلى أرض جلعاد» . غير أن المصحح الذى لم يكن متأكدًا من قراءة المترجم كتب « اصطحب يهوذا المكابى معه إما ستة آلاف أو ثلاثة آلاف شخص » .

وتفتقر المخطوطة السينائية إلى فقرات عديدة فى العهد القديم . ويبدو أنها كانت تحتوى على سبعمائة وتسعين صفحة فى الأصل. وقد تضمنت المئتان والإثنتان والأربعين صفحة التى اكتشفها «تشيندروف» أجزاء فى العهد القديم . فى الوقت الذى احتوت فيه مئة وسبعًا وأربعين صفحة ونصف الصفحة على فقرات من العهد الجديد ورسائل برنابا وجزء من راعى هرماس حيث تُعتبر المخطوطة الوحيدة التى تحتوى على النص الكامل للعهد الجديد اليونانى مكتوبة بأحرف متباعده .

ثانيًا ، إن المخطوطة السينائية ومخطوطة الفاتيكان تمثلان إحدى النسخ الأولى للكتاب المقدس اليونانى وأعنى بذلك العهد الجديد فى نصة اليونانى وترجمة العهد القديم باللغة اليونانية التى تعود للقرن الثالث قبل الميلاد . والتى كان الحاخامات اليهود قد شجبوها أخيرًا بعدما وصفوها بأنها نسخة غير مُسندة. وكان «تشيندروف» قد أعلن أنه : «لاتوجد مخطوطة أصلية تضاهى هذه المخطوطة فى قدمها وصحة ماورد فيها ». وأن الهيئة القديمة تشكل الأحرف وانعدام التنقيط والعناوين القصيرة للكتب المختلفة تمثل بحد ذاتها الأسباب التى حدت بالعلماء وبضمنهم «تشيندروف» إلى استنتاج أن المخطوطة لم تكن مكتوبة قبل منتصف القرن الرابع الميلادى بوقت طويل . فقد أضاف أحد الخطاطين ، وهو ذو خط بدا حديثًا بالمقارنة مع خط الخطاطين الذين كتبوا المخطوطة ، فى حاشيات الأناجيل الأربعة ، سلسلة أرقام رتبت لمعرفة الفقرات المتشابهة التى وردت فى الأناجيل والتى دارت حول حياة المسيح، وقد اقتبس عالم اللاهوت «أوسابيوس القيصرى» تلك الأرقام للإشارة إلى سلسلة القوانين الكنسية المدرجة فى فقرات الأناجيل المشابهة . وبما أن «أوسابيوس» توفى عام ٣٤٠ ميلادية ولأن قوانين الكنيسة قد أدرجت فى المخطوطة السينائية ، فليس هناك مجال للافتراض بأن تكون المخطوطة قد سبقته. وتشير جميع هذه الاعتبارات إلى تاريخ سابق

لمخطوطة الكتاب المقدس « العظيمة هذه – التي قد يقود تارخها إلى حوالي ٣٤٠ للميلاد. ومن ناحية أخرى لم يستطيع أحد إثبات المكان الذى دونت فيه المخطوطة ببراهين قاطعة فلا يمكن أن تكون قد دونت فى دير القديسة «كاثرينا» بما أن الدير لم يكن مشيداً فى الفترة التى دونت فيها المخطوطة . إلا أن هناك مقترحاً جديراً بالاهتمام والدراسة هو أن المكان الذى دونت فيه المخطوطة هو الحزر نفسها. ويدعم الخطآن الموجودان فى المخطوطة هذا الافتراض. ففى الآية (٥) من الفصل الثامن تخبرنا مخطوطات الكتب المقدسة الأخرى بأن «فيليبس» توجه إلى السامرة أما خطاط المخطوطة السينائية فقد كتب يقول بأن توجه إلى الخزر ومرة أخرى ورد فى الآية (٥٤) من الإصحاح (١٣) من إنجيل «متى» فى المخطوطات الأخرى أن المسيح توجه إلى مسقط رأسه . أما خطاط المخطوطة السينائية فكتب يقول بأنهُ توجه إلى مدينة «انتيباتريس» Antipatris التى تقع على بعد ثلاثين ميلاً جنوبى الخزر .

وليس هناك برهان أكيد يثبت المكان الذى دونت فيه المخطوطة السينائية . إلا أن هناك افتراضاً يقول أنه عندما قرر «قسطنطين الكبير». إمكانية قبول الديانة المسيحية لتكون ضمن الديانات المسموح التبشير بها فى إمبراطوريته حظى بدعم عظيم لسلطته . والديانة المسيحية، شأنها شأن اليهودية، (دين الكتاب) ويعنى ذلك أنها تعتمد على مخطوطات مقدسة. وكما لاحظنا سابقًا فقد أمر «قسطنطين» عام ٣٣١ «أدسابيوس» القيصرى بكتابة خمسين مخطوطة من الكتاب المقدس دونت بشكل مقروء على صفحات البردى، من قبل خطاطين ممارسين .

وقد استجاب «أدسابيوس» بحذر، وكان يدير داراً للخطاطين فى القسطنطينية لتوجيه الإمبراطور الذى دعا لنشر المخطوطات والحفاظ عليها . وهناك رأى يقول إن المخطوطة السينائية ومخطوطة الفاتيكان دونتا من قبل «أدسابيوس» نفسه بناء على أمر من الإمبراطور . ويعتقد «تشيندروف» بأن أحد الخطاطين الذين سطروا المخطوطة السينائية قد سطر أيضاً المخطوطة الفاتيكانية أيضاً للتشابة الكبير فى الخط. الموجود فى المخطوطتين ومرة أخرى تعذر تقديم دليل ليثبت هذه الفرضية . والشىء الوحيد الذى يمكننا قوله هنا هو إن المخطوطة السينائية جزء من غزو المسيحية السلمى للإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى ، وتمثل انتصار شكل المخطوطة المسطرة على صفحات البردى والتى تضمنت جزءاً أو جزأين من الكتاب المقدس. وقد أعطت المخطوطة دفعاً كبيراً إلى أولئك الذين يرغبون بإيجاد علاقة بين العهدين القديم والجديد سواء أكانت علاقة حقيقية أم خيالية، لاسيما

بالنسبة لأولئك المسيحيين الذين رغبوا فى العثور على نبوءات حول حياة المسيح وموته وقيامته فى العهد القديم .

وليس من الغريب أن يكرس أناس آخرون من أمثال «تشيندروف» حياتهم لتنقيح نص الكتاب المقدس بعد تحقيق المخطوطة السينائية . ويبدو أن المخطوطة كانت قد وقعت بأيدى مصححين عديدين فى أوقات لاحقة . فقد لاحظ «تشيندروف» عند قراءته المخطوطة أربعة عشر ألف وثمنمائه (١٤٫٨٠٠) تصحيح قام بها تسعة مصححين .

وقد استخدم المصححون رموزًا تقليدية للإشارة إلى الفقرات التى اعتقدوا بها على أنها نصوص مسندة على سبيل المثال : يعنى وجود صف من النقاط إلى جانب الجمل إيمان المصحح بضرورة حذف تلك الجمل لعدم ورودها فى النص المسند من الكتاب المقدس ..

ونستطيع بعض الأحيان النجاح فى الكشف عن مصدر المعلومات التى يضيفها المصحح . فقد كتب الخطاط فى الجزء الذى تركه «تشيندروف» فى لايبزك من المخطوطة السينائية، كتب فى نهاية كتاب «أستير» الكلمات الآتية و «عند المقارنة مع النسخة القديمة التى صححت من قبل الشهيد المقدس «بامفيلوس» وفى نهاية الكتاب القديم نفسه الذى يبدأ بالكتاب الأول «للملوك» وينتهى «بأستير» تُلاحظ هناك بعض العناوين الصغيرة التى سطرت بيد الشهيد نفسه» استنسخت وصححت فى الهكسبالا للنص الأصلى. وقد صححت من قبله.

وقد قام «انطونينوس» المعترف بمقارنتها : إنى «بامجيلوس» قد صححت النص فى السجن بمساعدة الله وفضلة . وإذا ما أردت القول بدون أى استفزاز فليس من السهل إيجاد نسخة مشابهة لهذه النسخة . وتختلف النسخة القديمة هذه عن الجزء الحالى فيما يخص بعض الأسماء . وقد قضى عالم اللاهوت عشرين عامًا لجمع مخطوطة الهكسبالا . فقد جمع مادة من النص اليونانى للعهد القديم فى ست أعمدة . احتوى أحد الأعمدة على النص العبرى مكتوبًا بأحرف يونانية . واحتوى عمود آخر على نص اعتبره أوريجنى نفسه بأنه النص المثالى. وأصبح هذا المجلد يمثل أثمن كنز فى خزانة الكتب المسيحية فى الخزر .

وكان «أورنجى» قد انهى مخطوطة الهكسبالا عام ٢٤٥ ميلادية قبل أن يقوم «انطونينوس» المعترف بدراستها وتحقيقها. وعكف «بامفيلوس» (معلم أوسابيوس) على تصحيح أعمال «أنطونينوس» وذلك خلال سنوات سجنه فى فترة الاضطهاد. وأخيرًا استخدم خطاط غير معروف عمل «بامفيلوس» ليضيف تصحيحات إلى المخطوطة السينائية.

واليوم، أصبحت طبعة «تشيندروف» للمخطوطة السينائية متوفرة فى العالم المسيحى. وكان «تشيندروف» قد أنجز طبعته قبل وفاته بفترة قصيرة فى مجلدين لنص العهد الجديد.

وظلت طبعة «تشيندروف» هذه تمثل مرجعًا مهمًا لعلماء النص اليونانى حتى يومنا هذا . ولا يمكنهم الاستغناء عنها لاحتوائها على معلومات مسهبة ومهمة معززة بالبراهين المؤيدة والمخالفة للقراءات العديدة للمخطوطات المتوفرة .

ولقد كانت رؤى «تشيندروف» ذكية ، بحيث يعسر أن يتقبلها الناس وقد دارت إحدى فرضياته حول البراهين التى قدمها لإثبات صحة المخطوطة السينائية التى كان العديد من العلماء المعاصرين له قد رفضوها وفندوها فيما بعد بأساليب علمية. وقد أظهرت تلك الفرضيات عبقرية «تشيندروف» المدهشة .

ومثال على بعد نظر «تشيندروف» إنه قرر أن الآية الأخيرة من إنجيل القديس «يوحنا» (الآية (٢٥) من الإصحاح (٢١) هو إضافة لاحقة إلى النص الأصلى للمخطوطة السينائية .

حيث تقرأ الآية : « كانت هناك أشياء عديدة أخرى قام بها المسيح ولو سطرت جميعها فإن العالم نفسه لن يتسع لجميع الأسفار التى كانت ستُسطر كما اعتقد». وادعى «تشيندروف» أن هذه الآية قد كتبت بدقة أكثر من بقية المقاطع. وأكد أن شكل الأحرف مختلف بعض الشىء. مضيفًا أن الحبر المستخدم كان لونه أفتح فى هذه الآية من الحبر المستخدم فى كتابة بقية الآيات. وكان الخطاطون يملأون أقلامهم بالحبر بعد الإنتهاء من كتابة سطر ونصف السطر بشكل عام. ولكن «تشيندروف» قال أنه لم يشاهد لون الحبر ذلك فى مكان آخر فى المخطوطة. وفى ذلك الوقت اختلف معهُ معظم العلماء فى الرأى الذى أبداه حول تلك الآية .

ولكن ، بعد وفاته ، برهن عالم القرن العشرين على صحة أقوال «تشيندروف» وآرائه. فعند فحص المخطوطة السينائية تحت الأشعة فوق البنفسجية اكتشف بأن إنجيل «يوحنا» ينتهى فى النص الأصلى فى الآية (٢٤) من الإصحاح (٢١). وقد أضاف الخطاط بعد تلك الآية نهاية صغيرة وكلمات (الإنجيل حسب يوحنا). وبعد ذلك قام خطاط آخر بمسح النهاية وتلك الكلمات (الإنجيل حسب يوحنا) وكتب فوقها الآية الحالية (٢٥) .

وأظهر «تشيندروف» مهارة فائقة فى بيان آرائه فى الوقت الذى ظلت فيه المخطوطة السينائية فى روسيا وبشكل دائم كما يبدو .

وتمتع العلماء الأوربيون لفترة عشر سنوات بامتياز تقييم أهمية المخطوطة. ورفض «تشيندروف» تدخلهم. وقد أعرب مرة بمرارة عن أسفه بالسماح «لتريجيلر» لمشاهدة المخطوطة عندما كان يحتفظ بها فى داره فى لايبزك . وخاصة عندما أعلن «تريجيلر» عن اختلافه فى الرأى مع «تشيندروف». فقد ادعى «تريجيلر» على سبيل المثال : تشابه الخط فى المخطوطة المسندة وعليه فإن خطاطًا واحدًا قد سطر المخطوطة . فى الوقت الذى لاحظ فيه «تشيندروف» أربعة نماذج مختلفة من الخط فى المخطوطة .

كما رفض «تريجيلر» القبول بالرأى الدائر حول الآية (٢٥) من الإصحاح (٢١) من إنجيل «يوحنا» والقائل بأنهُ لم يكن فى الأصل جزءًا من المخطوطة السينائية. وفسّر الاختلاف الموجود فى خط تلك الآية مع الآية التى سبقتها بنفاد الحبر فى قلم الخطاط قبل ملئه مرة ثانية بالحبر.

وفى ذلك الحين أصبح «تريجلير» نفسه عالمًا مشهودًا معتمدًا على نفسه وعلى جهده الخاص فى تلقى العلم. ولد «تريجلير» من عائلة تنتمى إلى جماعة الكويكر Quaker فى مدينة «فالموت» عام ١٨١٣ . وانتمى إلى سلك الكهنوت ، وأصبح يطلق عليه الأخ الدينى بليموث ثم انتمى إلى طائفة البرسيتريان ، وحرم من الانتماء إلى الجامعة شأنه شأن جميع الأشخاص من الطوائف الأخرى غير الانكليكانية فى ذلك الوقت. اشتغل لفترة ست سنوات فى (نيث آبى) لأعمال الحديد فى ويلز . وعندما بلغ الخامسة والعشرين من العمر قرر تكريس حياته لدراسة نص الكتاب المقدس . قضى خمسة أشهر فى روما عام ١٨٤٤ فى دراسة مخطوطة الفاتيكان. وفى ذلك الوقت لم تسمح له سلطات الفاتيكان كعادتها نقل كلمة واحدة من المخطوطة مما اضطر «تريجلير» إلى تدوين الملاحظات أحيانًا على أظافر يديه. وسرعان ما أصبح عالمًا مشهورًا فبادرت جامعة (سانت اندرو) إلى منحة درجة دكتوراه فخرية فى القانون. كما منحته الحكومة البريطانية عام ١٨٦٢ راتبًا تقاعديًا بلغ مئة باون استرلينى وضاعفت المبلغ عام ١٨٧٠ . وتوفى «تريجلير» عام ١٨٧٥ .

اتصف موقف «تشيندروف» من آراء «تريجلير» حول المخطوطة السينائية بالغيرة والحقد . وهاجم استنتاجات العالم البريطانى «تريجلير» فى العديد من المقالات. وقد كشفت الرسائل التى بعث بها «تشيندروف» إلى صديقه (صاموئيل ديفيد سون) طبيعة الخلاف الذى كان قائمًا بين رجلىّ الدين «تشيندروف» و«تريجلير» .

وفى مجال خلافاتهما كتب «تشيندروف» مرة قائلاً : «من المحال أن أكون على خطأ».

ويبدو أن «تشيندروف»، أصبح يعد المخطوطة السينائية من ملكيته الخاصة بعد أن كشف عن أهميتها للعلماء. ويبدو أنه كان مضطراً للكتابة إلى «تريجلير» حول المخطوطة فقد كتب إلى صديقة (ديفيد سون) قائلاً : «من حسن حظى أنى لم أفصح بشىء عن مضمونها». وقد انزعج «تشيندروف» عندما خالفه «تريجلير» فى الرأى حول المخطوطة، بعد أن سمح له بفحصها. وقال عنه : « لقد كان «تريجلير» ساذجًا وحسوداً يكفى أنهُ عدّ الآية الأخيرة من إنجيل «يوحنا» جزءًا موثقًا من المخطوطة السينائية رغم إعلانى بأنها ليست جزءًا منها فلقد استغرق منى وقتًا طويلاً أن أدرك أن الجملة الختامية كانت مكتوبة بخط شخص آخر ولكن بعد أن اقنع نفسه بالوضع الصحيح للأمور وأظهرها بوضوح لجميع الناس لمشاهدتها فإنهُ لمن المضحك بالنسبة «لتريجلير» محاولة التأثير على الناس بوجهة نظر أخرى. ولو حاول «تريجلير» الإستمرار فى الموضوع أكثر لكانت ستلحق . به الكارثة التى يستحقها » .

وأضاف «تشيندروف» متذمراً : «وعلى أية حال لقد أمضى «تريجلير» أكثر من أربعة أيام أو خمسة ضيفًا فى بيتى وقضى معظم الوقت فى مقارنة الرسائل الإنجيلية الكاثوليكية (وهى رسالتا العهد الجديد المنسوبة إلى القديس «بطرس» والرسائل الثلاث والمنسوبه إلى «يوحنا» ورسالة القديس يهوذا». ولم يؤمن «تشيندروف» بأهلية «تريجلير» للبت بالنص المسند حتى بالنسبة للأجزاء ذات العلاقة بالمخطوطة التى فحصها. وعندما نشر «تريجلير» طبعة كتابه عن الرسائل الكاثوليكية كتب «تشيندروف» إلى صديقة (صاموئيل ديفيد سون) قائلاً : « كنت سترى بوضوح مدى الأذى الذى ألحقهُ «تريجلير» بنفسه حول آرائه بشأن الرسائل الكاثوليكية فكل تصحيح أجراه يعد إثمًا من جانبه بسبب إسراعه فى التصحيح.

وربما كان «تشيندروف» يحمل عداء «لتريجلير» لشعوره فى أعماق نفسه بأن الدرجة العلمية التى حققها منافسه «تريجلير» أصبحت تضاهى. درجته العلمية .

وأشار إلى ذلك البروفسور (أوين جادريك) فى كتابة عن تاريخ الكنائس فى العصر الفكتورى : » قائلا : يعلق العلماء الأوربيون أهمية على أعمال «تريجلير» بقدر الأهمية التى كانوا يعلقونها على اكتشافات «تشيندروف» . » وفى ناحية أخرى كان أى شخص يعكف على دراسة إنجازات «تشيندروف» فى العهد القديم أو العهد الجديد يعرض نفسه للوقوع تحت طائلة السياط الألمانية .

وعندما نشر العالم (ليجارد) طبعة كتابه (النشوء) وصفه «تشيندروف» : «إنه شخص وقح وغير متزن عندما سمح لنفسه التحدث بوقاحة ضدى، سأعاقبه حتى يتخلى عن آرائه».

أما الموضوع الذى كان يتخاصم حوله رجال الدين أولئك ، فكان يدور حول المحاولة لصياغة كلمات الرب كما وجهها إلى رجال العهد القديم ونسائه فهل تحدث معهم مباشرة أو بواسطة السيد المسيح أو عن طريق رُسل السيد المسيح تحت ظل الروح القدس .

وعندما نقل «تشيندروف» المخطوطة السينائية من دير القديسة «كاثرينا»، اعتقد بأنه أزاح الغموض الذى أحاط بتلك المخطوطة القرون عديدة وكشف عن كلمات الرب .

وليس من المستغرب أن يعد عطاؤه للمسيحية أثرًا عظيمًا لا يمكن مقارنته بشىء . وقد كتب «تشيندروف» عن «تريجلير» قائلاً : «إن الشىء الذى أوقف منافسى عالم بليموث عن مقارنة نفسه بى هو الإضافة العظيمة للمعرفة التى منحها الرب للمعرفة المسيحية عن طريقى».

لم يكتف «تشيندروف» بإنجازه عندما قدم المخطوطة السينائية إلى العالم المسيحى . فأراد الكشف عن أسرار مخطوطة الفاتيكان أيضًا .

ويبدو أن «تشيندروف» كان عازمًا على إنجاز عمله الثانى رغم علمه باحتمال مواجهة عقبات هذه المرة .

وفى عام ١٨٦٦ زار «تشيندروف» روما فى محاولة لإصدار طبعة لنص مخطوطة الفاتيكان. وفى تلك الفترة كان البابا «جريجور يوس» السادس عشر يحتل كرسى البابوية. وقد أحبط الكاردينال «ماى» آمال «تشيندروف» عندما حاول دراسة المخطوطة الفاتيكانية بدقة. وفى محاولته الثانية وضع البابا «بيوس» التاسع عراقيل فى طريق (تشيندروف). مؤكداً بأنه لم تكن هناك حاجة ليقوم «تشيندروف» بدراسة مخطوطة الفاتيكان، بما أن علماء من طائفة الكاثوليك كانوا منكبّين على دراسة المخطوطة لإصدار طبعة موثّقة للمخطوطة .

ولكن جميع هذه العراقيل لم تثبط من عزم «تشيندروف» فقد استطاع الحصول على موافقه من السلطات البابوية لدراسة أجزاء من المخطوطة بحجة إمكانية احتوائها على فقرات ذات علاقة بالكتاب المقدس. وفى اللحظة التى وجد نفسه داخل الفاتيكان، عكف على استنساخ نص المخطوطة . وبعد مرور ثمانية أيام اكتشف أمرهُ بعد أن أنجز استنساخ تسع عشرة صفحة من العهد الجديد وعشر صفحات من العهد القديم . وبعد أن افتضح أمره سحبت منه موافقة السلطات البابوية للإطلاع على المخطوطة بعد ذلك الخرق الفاضح للاتفاق .

ولكن «تشيندروف» تمكن من تجاوز العقبة عندما أقنع (كارلو فرسلونى) العالم

الكاثوليكى الذى كان عاكفًا على دراسة المخطوطة، أصلاً بإصدار الطبعة الرسمية للمخطوطة، بالسماح له بدراسة المخطوطة لفترة ستة أيام أخرى. وخلال تلك الفترة القصيرة تمكن «تشيندروف» من تحقيق المخطوطة، فأصدر طبعة للمخطوطة فى السنة التالية سابقًا بذلك منافسه العالم الكاثوليكى (فرسلونى). وعندما ظهرت طبعة (فرسلونى) عام ١٨٦٨ إنهال عليها «تشيندروف» بالتعقيبات والملاحظات وإذ اعترض بعض الكاثوليك على ملاحظاته أصدر «تشيندروف» كراسًا ردًا عليهم بعنوان «ردًا على أقاويل بعض الكاثوليك الرومانيين » .

وقد أثار بطبيعة الحال هذا الموضوع حفيظة الكاثوليك فى العالم إذ وجدوا أنهم على خلاف مع البروتستنت حول نص الكتاب المقدس. وفى مايو (آيار) من عام ١٨٦٩ أرسل الكاردينال « بيترو » أمين مكتبة الفاتيكان إلى « تشيندروف » ، طالبًا منه صرف النظر عن الموضوع. لكن «تشيندروف» لم يكن مستعدًا كما يبدو لذلك حيث كتب إلى صديقة (صاموئيل ديفيد سون)، يقول : « يتعين على بعض الكاثوليك التصرف بتعقل أولاً قبل أن يطلبوا منى صرف النظر عن الموضوع » .

وذهب علماء آخرون إلى حد القول بأن إصدار «تشيندروف» طبعته لمخطوطة الفاتيكان عام ١٨٦٧ يعد اكتشافًا بحد ذاته يضاهى اكتشافه للمخطوطة السينائية، لأن مخطوطة الفاتيكان ظلت محفوظة فى روما لفترة أربعمائة سنة، دون أن يطلع عليها أحد ولكن «تشيندروف» استمر يواصل طبعته للمخطوطة السينائية معتبرًا اكتشافها أعظم كنوز الكتب المقدسة. وشاركة فى رأية آخرون . ففى بريطانيا كان النص الموثق لعام ١٦١١ مايزال يجتذب الكثير من الناس، حتى أولئك الذين شكوا بدقته ، وأصبح النص مقدسًا سواء كان على خطأ أو على صواب .

وكتب (جون راسكين) : « لا تسفح العتمة على الصفحة المقدسة فإن أخطاءها ، إن كانت ثمة أخطاء ، مقدسة اكتسبت قدسيتها من قدمها ». وقد سطرت ترجمة الكتاب المقدس الموثقة بأسلوب بليغ وجميل رغم معرفة الأكاديميين ورجال الدين الجادين بعدم دقته. ورغم ذلك فعندما وافقت سلطات الكنيسة فى انجلترا على مراجعته، أصدرت قرارًا يقضى إلزام الترجمة الجديدة بالنص وعدم إجراء تغييرات على النص إلا عند الضروره. وقد حث هذا المشروع الباحثين العلماء لدراسة العهد الجديد المدون باللغة اليونانية . وخاصة أعمال العالمين العظيمين الأستاذين فى جامعى كمبردج (بروك فوس ديستكوت) الذى أحج أسقف مدينة درهام فيما بعد و(منتون جون أنتونى هورت) لقد كان العالمان (ويستكوت) و (هورت) عالمين حادى الذكاء،

محافظين وصارمين. وكانا على استعداد لقضاء ساعات فى العمل الشاق لمقارنة النصوص، مكبين على قواميس اللغات القديمة ، لتحقيق المخطوطات القديمة .

وقد وجد بعض الناس الكتب التى حققها العالمان (ويستكوت) و (هورت) مملة. حتى ليروى أنه حين لفّ مدينة لندن ضباب كثيف فى أحد الأيام علق عميد كلية سانت بول على ذلك بقولة « يمكن إرجاع السبب فى كثافة ذلك الضباب إلى قيام الدكتور (ويستكوت) بفتح نافذة غرفة مكتبته فى ويستمنستر » .

وكان (ويستكوت) و (هورت) على استعداد لطرح أسئلة جديدة إذ أنهما لم يكونا متطرفين فى استنتاجاتهما . ولقد أخبر (ويستكوت) جمعًا من أساتذة جامعة كمبردج مرة قائلاً : « أنى على استعداد لمنح أى شخص شهادة عليا إذا تمكن من طرح إثنى عشر سؤالاً جيدًا وهذا يدل على أن (ويستكوت) لم يخش دراسة المسائل المتطرفة رغم أنه كان عالمًا محافظًا .

وكان العالمان (ويستكوت) و (هورت) مزاجيين فعندما أصبح (ويستكوت) أسقف مدينة درهام وصفته المجلة الفصلية التى تصدر عن جامعة درهام بكلمات تنطبق على زميله العالم (هورت) إذ جاء فيها : « قبل كل شىء، إنه طالب اللاهوت (ديستكوت) استطاع أن يضيف إلى نص الكتاب المقدس جميع العادات والمصادر بأدق التفاصيل اللغوية أكاديميًا. فقد حافظ على جميع التفاصيل حتى غير المهمة منها وذلك للسيطرة على المادة التى كتبها. وقد عالج كل فقرة فى النص بعناية فائقة بشكل لا يمكن أن يضاهيه فيه أى إنسان آخر » .

وقد قدس هذان العالمان المخطوطتين السينائية والفاتيكانية اللتين أصبحتا الأساس لنصهما اليونانى لتنقيح الكتاب المقدس الإنجليكانى فى القرن التاسع عشر . واعتقدا بضرورة القبول بالشاهد المشترك فى المخطوطتين، واعتباره القراءة الصحيحة حتى يظهر برهان داخلى آخر يثبت خلاف ذلك. وأصرا على أنه ليست هناك قراءات تعتمد على هاتين المخطوطتين يمكن رفضها بشكل مطلق، مع أنه من الصواب وضعهما بعض الأحيان على قدم مساواة مع بديل لهما .

ولم يتفق البعض مع آراء هذين العالمين. ولكن الأشخاص الذين عارضوا آراءهما كانوا شاذين فى تعليقاتهم وانتقاداتهم، ومن بينهم الأستاذ (جى . دبليو . برجون) عميد جامعة جيستر الذى وصف يطبقات المخطوطتين (السينائية والفاتيكانية) بكونهما من أكثر الطبعات

رداءة وقد علق (جاسبر رينيه جريجورى) على المخطوطة السينائية بقوله : «شعر العديد من الأكاديمين بضرورة انتقاد هذه المخطوطة. وهذا خطأ بطبيعة الحال. ربما صنف «تشيندروف» المخطوطة التى عثر عليها بدرجة أعلى من الدرجة التى تستحقها ولكنه كان معذوراً فقد قضى ثلاث سنوات فى تحقيقها. ولو عاش لفترة أطول لكان أجرى عليها تعديلات.

ورغم ذلك تبقى المخطوطة تمثل شيئًا متميزًا بين المخطوطات الأخرى .

ويبدو أن العالمان (ويستكوت) و (هورت) فضلا المخطوطة الفاتيكانية على المخطوطة السينائية . وقد علق (جاسبر رينيه جريجورى) على الموضوع بقولة : « لقد كان من المتوقع أن يقال بأن المخطوطة السينائية كانت مكتوبه بشكل ردىء وتتضمن أخطاء عديدة ، لذا فلا يمكن الاعتماد عليها كليًا . وكان من المتوقع أن تصدر طبعة مخطوطة الفاتيكان بشكل أفضل، ولكن عند انتشارها لم يحاول أحد تفضيل واحدة على الأخرى » .

والشىء الذى أثار حفيظة بعض الشخصيات من أمثال الأستاذ «لورجون»، هو كشف المخطوطة السينائية عن نص للكتاب المقدس اختلف عن الكتاب المقدس الذى قدسوه وأحبوه.

ومثال ذلك الصلاة الربية. إذ اعتادت أجيال من الرعايا البريطانين على النص الذى ورد فى الأيات ٢ - ٤ من الإصحاح ١١ من إنجيل «لوقا» والذى ورد فيه » .

أبانا الذى فى السموات

ليتقدس اسمك

ليأت ملكوتك كما فى السماء كذلك فى الأرض

أعطا خبزنا كفافنا اليوم

واغفر لنا خطايانا كما تغفر لكل واحد

لأن ذلك دين علينا

ولا تدخلنا بالتجربة

ونجنا من الشرير

وقد تعلمون أن هذا النص هو بديل للنص الآخر الذى ورد فى الآيات ٩ - ١٣ الإصحاح ٦ من إنجيل «متى» .

وبعد صدور طبعة المخطوطة السينائية وردت كلمات الصلاة الربية على النحو التالى :

أبانا ليتقدس اسمك .

وليات ملكوتك فى السماء ، كذلك على الأرض أعطنا خبزنا كفافنا اليوم

واغفر لنا خطايانا كما نغفر نحن أيضاً

ولا تعرضنا للتجربة

يلاحظ من ذلك أن نص المخطوطة السينائية لا يتضمن كلمات « أبانا الذى فى السموات » أو « نجنا من الشرير » . كما حذفت فى المخطوطة السينائية الفقرة الآتية :

ليتقدس ملكوتك فى السماء كما فى الأرض

وردد هذه الصلاة العديد من الناس عبر الأجيال لإيمانهم بأن المسيح قد نطق بها .

أضف لذلك أن نص «متى» كان ينهى صلاة الرب بجملة لم ترد فى المخطوطتين. والفقرة هى : لأن لك الملكوت والقوة والمجد الأبدى .. آمين كما اختفت بعض القصص التى أحبها الجمهور من النص الذى كان محافظاً عليه فى جبل سيناء. فقد تضمن الإصحاح الثامن من إنجيل «يوحنا» فى النص المستلم قصة المرأة التى شوهدت فى حالة الزنا وعندما حاول المعلمون والقديسون Pharisees رميها بحجر حتى الموت وذلك، بموجب تعاليم موسى كما ادعوا ،

عند ذاك خاطبهم المسيح قائلا : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » .

حينئذ بدأ الأشخاص الذين اتهموا المرأة بالزنا بالإنسحاب تاركين المرأة مع المسيح لوحدهما .

فبادرها المسيح بالسؤال : « أين الأشخاص الذين اتهموك : ألم يُدِنك أحد ؟ »

أجابت : « لم أدن من قبل أحد ياسيدى » .

فرد عليها المسيح : « وأنا بدورى لا أدينك اذهبى فى حال سبيلك ولا تزنى مرة أخرى » ونعلم الآن أن بعض المخطوطات القديمة قد نقلت هذه الحادثة إلى نص العهد الجديد فى إنجيل «لوقا». وقد أعرب بعض النساخ عن شكهم بمصداقيتها فى بعض المخطوطات كما لم يظهر لها أى أثر فى المخطوطتين السينائية والفاتيكانية .

إن البرهان الذى ورد فى المخطوطة السينائية أصبح من الصعب تقبله. إذ تصف الآية ٥١ من الإصحاح (٢٤) من إنجيل «لوقا» بأن الطريقة التى ترك بها المسيح أتباعه بعد قيامته

بأنه غادرهم بعد أن باركهم وصعد إلى السماء. وتحذف المخطوطة السينائية الفقرة الختامية . وقد لاحظ ناقد النصوص (سى . أس . سى . وليم) نقطة جديرة بالاهتمام إذ قال : « إذا كان الحذف صحيحًا فليس هناك أية إشارة إلى الصعود فى النص المسند للأناجيل » .

والشىء المزعج أن المخطوطة السينائية تحذف الجمل التى يعتز بها الناس والواردة فى الكتاب المقدس. فقد ورد فى الإصحاح (١٧) من إنجيل «متى» وصف لفشل أتباع المسيح فى شفاء أحد المصابين بالصرع من مرضه. وتعطى الآية (٢١) من نص المستلم تفسيراً لذلك مقتبسة أقوال المسيح بأن مثل هذا الشفاء يحتاج إلى صلاة وصوم بينما تحذف المخطوطة السينائية هذا التفسير .

أما نص «مرقس» فيبدأ بهذه الكلمات : «إنجيل المسيح ابن الله » بينما تحذف كلمة ابن الله فى المخطوطة السينائية. ويحتوى الإصحاح الحادى عشر فى إنجيل «لوقا» على الكلمات الآتية المنسوبة إلى المسيح : إنكم لا تعرفون نوعية الروح الذى منه صنعتم فإن ابن الإنسان قد جاء لخلاص أرواح الناس لا لهلاكهم ». وليس هناك أية إشارة إلى مثل هذه الجملة فى المخطوطة السينائية .

وقد ظهر وكأن مثل هذا الأمر لم يكن كافيا لكى يصطدم العلماء الدارسين النصوص القديمة للأناجيل. كما تقلل المخطوطة السينائية من درجة العقوبات التى تواجه الأشرار بموجب النصوص التعليمية. فقد ورد على سبيل المثال، فى الإصحاح التاسع من إنجيل «مرقس»، وصف للجحيم. وبدا وكأنه مكان لاتموت فيه الديدان أو تخمد فيه النيران. لقد اقتبس وصف كهذا فى الآية الختامية فى العهد القديم . النبى «حزقيال» . وحذفت هذه الجملة فى المخطوطة السينائية . وعلى أية حال ، لم تثبط هذه الاكتشافات من همم العلماء من أمثال (تشيندروف) و (ويستكوت) و (هورت) فقد بدوا مقتنعين، شأنهم شأن العديد من العلماء الآخرين، بأن الشىء الذى يقومون به سيكشف فى النهاية عن الحقيقة الآلهية. ورغم ذلك قدموا افتراضات حول انتقال نص الكتاب المقدس الذى كانت المخطوطة السينائية ستؤدى بهم للتخلى عنه : والسبب فى ذلك يتمثل بمحاولة النساخ الحفاظ على الدقة فى نقله. واعتقد «تشيندروف» و (ويستكوت) و (هورت) بأن التغيرات فى شهادات الكتاب المقدس قد حدثت بشكل غير مقصود : فإما أن يكون النسّاخ قد أخطأوا عند سماعها، أو إنها نقلت خطأ عن اللغة العبرية. وهناك احتمال أنهم قد نسقوا الاختلافات بين الأناجيل بدون وعى، لكنهم لم يجرأوا أبداً على تغيير أى نص فى الكتاب المقدس بشكل مقصود .

وقد وجد «تشيندروف» صعوبة فى فهم كيف سمح النساخ لأنفسهم بإجراء تغييرات فى النص ليست لفظية فحسب، تغييرات أثرت على معنى الفقرة». وحول هذا الموضوع كتب «تشيندروف» يقول : « لم أفهم لماذا لم يبتعدوا عن محاولة اختصار الفقرات أو إدخال فقرات أخرى » . وخلاصة القول شعر «تشيندروف» بأنهم كانوا يقدسون الكلمات المسندة للمخطوطة التى كانت بحوزته .

كما بدا كل من (ويسكوت) و (هورت) مقتنعين هما الآخران بأن جميع التغيرات قد وقعت بشكل غير مقصود . إذ ورد فى مقدمة طبعتهما اليونانية للعهد الجديد « سيكون من المناسب الإعراب هنا عن اعتقادنا بأنه لا توجد دلالات تسير إلى وجود تغييرات مقصودة فى النص لأغراض عقائدية حتى بين أكثر القراءات خطأ للعهد الجديد » .

وكان بالإمكان أن تبرهن المخطوطة السينائية على خطئهما ، ليس لأن نصها قد أُفسد بهذه الطريقة ، وإنما لاحتوائها على العديد من النصوص التى حذفها النُساخ اللاحقون وأجروا تغيرات فيها لأغراض لاهوتية . فقد ورد على سبيل المثال فى الإصحاح الأول من إنجيل «مرقس» أن أبرص قال للمسيح : « إذا أردت أن تشفينى من مرضى فبامكانك ذلك». وتستمر المخطوطة السينائية قائلة : « مدّ المسيح يده بغضب وقال «كن معافى » .

ولم ترد فى المخطوطات اللاحقة صفة غضب المسيح لأن هذه الصفة بشرية واستبدلوا بهذه الصفة صفة الرحمة .

وتحتوى المخطوطة السينائية فى إنجيل «متى» على احتمال آخر للمسيح يناقض وجهات النظر اللاهوتية للمسيحيين اللاحقين لذلك تم حجبه فقد ورد فى الإصحاح (٢٤) من إنجيل «متى» وصف ليوم الدينونه. وقد جاءت فى المخطوطة السينائية ملاحظات أبداها المسيح إذ قال : « لا يعرف ذلك اليوم ولا تلك الساعة أحد ، ولا ملائكة السماء ولا حتى الابن إنما الأب فقط » . وورد فى المخطوطات الأخرى « ولا حتى الابن » . والافتراض الذى يدور هنا هو إحتمال أن لا يكون المسيح على الدرجة نفسها من المعرفة بما أنه الرب وهذا ما لم يكن مقبولا من قبل الأجيال اللاحقة من المسيحيين ، ولهذا حذفت كلمة الابن .

وهنا ظن (هورت) لحظة أن السبب وراء حذف كلمة (الاب) قد يكون نتيجة المشاكل اللاهوتيه التى احتوت المخطوطة عليها .

والشىء الأكثر إثارة للإهتمام هو استطاعة الفرد مشاهدة عملية التغيير لأسباب لاهوتية ذلك لأنه تمت إعادة كتابة المخطوطة السينائية من قبل مصححين بعد كتابتها الأولى.

وهناك مثال على ذلك ففى كلتا الحالتين اعترض المصححون اللاحقون على نص حافظت عليه المخطوطة السينائية. يتناول المثال الأول صلاة المسيح فى جبل الزيتون. فبحسب. المخطوطة السينائية. يذكر إنجيل «لوقا» أنه قد ظهرت أمامة ملائكة من السماء لمنحه القوة، ولأنه كان حزينًا فقد صلى بحرارة وبدأ العرق يتصبب منه على الأرض على شكل قطرات كبيرة من الدم . يدل هذا النص على أن المسيح كان بحاجة إلى دعم الملاك ، وأنه قبل القاء القبض عليه ومحاكمته كان متألمًا . ومثل هذا الوصف لا نجده فى مخطوطة الفاتيكان . وتبين المخطوطة السينائيه بوضوح أن النقاش الذى دار حول هذا الموضوع قد أثر على النُساخ الذين جاءوا فى فترات لاحقة . فقام أحد النُساخ بوضع النقاط إلى جانب الفقرات التى اعتقد بضرورة حذفها . وحاول ناسخ آخر حذف تلك النقاط . تكشف هذه الوسيلة بالطريقة نفسها محاولات مصححى المخطوطة السينائية تغيير الكلمات المنسوبة إلى المسيح عندما كان مصلوبًا، كما وردت فى إنجيل «لوقا». فقد ورد فى صلاة المسيح : « أبت، اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما يعملون » . فقام المصحح بحذف هذه الفقرة . ويعتقد (جى . ريندل . هاريس) بأنه تم حذف النص بشكل مقصود من قبل المسيحيين الذين يعتقدون بأن الرب لم يُسامح اليهود بعد موت المسيح. والبرهان على غضب الرب وعدم غفرانه لليهود هو تدميره مدينة القدس. ويقول (هورت) إن هذا النص قد حُذف بطريق الصدفة ، ويحاول تعليل ذلك بقولة : « حذف مقصود بسبب الحب والتسامح اللذين أظهرا إلى قتلة السيد المسيح أمرٌ لا يُصدق » .

ويعتقد (ريندل هاريس) الذى كتب فى العقود الأولى من هذا القرن بأن (هورت) كان على خطأ حول أمانة المسيحيين الأوائل قائلاً : «يعتقد (هورت) بأن جميع النُساخ كانوا ملائكة فيما يخص النصوص اللاهوتية »

وأعتقد أيضًا بأن سلطة (هورت) الواسعة فى هذه الأمور قد أثرت على إدراكنا للطريقة التى ورثنا بها نص الكتاب المقدس .

ويعلق قائلا : « لو قيل بأنه ليس هناك تغيير نتيجة تعصب ، رغم أن النص ملىء بذلك ، فإن علماء آخرين سيعلقون عند ذاك على الأمر بقولهم « إنه ليس هناك حاجة للتوسع فى بحث الموضوع »

ويتبين من الأمثلة المارة الذكر أن المخطوطة السينائية تدعم وجهة النظر غير الأرثذوكسية هذه حول المسيح ، بما لا يجيز عدم الافتراض .

وعلى سبيل المثال، تختلف المخطوطة السينائية فى علم الأنساب الذى يقدمه القديس

«متى» عن بقية المخطوطات حيث تدعم عقيدة ولادة المسيح من مريم العذراء خاتمة قائمة أسماء أسلافه بالكلمات الآتية : «يعقوب» أولد «يوسف» زوج «مريم» التى ولدت «المسيح» الذى يدعى «يسوع» .

وغالبًا ما جاءت الإضافات التى أدرجت فى النصوص الأخرى باستثناء المخطوطة السينائية مفيدة. ويمكن إدراج مثالين من الإصحاح الرابع من إنجيل «يوحنا» أحدهما حول إحدى نساء السامرة التى طلب منها المسيح ماء . فردت عليه : « كيف تطلب منى ماء وأنت يهودى وأنا امرأة من السامرة ؟ »

ويُعطى النساخ فى فترات لاحقة تفسيرًا لذلك بقولهم : « إنهُ لم يكن لليهود فى ذلك الوقت أى تعامل مع السامريين» وهناك روايات مشابهة فى الإصحاح الخامس فى إنجيل «يوحنا». وإحدى تلك الأمثال تتحدث عن المسيح عندما مر بالقرب من مرضى راقدين بالقرب من بركة . والتى كان النساخ قد أضافوا إلى تلك الرواية فى أوقات لاحقة تفسيرًا غير موجود فى المخطوطة السينائية حين قالوا : « إن الملاك ينزل فى البركة فى فصل معين ويحرك الماء، وأن أول شخص ينزل فى الماء العكر يشفى من مرضه » .

وإحدى التغييرات غير الضارة التى حدثت فى النص وردت فى المخطوطة السينائية تدور حول رواية الابن الضال المثبتة فى الإصحاح الخامس عشر من إنجيل «لوقا» .

فقد ورد فى هذه الرواية التى يتحدث فيها المسيح عن شاب سأل والده منحة الإرث وهو على قيد الحياة وبعد أن بذّر الشاب الأموال التى ورثها عن أبيه، أخذ يتضور جوعًا ولجأ إلى رعى الخنازير. وبعد أن شعر الابن بالندم قرر العودة إلى والده ليطلب المغفرة منه قائلاً : «لقد أخطأت ضد السماء وتحت بصرك. وإنى لست جديرًا بأن أكون ابنًا لك فهل تقبلنى خادمًا لك؟» .

وترد الرواية فى المخطوطة السينائية على النحو الآتى : عندما عودة الشاب إلى الدار وجد أن والده كان قد بحث عنه لفترة طويلة. وما أن وقعت عينا والده عليه حتى رحب به وضمه بين ذراعية كأنه عائد من بين الأموات. » وتحذف المخطوطات اللاحقة فقره قيام الشاب بعرض نفسه على أبيه كخادم مأجور .

ورغم ذلك ظلت جميع التغييرات التى اكتشفها «تشيندروف» وزملاؤه العلماء الآخرون فى النصوص تمثل مصدر إزعاج للباحثين .

وفى أحد المجالات وجد أحد علماء اللاهوت فى القرن العشرين الدليل الذى يستطيع بواسطته أن يثبت أن المخطوطة السينائية ستبقى تمثل مصدر قلق حقيقى. والموضوع الذى يخص العقيدة الأساسية للعقيددة المسيحية نفسها هو انبعاث المسيح .

الفصل السادس

قيامة المسيح

أمل «تشيندروف» العثور على مخطوطة العهد الجديد التى تقترب من النص الأصلى كما جاء على أيدى الرُسل وادعى «تشيندروف» بأن مثل هذه المخطوطة متوافرة فى الطبعة السينائية وأن بعض علماء اللاهوت المخربين من أمثال (شتراوس) وآخرين رومانسيين من أمثال (رينان) ليس بمقدورهم زعزعة إيمان الآخرين.

فقد صرح «تشيندروف» بتأنيب : « إن الشخص الذى قام بإضاعة إيمانه عائشًا على الجسد، لا يستطيع تحمل رؤية الآخرين يؤمنون بمخلصهم » .

وأضاف : « لا تنزعجوا من الضجه بل تكاتفوا وكلما زاد تكاتفكم زادت هجمات الآخرين عليكم . »

وهنا يبرز تناقض غريب . فقد كشفت المخطوطة السينائية ، التى عدها «تشيندروف» أقرب النصوص إلى الأناجيل المسندة ، وجود فقرات محذوفة . فالإنجيل حسب نص «مرقس» بموجب المخطوطة السينائيه خلافًا للأناجيل الثلاثة الأخرى خال من أية إشارة إلى ظهور المسيح أمام أتباعة بعد قيامته .

إذ ورد فى الإصحاح (١٦) من إنجيل «مرقس» وصف لقيامة المسيح عندما قامت ثلاث نسوة، إحداهن «مريم المجدلية»، والأخرى «مريم» والدة التلميذ «يعقوب»، والثالثة «سالومى» ، بحمل أطياب لدهن جسد المسيح المسجى فى قبرة . وبينما كانت النسوة الثلاث فى حيرة من أمرهن ، فى محاولة العثور على شخص يساعدهن فى دحرجة الصخرة الضخمة التى كانت مثبتة فى مدخل القبر، شاهدن الصخرة وهى تتدحرج من تلقاء نفسها. وما أن دخلن القبر حتى شاهدّن شابًا يرتدى رداء أبيض جالسًا على الجانب الأيمن من القبر . وإذ لحظ الدهشة على وجوههن خاطبهم قائلاً : « لا تخشين شيئًا » . وأخبرهن بأن المسيح فى الناصرة الذى صلب غير موجود فى التابوت. ثم ناولهن رسالة من المسيح موجهه إلى أتباعه ، جاء فيها : «سيتوجه قبلكم إلى الجليل وستشاهدونه هناك كما أخبركم » .

ويبدو من الغريب أن لا تُسلم النسوة الرسالة إلى التلاميذ كما ورد فى إنجيل «مرقس». ويرد وصف الحادث فى المخطوطة السينائية على الشكل التالى : « بدا الرعب واضحًا على وجوه النسوة عند خروجهن من القبر ولم ينبسن بكلمة لأى شخص » . وبموجب المخطوطة السينائية فإن إنجيل «مرقس» ينتهى بهذه الجملة . لكنه لا ينتهى على هذا النحو فى نص الكتاب المقدس الإنجليكانى ونصوص الكنائس الأرثذوكسية الأخرى. إذ أن نصوصها تستمر بالآيات الإثنتى عشرة الأخرى :

عندما رفع إلى السماء فى اليوم الأول من الأسبوع ظهر فى بادىء الأمر «لمريم المجدليه» التى كان قد طرد من جسدها سبعة شياطين . وعندما توجهت إلى تلاميذ المسيح وأخبرتهم بأنها قد شاهدته بينما كانوا يبكون عليه ، لم يصدقوها خاصة عندما قالت لهم إنه كان حيًا وكان معها .

وظهر فى المرة الثانية أمام إثنين من تلامذته بهيئة أخرى بينما كانا يسيران فى طريقهما متوجهين إلى قريتهما وعندما أخبر بقية التلاميذ رفضوا تصديق الرواية . وخاطبهم قائلاً : « اذهبوا إلى جميع الخلق فى العالم وبشروا بالإنجيل. من آمن واعتمد فهو مخلّص ومن لم يؤمن فسيدان وستتبع تلك الآيات الأشخاص المؤمنين وباسمى ستطرد الشياطين من نفوسهم وسيتكلمون بألسن جديدة وسيلتقطون الأفاعى وإذا تناولوا سمًّا مميتًا فلن يلحق بهم الأذى وسيشفون المرضى بعد لمسهم .

وبعد أن تحدث إليهم صعد إلى السماء وجلس على يمين الله . وتوجه الرُسل ليبشروا بالإيمان بمساعدة الرب مؤكدين أقوالهم بآيات سماوية . آمين .

وإذا كان نص المخطوطة السينائية يمثل حقًا ماورد على يد الشخص الذى كتب هذا الإنجيل فإن الآيات الاثنتى عشرة (٩ – ٢٠) فى الإصحاح (١٦) من إنجيل «مرقس» منحولة، شأنها شأن نص الشهود السماويين الثلاثة ، الذى كشفه (ريتشارد بورسون) . وقد فضح اكتشاف «تشيندروف» العظيم إضافه خطرة أخرى إلى النص الأصلى ، إلى جانب الدفاع عن رواية الإنجيل التقليدية .

وليس هناك أدنى شك بأن الناسخ الذى اختتم المخطوطة السينائية بإنجيل «مرقس» قد أنهاها بالآية (٨) من الإصحاح (١٦) . وأشر النص بخط دقيق كتب تحتهُ « الإنجيل حسب مرقس » . وبعدها مباشرة يبدأ إنجيل «لوقا» .

لقد كان «تشيندروف» عالمًا ذكيًا بحيث لم يحاول إجراء أى تغيير على نص المخطوطة السينائية لدى تقديمها للعالم . وإن طبعته العظيمة للنص اليونانى من العهد الجديد بحسب المخطوطة السينائية التى نشرها (أف . أى . بروك هاوس) من لايبزك وذلك عام ١٨٦٣ تختتم بكل أمانة الإنجيل بالكلمات التالية « إذا كنت خائفًا » . ولكن هذا الاكتشاف لم يكن يمثل مشكلة «لتشيندروف» كتلك التى يمثلها للعلماء اللاحقين المؤمنين .

والسبب الرئيسى فى ذلك أن «تشيندروف» لم يؤمن بأن «مرقس» كان أهم كتاب

الإنجيل بل أن «مرقس» فى تصور «تشيندروف» لم يكن شاهد عيان للأشياء التى كتبها بل صديقًا لشاهد العيان . وقد جاء إنجيله رغم أهميته بالمرتبة الثانية بالنسبة لشهادة الإنجيلين «متى» «ويوحنا» اللذين كانا شاهدى عيان .

واتبع «تشيندروف» التقاليد التى تعود إلى بداية الكنيسة الأولى التى تقول بأن «متى» كتب الإنجيل الأول ولهذا ورد فى بداية الكتاب المقدس قبل الأناجيل الثلاثة الأخرى. ويقول (اقليمندس) الإسكندرانى الذى عاش حوالى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد بأن الأناجيل الأولى هى تلك الأناجيل التى تضم شجرة نسب المسيح وقد خلا إنجيل «مرقس» من تلك الشجرة .

وقال «أوريجن» الذى كتب فى الإسكندرية فى القرن الثالث الميلادى بأن الإنجيل الأول كتب بالعبرية قبل «متى». وأكد القديس «أوجسطين» الذى كتب فى أفريقيا حوالى عام ٤٠٠ ميلادية بأن «متى» كتب فى بادىء الأمر باللغة العبرية ونقل عنه «مرقس» الإنجيل وسجلهُ باللغة اليونانية .

وإذ نرى بأن «متى» كتب إنجيله قبل «مرقس» – لذا يبدو إنجيل «مرقس» مختصرًا لدى مقارنتة بإنجيل سابقه (متى) . واعتبر خلو المخطوطة السينائية من أية أشارة إلى ظهور المسيح وهو يصعد إلى السماء ضربًا من الصدفة . وافترض العلماء أن «مرقس» قد عرف شيئًا عن واقع قيامة المسيح الذى سجله «متى» فى إنجيلة. وبعد التعقب الذكى اقتنع العلماء بأن أقدم إنجيل هو إنجيل «مرقس». ولم يعرف أحد بالضبط الطريقة التى تمكنهم من تحديد تاريخ إنجيل «يوحنا». أما بالنسبة لأناجيل «متى» و«مرقس» و«لوقا» فبالتدريج أصبح واضحًا بأن إنجيل «مرقس» قد دوّن أولاً .

وكان (كارل لجمان) سلف «تشيندروف» قد سبق الجدل الذى دار حول الموضوع عندما صرح بأن إنجيل «مرقس» قد دون أولاً. وفى عام ١٨٣٥ درس نظام الأحداث فى الأناجيل الثالثة ووجد أن النظام هو نفسه عندما يتفق نظامًا «متى» و«لوقا» مع نظام «مرقس».

وعندما يختلف «متى» أو «لوقا» مع «مرقس» فإنهما يختلفان مع بعضهما أيضًا. ومع أن نظامىّ «متى» و«لوقا» يفترقان عن نظام «مرقس»، إلا أنهما لا يتفقان مع بعضهما ضد «مرقس» .

وباختصار يمكن اعتبار نظام «مرقس» أساسًا للنظامين الآخريين. وكثيرًا ما يدعم

نظامًا «لوقا» وحتى نظــام «مرقس»، وبخاصة نظام «لوقا». وعندما يـتفق نظام «لوقا» و«متى» مع بعضهما فى سرد الأحداث يبدأ هذا الاتفاق وينتهى مع أسلوب تسلسل الأحداث فى نظام «مرقس» .

ويثبت هذا البرهان العظيم أن «لوقا» و«متى» قد نقلا عن «مرقس» .

وجاء علماء آخرون بالبراهين لإثبات ذلك فكثيرًا ما استخدم السفران اللاحقان لغة «مرقس» نفسها وجاءت الاستخدامات اللفظية نفسها متشابهة .

ويتضح لدى دراسة النصوص أن (٥٩) بالمئة فى لغة «متى» تمثل كلمات «مرقس» وأن ٥٥ بالمئة فى لغة «لوقا» قد اقتبست من لغة «مرقس» – وتصل النسبة إلى (٦٩) بالمئة خاصة عندما ينقل «لوقا» نص أقوال المسيح .

ومرة أخرى نلاحظ أن محتوى إنجيل «مرقس» هو تكرار لما ورد فى السفرين الآخرين. فمن بين مجموع آيات «مرقس» البالغ عددها (٦٦١) آية ، بدت (٦١٠) آيات منها مشابهة لما ورد فى إنجيلىّ «متى» أو «لوقا» أو كليهما. ويمكن تقسيم إنجيل «مرقس» إلى (٨٨) فقرة مستقلة ولا يمكن إيجاد ثلاث منها فى الإنجيلين الآخرين ونجد بعض الأحيان أن الكلمات التى استخدمها كتاب الأناجيل الثلاثة الأولى فى بناء الجمل تتفق مع بعضها بحيث يصبح من المحال تصور كتابتها على نحو مستقل بعضها عن الآخر. كما ترد كلمات نادرة فى المضمون نفسه فى الأناجيل الثلاثة . وفى بعض الأحيان تتكرر التراكيب الغريبة فى الجمل بحيث تصبح غير واضحة .

فعلى سبيل المثال ورد فى الآيتين (١٠) و (١١) فى الإصحاح (٢) من إنجيل «مرقس» ظهور المسيح وهو يتحدث مع النُساخ . وفى منتصف الجملة يُقطع الحديث ويدور حول المسيح وهو يخاطب رجلاً مشلولاً . وتظهر الغرابة نفسها فى إنجيلىّ «متى» و«لوقا» .

وحيث افتُرض أن «مرقس» كان ناسخًا للإنجيل فإنه لايمكن الشك فى موقع الرسولين «متى» و«لوقا» باعتبارهما شاهدين عيان للأحداث التى وصفاها .

وعندما بدأ العلماء بفرضية اعتماد إنجيلى «متى» و«لوقا» على إنجيل «مرقس»، وجدوا الصعوبة فى تصور فكرة اعتماد إنجيليهما (متى ولوقا) على وضوح تلامذه المسيح . فإذا كان «متى» قد شاهد المسيح ورافقهُ فلماذا ينقل عن «مرقس» الذى لم يشاهد المسيح إلا أنه ليس من المستبعد أن يتصور شخص اعتنق المسيحية فى وقت لاحق وقوع ذلك مثلما حدث

للقديس «أوجسطين» الذى اعتقد بأن «مرقس» قد نقل عن «متى» . ولكن هل يمكن لأتباع المسيح أن ينقلوا عن شخص اعتنق المسيحية بعدهم .

وعلى أية حال، فإنه لا يمكن تحليل الفرضيات التى جاء بها «أوجسطين»، لأن القصة التى يرويها «مرقس» عن المسيح كانت أكثر تفصيلاً مما جاء فى الرواية التى وردت فى إنجيل متى .

وعلى سبيل المثال فقد استخدم «مرقس» فى وصفة لطريقة إطعام المسيح لخمسة آلاف شخص (١٩٤) كلمة بينما استخدم «متى» (١٥٧) كلمة لوصف الحدث . لذا لا يمكن اعتبار إنجيل «مرقس» مختصراً بل يمكن اعتبار إنجيل «متى» أكثر اختصاراً من إنجيل «مرقس». وعندما يختصر «مرقس» الأحداث نجده يقع فى أخطاء. وهنا يكمن أهم نقاش قوى يثبت أسبقية إنجيل «مرقس» على الأناجيل الأخرى . كما أن «متى» لا يروى فى بعض الأحيان أحداث القصة كما وقعت. ويتبين من سرده للأحداث أنه اعتمد على حقائق واقعة رواها «مرقس» فى إنجيله .

ومن الأمثلة عن ذلك الرواية التى دارت حول مقتل «يوحنا المعمدان» . حيث تبدو الرواية التى يسردها «مرقس» فى إنجيله أكثر تعقيداً من الروايتين الأخريين كما تبدو أهدافها مشوشة، حينما يتحدث عن حكام ضعفاء يقعون فى أخطاء جسيمة . وجاء فى وصف «مرقس» لتلك الحادثة أن الحاكم «هيرودس» خشى «يوحنا المعمدان» بعد اقترانة بزوجة أخية «فيليب» التى كانت تدعى «هيروديا» وعندما وصف «يوحنا المعمدان» الزواج بأنه غير شرعى . أثار هذا الموقف الرعب فى نفس الحاكم «هيرودس» لعلمة بأن «يوحنا» كان قديساً، لذلك تجنب إلحاق الأذى به فى بادىء الأمر واستمع إلى رأى «يوحنا» فى الزواج. ولكن (هيروديا) التى كانت تضمر العداء «ليوحنا» أجبرت زوجها الحاكم «هيرودس» على قتله .

ويذكر «مرقس» أن «هيردوس» ندم على فعلته وقد سرد مرقس هذه الرواية فى الآيات (١٧ - ٢٩) من الإصحاح (٦) فى إنجيلة وقد سرد «متى» الرواية فى الآيات (٣ - ١٢) من الإصحاح (١٤) من إنجيلة ، ولكنها بدت أكثر اختصاراً من رواية «مرقس» .

وحاول «متى» فى روايته أن يجعل «هيرودس» عدواً «يوحنا المعمدان» . وقد سرد الرواية على الشكل التالى : أراد «هيردوس» قتل «يوحنا المعمدان» ولكنه تردد فى ذلك

لخشيته من الجمهور الذى كان يعده نبياً. ويتحدث «متى» فى روايته عن تآمر «هيروديا» على «يوحنا المعمدان» ويضمنها رقص ابنتها أمام الحاكم ومطالبتها «برأس يوحنا» على طبق « عندما رقصت ابنة «هيروديا» طالبت علناً بالمكافأة». وهنا يشير «متى» إلى الرواية التى وردت فى إنجيل «مرقس» حين يقول بأن «هيردوس» ندم على فعلته ولكنه لم يرد أن يهان أمام ضيوفه لذا أرسل سجانيه لقطع رأس «يوحنا المعمدان» فى السجن .

وعندما نقرأ إنجيل «متى» نجده قد حاول تقديم رواية مشذبة لما ورد فى إنجيل «مرقس». لذا يمكن اعتبار إنجيلىّ «متى» و«لوقا» على أنهما نسختان مهذبتان لإنجيل «مرقس» .

وقد عقب الأكاديمى الإنجليزى (ستريتر) على ذلك بقوله : يمكن ملاحظة الأسلوب البدائى الذى اتصف به إنجيل «مرقس» من :

أ - استخدام الجمل التى يمكن أن تلحق الإساءة بالآخرين والتى قد حذفت أو خفف من شدة لهجتها فى الأناجيل الأخرى .

ب - خشونة الأسلوب واستخدامات القواعد اللغوية والحفاظ على الكلمات الآرامية .

ومن بين العناصر الأخرى التى تم تشذيبها والتخفيف من شدة لهجتها فى إنجيلى «متى» و«لوقا»، انتقاد «مرقس» لتلامذة المسيح ، وأن بإمكاننا أن نلاحظ استعداد «مرقس» لتسجيل ملاحظات من شأنها أن تلقى الشك حول بعض الإدعاءات المنسوبة للسيد المسيح نفسه بطريقة رفضها الإنجيليون اللاحقون فيما بعد .

ومثال على ذلك الرواية التى سردت فى الإصحاح (١٠) من إنجيل «مرقس» ، والتى تدور على النحو التالى : عندما شاهد أحد الغرباء السيد المسيح ركض مسرعًا نحوهُ وبعد أن ركع أمامه سأله « سيدى الصالح ، أخبرنى ماذا يجب أن أفعل لأربح الحياة الأبدية ؟ »

وجاء فى إنجيل «مرقس» إن المسيح أجاب الشخص الغريب « لماذا تدعونى صالحًا ؟ ، ليس هناك صالح . سوى الله » .

أما «متى» فإنه عند سرده للرواية يفهم منها أن المسيح ابن الله بدون خطيئه . إذ ورد فى الآية (١٧) من الإصحاح (١٩) من إنجيل «متى» إجابة المسيح على الشكل التالى : لماذا تسألنى عن الصالح » . ويبدو من هذا أن القديس يحاول تصحيح رواية «مرقس» لأسباب لاهوتية .

لذا لا يبدو من المعقول أن يكون «مرقس» قد غير فى إنجيل «متى» بل العكس هو الصحيح .

وكما ذكر «جون فنسّن» : عندما وجد الإنجيليون اللاحقون الثلاثة أن إنجيل «مرقس» لم يف بالغرض فى بعض المقاطع لذلك بادروا إلى تشذيبه لجعله أكثر قبولاً من قبل قراء تلك الفترة .

ومثال على ذلك يشير (فنتن) إلى أن الإنجيلين اللاحقين قاموا بإجراء تغييرات بكل حذر فى أية إشارة تنتقد فيها أم المسيح. فقد ورد فى إنجيل «مرقس» أن عائلة المسيح حاولت سجنه فى الدار لاعتقادهم بأنه كان مجنونًا . بينما لا يذكر بقية الإنجيليين هذا الحادث .

ويصف (فنتن) إنجيل «مرقس» على النحو الآتى : « يمكن وصفه بأنه سلبى ووجودى إذ يخلو من أنباء جيدة عن تلاميذ المسيح بصفتهم عقلاء وأقوياء وقديسين ، كما يخلو من أية إشارة إلى «بطرس» و«يعقوب» وأم المسيح مريم العذراء. كما يخلو أيضًا من أية إشارة إلى شفاء المسيح للمرض . وقد اقتصر الإنجيل على سرد أخبار عن الله وخلا من أية إشارة إلى أنباء البشر . وكما لا يعرف الابن عن الساعة واليوم اللذين ولد فيهما فإنه لا يعرف فى النهاية أن ما يحدث له هو إرادة الله . وسيرسل الله ابن البشر ليجمع المختار وإذا لم يختصر الزمن فلن يتم إنقاذ أى شخص من البشر. انتظرهُ وتحمل المصاعب القادمة دون إعطاء أمثلة عن المعتقد لدعمه »

وإذا افترضنا أن إنجيل «مرقس» قد كتب أولاً ونقل عنه الإنجيليون الآخرون ، فإننا سنضطر للتساؤل عما إذا كانوا قد قاموا فعلاً بتشذيب الكلمات التى بشروا بها .

ويؤكد (فنتن) أن إنجيل «مرقس» كان يتصف بالصرامة بالنسبة للكنيسة وأن التعديلات التى أجراها «متى» و«لوقا» و«يوحنا» كانت مجرد تغيير بالكلمات لتتماشى مع ضعف الطبيعة البشرية » .

وإذا وجد الإنجيليون اللاحقون أن الطريقة التى عالج بها إنجيل «مرقس» موضوع أم المسيح وتلاميذه تتصف بالسلبية ، بحيث تعذر عليهم نقله كما وردت ، فليس هناك أدنى شك بأنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لتشذيب الفقرات التى تصف قيامة المسيح بشكل حرفى . إذ يفترض «مرقس» فى إنجيلة فى الفقرات التى تدور حول المسيح أنه كان حيًا . إلا أنه يختلف عن بقية الإنجيلين حين لا يشعر بأن هناك حاجة لتصورة يأكل ويشرب ويسير بعد صلبه . ولم

يشعر «متى» و«لوقا» و«يوحنا» فقط بالحاجة لتصوير المسيح وهو يمشى ويأكل ويشرب بعد صلبه ، فقد قرر بقية المسيحيين إضافة آيات حول نهاية إنجيل مرقس الصارمة.

سبق وأن ذكرنا أن هناك إحتمالاً بأن تكون الإثنتا عشرة آية التى اقتبست قد تمت إضافتها من قبل المجلس الكنيسى فى القرن الثانى الميلادى وكان يُطلق عليه اسم (اريستون). وكانـوا معـروفين لـدى أباء الكنيسـة الأوائل من أمثال «أيـريناوس» وكذلك الشهيـد «يوستينوس» الذى عاش فى النصف الأول من ذلك القرن .

ولكنهم لم يجدوا تعاطفًا معهم فى كل مكان. ومن المدهش أن نلاحظ أن أباء الكنيسة الأوائل قد أضافوا نهايات منحولة إلى نص إنجيل «مرقس» كما لاحظنا فى المخطوطة السينائية. ولهذا قدمت بعض المخطوطات نهايات أقصر وذلك من القرن الرابع فصاعدًا إذ ترد كما يأتى:

قام النسوة الثلاث بنقل ما قيل لهن إلى «بطرس». وبعد ذلك ظهر أمامهن المسيح وأرسل بواسطتهن الرسالة المقدسة والأزلية للخلاص الأبدى لنقلها من الشرق إلى الغرب .

أما القديس «هيرونيمس» فيحدثنا عن إضافة أخرى فقد وردت فى بعض النصوص بعد الآية (١٤) فى النهاية المنحولة فى إنجيل متى الإضافات التالية :

وبعد أن اعتذرن من المسيح خاطبنه بالكلمات التالية : « يقع هذا العصر الكافر الذى تسود فيه شريعة الغاب تحت رحمة الشيطان الذى لا يسمح للحقيقة وقوة الله أن تسود على الأشياء غير النظيفة التى تعتلج فى النفوس . لذا فاكشف عن رحمتك الآن». فأجابهن المسيح بالكلمات التالية :

> إن الفترة التى تسودها القوى الشيطانية قد انتهت ولكن هناك أمورًا فظيعة أخرى تقترب . لقد أنقذت من الموت أولئك الذين أخطأوا وذلك حتى يعودوا إلى طريق الصواب ولا يخطئوا مرة أخرى ولكى يرثوا المجد الروحى الذى لا يفنى والحق الذى هو فى السماء» .

وإحدى السمات المفضوحة لهذه الفقرة المنحولة هى خلو العهد الجديد من بعض جملها، إذا صرفنا النظر عن إنجيل «مرقس» الذى ادعى تسجيله لجمل هذه الفقرة. وهنا كما هو عليه الحال فى النهايات القصيرة المنحولة لإنجيل مرقس، ترد كلمات لم يستخدمها الإنجيليون الأخرون فى أناجيلهم . ومع أن الفقرة المقتبسة من القديس «هيرونيمس» تقع فى مخطوطة العهد الجديد المعروفـة اليوم بمخطوطـة واشنطن، إلا أنـه مـن المؤكد أن لا هـذه الفقرة ولا

المحاولات الأخرى الطويلة والقصيرة منها توفر نهاية إلى إنجيل «مرقس» بعد الاية (٨) من الإصحاح (١٦) هى جديدة بالتصديق .

وتبقى نهاية أقدم أناجيلنا الكنسية تتمثل بالكتاب المقدس الذى اكتشفة «تشيندروف» على جبل سيناء عام ١٨٥٩ ومع ذلك استمر العلماء يرفضون القبول بهذا الاستنتاج المخيف. فبجانب التقليل فى تأثيره عن طريق الاستمرار بالدفاع عن إنجيلى «متى» و«لوقا» بوصفهما أقدم من إنجيل «مرقس»، اعتقد هؤلاء العلماء بأن لديهم سببًا قويًا للافتراض بأنه ليس هناك أى كتاب يمكن أن ينتهى بالطريقة التى تختتم بها المخطوطة السينائية إنجيل «مرقس» .

وجادلوا بأن إنجيل «مرقس» اختتم بجملة غير كاملة. فالكلمات اليونانية التى تنهى بها المخطوطة السينائية إنجيل «مرقس» هى ephoboun to gar والتى تعنى «لأنهم كانوا خائفين» وقد وردت فى المخطوطة السينائية مدونة على الشكل الآتى ephoboun .. to gar

وهذا نوع غريب من التعبير فى اللغة اليونانية وقد اقنعت غرابة هذا التعبير العديد من العلماء بأن البرهان الذى قدمته المخطوطة السينائية كان خاطئًا إذ أكدوا أنه لم تسطر جملة يونانية من قبل بمثل هذه النهاية . كما أن (بى . أف . ويستكوت) و (أف . جى . أى . هورت) فى طبعتهما اليونانية للعهد الجديد لم يضعا توقفًا كاملاً فى نهاية كلمة (gar) التى تعنى خائفين ، رغم اعترافهما بعظمة المخطوطة السينائية . وأشارا إلى اعتقادهما بأن المخطوطة الأصلية لإنجيل «مرقس» احتوت على الجملة . وكتب (هورت) معقبًا على الموضوع بقولة : من العجيب أن ينهى الإنجيلى الفقرة بمقطع لأنهم كانوا خائفين » .

وفى عام ١٨٩٦ أكد (جى . سى . دو بوسون) على الموضوع قائلاً : لا يمكن لأى كاتب يونانى أن ينهى الفقرة بمثل ذلك المقطع : (لأنهم كانوا خائفين) ، كما لا يمكن لأى مؤرخ أن ينهى أعماله بتفاصيل دقيقة كانت غير مهمة ولا يمكن لأى إنجيلى أن ينهى سرده للقيامة بكلمات تشير إلى الخوف التام . ودعم البروفسور (أف . سى . بوركيت) آراء الآخرين بقولة : لم تبد وطريقة سرد الأحداث غير مترابطة. وإنما الفقرات والجمل التى كانت ناقصة، وحتى الفقرة المتممة بدت هى الأخرى غير مربوطة بالفقرات التى تسبقها . وكتب أيضًا . «لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون الإنجيل قد اختتُم بالكلمات الآتية : «لأنهم كانوا خائفين». ومن الغريب فعلاً أن نجد فقرات أجمل مدونة باللغة اليونانية تنتهى بكلمة (gan) التى تعنى (خائفين) . ولسوء حظ العلماء الذين بدوا غير مستعدين للقبول بالبرهان الذى قدمته المخطوطة السينائية.

وفى اللحظة التى بدأ بها العلماء بإعلان تصريحاتهم العقائدية، حاول علماء آخرون البرهنة على خطئهم . ويبدو أنهم قد نجحوا فى ذلك .

وقد وجدت كلمات فى «هومر» و«أسخيلوس» و«يوربيدوس» تنتهى بكلمة خوف (gan) كما احتوى النص اليونانى للعهد القديم على مثل تلك الجمل وذلك فى الآية ١٥، الإصحاح ١٨ من سفر التكوين وذلك فى الآية ٣ فى الإصحاح ٤٥ وفى الآية ١١ من الإصحاح ٢٩ من أشعيا) .

وبصفته عالمًا من كلية ترينتى فى جامعة كمبردج كتب الأستاذ «روزدن أوتلى» عام ١٩٢٦ :

يبدو أنه لم يكن لدى «هومر» وكتاب التراجيديا الآخرين ومترجمى العهد القديم إلى اليونانية اعتراض على إنهاء الجملة بكلمة خوف (gan) .

ولا أرغب هنا فى الإشارة أو أحاول نفى أى نظرية تدور حول إنجيل «مرقس»، بقدر رغبتى بالإشارة إلى أن الجملة التى تنتهى بكلمة (خوف) لها سابقة .

وفى الحقيقة أن المخطوطة السينائية تعرضت لانتقادات مرات عديدة .

وإن الافتراض بأن «مرقس» لم يُخبر عن المظهر الجسدى للمسيح هى بدون شك أمر يثير الدهشة فى المضمون التقليدى للمعتقد المسيحى . وكما سطر (توماس أرنولد) بسنوات قليلة قبل وصول «تشيندروف» إلى جبل سيناء : «لا أعرف حقيقة أخرى فى تاريخ الإنسانية تم إثباتها بالبراهين القاطعة مثل ظهور المسيح القائم » واقتبس من هذه المقولة الأكاديمى الإنجليزى (جى أس . لوتن) معلقًا : «يجب القبول بتقاليد الإنجيل أو رفضها على هيئتها بضمنها موضوع القبر الفارغ والظهورات » . وأصبح الآن واضحًا بأن تقليد الإنجيل الأول قد أكد على القبر الفارغ وتجاهل موضوع قيامة المسيح .

وخشى «تشيندروف» بأن تؤدى المخطوطة السينائية إلى مثل هذا الاستنتاج . وفى عام ١٩٧٢، أى بعد مرور قرن على وفاته كتب عالم لاهوت يدعى (بى . دبليو . فان ديرهورت) فى مجلة الدراسات اللاهوتية يقول : «إن وجود إنجيل لا يتضمن ظهور صعود المسيح أمر غريب». ولا يشك أى شخص بأن مؤلف إنجيل «مرقس» اعتقد بأن المسيح كان مازال حيًا ولا يزال هناك تساؤل فيما حول إذا اعتمد هذا الاعتقاد على الإيمان بأن المسيح قام جسديًا بعد مماته أمام تلامذته .

الفصل السابع

الشـــــذرات

عادت اكتشافات «تشيندروف» بشهرة واسعة على دير القديسة «كاثرينا»، لم يحظ بمثلها الدير منذ القرون الوسطى. فقد بدأ عدد كبير من العلماء الغربيين يبحثون عن كنوزه الأدبية، إلا أن سلوك «تشيندروف» جعل الرهبان أقل استعداداً للترحاب بالقادمين الجدد. وقد أشارت السيدة (أجنس لويس) إلى زوال الشكوك من نفوس الرهبان، وذلك بشخصيتها الجذابة ، والمحبة التى أظهرتها للرهبان . وعندما اكتشف العالمان البريطانيان (واندل هاريس) ودكتور (بليدس) عام ١٨٨٩ مخطوطة مهمة أخرى، تبين من الرسائل التى سطراها أن الرهبان ظلوا حذرين فى مواقفهم تجاه العلماء الغربيين. إذ جاء فى مذكراتهما : «لم تكن هناك رغبة لدى الرهبان بعرض كنوزهم النفيسة أمام الغرباء لدراستها». واستخدم (دانيل هاريس) نفوذة لمساعدة زوار آخرين لتسهيل مهمتهم فى الدير ، فقد زودهم عام ١٨٩٢ برسالة توصية موجهة إلى أمين مكتبة الدير الأخ (كلاكتيون Galaketeon) جاء فيها : « إن العالم صغير إذ يمكن أن يكون لدينا أصدقاء حقيقيون فى مناطق بعيدة كهذه » .

ورغم التصرفات غير اللائقة لبعض الزوار، فقد تقبل الأخ (كلاكتيون) برحابة صدر، لأنه كان إنساناً متعلماً ومتحضراً. ودخل فى حوارات لاهوتية مع أساتذة لاهوتيين أوروبيين، مثل (أف . سى . بركت) وقد أبدى استعداده للتعاون مع الأشخاص الذين عكفوا بكل جدية وإخلاص على دراسة المخطوطات المحفوظة فى مكتبة الدير مثل السيدة (لويس) . وقد نجح (كلاكتيون) ، بمساعدة السيدة (لويس) ، فى اكتشاف كنز أدبى آخر فى الدير ، هو المخطوطة السريانية . إلا أن الرهبان قرروا هذه المرة الاحتفاظ بالمخطوطة فى مكتبة الدير .

وتعد هذه المخطوطة أقدم ترجمة للأناجيل بأية لغة .. وهى معروضة الآن فى مدخل كنيسة «جوستينيان» فى جبل سيناء . كما تعد هذه المخطوطة السريانية اليوم أهم مخطوطة محفوظة فى الدير . وقد صورتها كل من السيدة (أجنس لويس) و (مارجريت جيسن) مع وثائق أخرى خلال زيارتهما للدير عام ١٨٩١. وليس من المستغرب فشلهما فى معرفة أهمية المخطوطة لأن الترجمة السريانية قد سُطرت فى القرن الخامس الميلادى وأعيدت الكتابة على الرق فى القرانين السابع والثامن للميلاد بعد محوها .

وعند عودتهما إلى كمبردج ، بادرتا إلى عرض صور المخطوطة على البروفسور (آر . آل . بنسلى) والعالم (أف . سى . بركت) الأستاذين فى كلية ترينتى . وما أن وقعت الصور بين أيديهما حتى أنهمكا على دراسة المخطوطة ، وذلك خلال العطل. وتمكنا من اكتشاف أن دقائق المخطوطة السريانية كانت قد تم محوها وأعيدت الكتابة عليها. وعندما أدركا أهميتها

قررا السفر فوراً إلى جبل سيناء لدراسة المخطوطة ومحاولة استنساخها شخصياً وحظيت مهمتهما هذه بدعم (داندل هاريس). وعند وصولهما القاهرة فى أوائل عام ١٨٩٢ قابلتا رئيس أساقفة فرع الدير فيها. وكان دليلهما فى الرحلة السيدتان (لويس) و(يعقوب). ولاحظت السيدة بنسلى التى رافقت زوجها فى الرحلة تواضع فى شخصية رئيس الأساقفة الذى كتبت تصفة : « لقد وجدناه شخصاً مرحاً ذا مزاج هادى . بادر إلى مصافحتنا عند وصولنا ، وقدم لنا الحلوى والقهوة . وأمر سكرتيره الشخصى بتحرير رسائل توصية إلى ممثله فى دير القديسة كاثرينا » . فى حين عرض البروفسور (بنسلى) على رئيس الأساقفة طبعه من إنجيل «بطرس» المنحول عُثر عليها مدونة على صفحات البردى بالقرب من القاهرة.

وعقب رئيس الأساقفة على الموضوع بقولة : « إن أربعة أناجيل كافية بالنسبة لى». وفى الوقت نفسه قرر الاحتفاظ بالنسخة، مما أثار حفيظة البروفسور (بنسلى). وسارع رئيس الأساقفة بإصدار أوامره لإجراء ترتيبات مع قبيلة (الطوارة) البدوية لتسهيل مرور البعثة البريطانية من منطقتهم فى رحلتهم للدير .

استغرقت الرحلة إلى الدير عشرة أيام ، تخللها يوم استراحة. وقد صادف ذلك اليوم الخامس من فبراير (شباط) وكان يوم أحد. وكان مرافقهم قد هيأ لهم عشاء تناولوه فى الخيمة. وعند وصول أعضاء البعثة الدير استقبلهم الرهبان الذين كان يتراوح عددهم بين ثلاثين وأربعين راهباً بمفردات باللغة الفرنسية قام بترجمتها نادل يُدعى «نقديموس» ، وقد استغربت السيدة (بنسلى) عند مشاهدتها رجلاً وسيماً وذكياً بين الرهبان لاعتقادها بأن دير جبل سيناء عبارة عن إصلاحية يُرسل إليها الرهبان من أقطار أخرى للتكفير عن خطاياهم بالعزلة والحرمان ورغم الطيبة التى أظهرها الرهبان نحو زوارهم ، إلا أنها وجدت بأن وجود «نقديموس» الذى كان يجيد ثلاث لغات بين الرهبان البسطاء والجهلة فيه شيىء من الغرابة . واستنتجت أنه ربما مر بالدير فى زيارة خاطفة لترتيب المكان. أما الرهبان فقد بذلوا كل مافى وسعهم لتسهيل مهمة زوارهم العلماء. وكانوا يقدمون لهم البلح المجفف والأرز والمربى والنبيذ المستخلص من التمور وفى كل يوم كانوا يحملون لهم أكواماً من المخطوطات القديمة يعرضونها عليهم للإطلاع عليها. وقامت السيدة (أف . سى . بركت) التى كانت هى الأخرى بصحبة زوجها بإستننساخ إحدى النصوص العربية القديمة. كما بادرت السيدتان (أجنس لويس) و (مارجريت جيبسن) بتسجيل عناوين جميع المخطوطات العربية والسريانية المحفوظة فى مكتبة الدير، وذلك للتهيؤ لإصدار قائمة بأسماء جميع المطبوعات الموجودة فى الدير، وكانت

مطبعة جامعة كمبردج على استعداد لنشرها . وعندما علمنا بأن رئيس الأساقفة كان بصدد إنشاء مكتبة جديدة فى الدير لحفظ المخطوطات، وعدته السيدة (لويس) بإرسال صندوق لحفظ المخطوطة السريانية (وقد قامت بالفعل بإرسال صندوق مصنوع من خشب الماهوجنى الأسبانى إلا أنى لم أجد له أى أثر فى الدير عند زيارتى له » .

وأهم عمل أنجزته البعثة البريطانية تمثل باستنساخ ثلثمائة صفحة من المخطوطة السريانية ، ويبدو أن البروفسور (بنسلى) حاول فى بادئ الأمر استنساخ المخطوطة داخل الدير ، ولكن السيدة (لويس) استطاعت إقناع الرهبان بالسماح لهم بنقل المخطوطة معهم إلى خيمتهم خارج جدران الدير لأن الضياء والنور كانا أفضل فى الخيمة منهما ضمن جدران الدير . وقد وزع العلماء العمل فيما بينهم . إذ قام ثلاثة منهم وهم : (بركت) و (بنسلى) و (راندل هاريس)، الذى التحق بهما فيما بعد، باستنساخ صفحات المخطوطة من خلال العمل لفترة ثلاث ساعات يوميًا بينما عكف عضوان آخران على تهيئة الأقلام وملء الحبر والرجوع إلى الكتاب المقدس والقواميس السريانية . وبعد فترة أنجزت البعثة البريطانية استنساخ المخطوطة .

وتسترجع السيدة (بنسلى) ذكرياتها قائلة : «تمّ نقل كلمة بعد كلمة وسطر بعد الآخر بمساعدة المكبرات ومواد كيميائية تساعد على إظهار الخطوط الأصلية للمخطوطة . وأخيراً نجحت البعثة فى إظهار الأناجيل إلى النور بعد أن اختفت لفترة طويلة» .

وبدا منظر خيمة البعثة والعلم البريطانى يرفرف فوقها غريبًا بالنسبة للزوار الآخرين وفى تلك الفترة وصل إلى الدير ثلاثون حاجًا روسيًا . وقد قام هؤلاء الحجاج الذين مكثوا أسبوعًا فى الدير بتوجيه نظرات تعجب واستغراب إلى البعثة البريطانية . كما وصل المنطقة مجموعة من الرياضين الصيادين تركوا بطاقات مثبتة عليها أسماؤهم فى الخيمة عندما لم يجدوا أحدًا فيها .

وبطبيعة الحال ، أثار العمل الذى أنجزه العلماء البريطانيون دهشة الرهبان . وقد عزت السيدة (بنسلى) دهشتهم إلى جهلهم إذ كتبت تقول فى مذكراتها « عندما كان الرهبان يمرون عبر حدائقنا ، وهم فى طريقهم إلى مزارعهم ، كانت الدهشة تبدو على سيمائهم عندما لاحظوا الاهتمام الكبير الذى أظهرهُ أعضاء البعثة بصفحات الرقائق الصفراء اللون التى فشل مالكوها فى قراءتها ولم يعيروها أهمية » .

وكانت البعثة قد قررت التوجه إلى القدس بعد إنجازها المهمة. وعندما حان وقت المغادرة وجد أعضاؤها أمامهم صفحات أخرى من المخطوطة تتطلب الإستنساخ ، فقرروا البقاء حتى يتم إستنساخ جميع الصفحات. وإزاء قرارهم هذا وجد الرهبان أنفسهم مضطرين إلى إرسال إثنين من الدجبلجة Dcchebelija . وجمل إلى القاهرة للتزود بالمؤونة لإطعام الضيوف . وعلقت السيدة (أجنس بنسلى) على ذلك بقولها : « كان أقرب مخزن للمؤونه يبعد مئتى ميل عن مقر بعثتنا » وأخيراً تم إنجاز العمل فى إستنساخ المخطوطة . وفى عام ١٨٩٤ أصدرت مطبعة جامعة كمبردج الأناجيل الأربعة باللغة السريانية . وظلت المخطوطة نفسها محفوظة فى مكتبة دير القديسة كاثرينا .

ونجح علماء جامعة كمبردج فى البرهنة على أن تاريخ المخطوطة السريانية يعود إلى القرن الخامس الميلادى . وبهذا يصبح تاريخ المخطوطة السريانية ، شأنها شأن المخطوطة السينائية ، أقدم من تاريخ الدير نفسه الذى حافظ عليهما عدة قرون .

وانزعج العلماء عندما وجدوا أن المخطوطة السريانية تتفق مع المخطوطة السينائية فى حذف قيامة المسيح فى نهاية إنجيل مرقس .

وكشفت طبعة المخطوطة السريانية العمى الثقافى للعديد من زوار الدير الغربيين ، أمثال السيدتان (بنسلى) و (لويس) اللتان لم تثمنا ضيافة الرهبان فى الوقت الذى قدمتا فيه براهين على رحابة صدور الرهبان بترحابهم بضيوفهم كما ورد فى رسالة السيدة «بنسلى» : « أظهر رئيس الأساقفة احتراماً كبيراً للزوار ، فقد أعطى كلاً منا علبة صغيرة تحتوى على العنب المجفف فى شجرة الطرفاء ، التى تشبه شجرة المن المذكورة فى العهد القديم ، وخاتماً ذهبياً صغيراً منقوشاً عليه شارة القديسة كاثرينا » . كما كشف العديد من الزوار الغربيين عن محدودية أفقهم الثقافى حين سخروا من الآباء المقدسين ، فقد كتبت السيدة (بنسلى) تقول : «قد يبدو لنا جمال الكنيسة مشوهاً بصور الرسل والشهداء البشعة أو المثبتة على الجدران ، والتى يعتز بها الرهبان ، باعتبارها هدايا من حجاج مشهورين ».

ويبدو أن السيدة (بنسلى) لم تكن تدرك أن هذه الصور المشوهة كما وصفتها تمثل أعظم مجموعة للأيقونات المسيحية فى العالم . وقد شارك زوار غربيون آخرون جهل السيدة (بنسلى) فى أهمية تلك الأيقونات . مثل السيد (جاردنر ويلكنسن) الذى وصف الكنيسة عام ١٨٤٣ قائلاً : « هناك صور بشعة للقديسين شوهت جدران الكنيسة » . ويمكن القول هنا أن جهل أولئك الزوار بالقيمة الأثرية لتلك الأيقونات كان من حسن حظ الرهبان . فلو أدركوا

قيمتها الأثرية لكانوا جردوا الدير كنوزهُ النفيسة . إلا أن أحد زوار الدير الروس الذى زار الدير فى منتصف القرن التاسع عشر ويُدعى (بورفيروس أوزبنسكى) أدرك قيمة تلك الأيقونات إذ عـاد بأربـع منها إلى روسيـا . والأيقونـات الأربـع هذه معـروضة اليـوم فى أحد متاحف «كييف» . وتعتبر أقدم الأيقونات فى العالم من مجموع سبع . أما الأيقونات الثلاث الأخريات فما تزال محفوظة فى دير القديسة كاثرينا.

وهكذا نرى أن اكتشاف المخطوطة السريانية فى دير القديسة كاثرينا قد غطى على المكتشفات المهمة الأخرى ، ويضمنها مكتشفات عام ١٩٧٥ ويبدو أن شهرة الدير باحتوائه على مخطوطات نفيسة غطى لفترة ما على المكتشفات الأخرى ويضمنها العثور على شذرات من الرقائق التى أحدثت ثورة فى نظرتنا واعتقادنا بالبيئة التى كانت تحيط بآبائنا المسيحيين الأوائل .

وقد أدى اكتشاف الرقائق والمخطوطات إلى تدفق الكثير من الزوار إلى جبل سيناء وذلك فى القرن التاسع عشر وإلى إنشاء مؤسسة المكتشفات البريطانية المصرية عام ١٨٨٢ . وقد ساهمت السيدة (إميليا أدوردز) بسخاء في تمويل المؤسسة ، فخصصت مقعداً للدراسات المصرية فى جامعة لندن . وبناء على الرغبة التى أبدتها تم تعين السيد (فلندر بترى) كأول أستاذ فى تلك الكلية . واستطاع الأستاذ (بترى) بعمله الدءوب فتح الآفاق أمام الأساتذة الآخرين مما شجع الأستاذ (بى . بى . جرنفل B . P . Grenfell) والأستاذ (أ . أس . هانت A . S . Huut) بالتنقيب والبحث فى الضفة الغربية من وادى النيل فى منطقة البهنسية التى تمثل الموقع القديم (لأوكسرنجس Oxyrinchus) . وتعتبر هذه المنطقة الأثرية موقعاً فريداً من نوعه للعثور على مخطوطات جديدة للكتاب المقدس . ولم يصب الأستاذان بخيبة أمل . وقد وصف (Gibbon) المنطقة بأنها مركز ذو تأثير كبير على المسيحية الأرثذوكسية . فقد كرس سكانها أنفسهم فى ذلك الحين لأعمال البر والتقوى والإحسان . كان أسقف تلك المدينة البهنسيـة مسئولاً عن اثنتى عشـره كنيسـة ضمت عشرة آلاف راهبة وعشرين ألف راهب فى فترة القديـس (أنطونيوس) وعند وصول الأستاذيـن (هانت) و (جرنفل) إلى الموقع بدأ التنقيب فى أكـوام التـراب التى كانت فى يوم ما موقعاً لمدينة مسيحية مشهورة . واكتشف الأستاذان أعداداً كبيرة من قطع البردى ، يعود تاريخها إلى فترة العهد المسيحى الأول . كما عثرا على ثلاثمائه نص لمخطوطات يونانية . وبادرا إلى صنع صناديق خاصة للحفاظ على تلك الثروة النفيسة . وما تزال بعض تلك المخطوطات محفوظة فى تلك الصناديق حتى يومنا هذا . ولا

يمكن حل رموزها ونشرها حتى القرن الحادى والعشرين . وتمكن الأستاذان من الإشارة إلى نص مهم ورد فى إحدى صفحات البردى ، تحتوى على أقوال المسيح . وجاءت تلك الأقوال مشابهة للأناجيل الكنيسية رغم عدم تطابقها وإياها .

وإننا لندرك اليوم ، بعد العثور على مخطوطة أخرى فى موقع (نجع حمادى) الذى يقع على ضفاف النيل (تقع مدينة نجع حمادى على بعد خمسة وسبعين ميلاً شمال الاقصر) ، أن صفحات البردى (أوكسير ينجس Oxyrinchus) المكتشفة عام ١٨٩٧ كانت جزءاً من إنجيل «توما» . وهناك إحتمال أن يكون إنجيل «توما» قد دون عام ١٤٠ ميلادية أو قبل ذلك التاريخ ويحتوى ذلك الإنجيل على مئة وأربعة عشر قولاً للمسيح ومقدمة تبين أهمية الأقوال . وتشير المقدمة إلى أن الفضل فى حفظ تلك الأقوال يعود إلى أحد تلامذة المسيح الذى كان يُدعى (ديديموس جود توما Didymus Gude Thomas) .

إن الإنجيل المكتشف فى (نجع حمادى) محفوظ الآن فى المتحف القبطى القديم الذى يقع فى إحدى الضواحي القديمة فى القاهرة . وليس هناك أدنى شك فى أن الإنجيل لم يكن قد دون من قبل القديس (ديديموس) ، إذ كانت مثل تلك النصوص تهمل فى الأزمان الغامرة من قبل الكنيسة الأرثوكسية لعدم اعترافها سوى بالنصوص المدونة من قبل الرُسل . ولا تعترف الكنيسة الأرثوكسية بالنصوص التى تُنسب إلى الرُسل . ولا يحاول الأساتذه اليوم الإصرار على كون إنجيلى «متى» و«يوحنا» قد سطرهما التلاميذ بالأسميْن أعلاه (متى ويوحنا) . بحيث ادعوا أن قسماً من رسائل العهد الجديد التى تُنسب إلى القديس «بولس» المكتوبة باللغة العبرية لم يسطرها فى الواقع القديس «بولس» بنفسه .

وليس من المهم اليوم أن يكون النص قد دُون من قبل الرُسل لأجل أن يكون النص معتمداً . إذ يحتوى إنجيل «توما» على سبيل المثال ، على أقوال جديدة عديدة للمسيح وكذلك على أثار اللغة الآرامية التى تحدث بها المسيح . لذا لا يمكن للكنيسة الأرثوكسية عدم الأخذ بالإنجيل بشكل آلى . وأعنى هنا بدون أى تفكير .

وظهرت فى القرون المسيحية الأول عدة أناجيل بدا بعضها يكتنفه الإبهام ، والقسم الآخر الإلهام . وورد فى قسم منها سرد عن طفولة المسيح وسنى مراهقته وتطرق قسمٌ منها إلى تجربته فى الشبول Hades (*) قبل قيامه .

(*) الشبول Hades : مثول الأموات فى الميثولوجيا الاغريقية

والأمر الذى أثار اهتمام العديد من العلماء، أكثر من المكتشفات التى عثروا عليها، إمكانية إلحاق شواهد المخطوطات العظيمة - السينائية والاسكندرانية وغيرها بنص العهد الجديد ، عن طريق نصوص أقدم مثل : شذرات المخطوطة المقدسة المدونه على صفحات البردى التى تم الحفاظ عليها قرونًا عديدة .

ينمو ورق البردى فى المياه الضحلة فى النيل بكميات كبيرة ، وكان المصريون القدامى يقطعون غصن البردى ويفتحونه . وبعد تقطيعه إلى قطع يقومون بضرب الواحدة بالأخرى . ويستخدمون عادة الجانب الأملس للكتابة مع أن بعض النساخين كانوا يسطرون كتاباتهم على الجانبين الأملس والخشن . ويقومون بربط قطع البردى مع بعضها لتأخذ شكل بكرة ملف » ثم تلف حول مغزل Speudle ، ويطلق عليها اسم الدوارة . ولا يتجاوز طول البكرة عادة ثلاثة أمتار . ولهذا السبب يستبعد احتواء الدوارة على الكتاب المقدس . كما أن إنجيل «لوقا» وأعمال الرُسل ، كانت تحتاج كل منهما إلى بكرة كاملة . ولم تكن قراءة البكرة بالعمل السهل. حيث يتطلب من القارىء مسك المغزل بإحدى يديه وفتح ملف البردى باليد الأخرى ليتمكن من قراءتها وكان النص يدون عادة على هيئة أعمدة دقيقة تشبه ، إلى حدٍ بعيد ، الأعمدة المدونة فى صحف اليوم . ولهذا السبب تمتعت المخطوطات بشعبية واسعة لاحتوائها على صفحات عديدة مثبتة مع بعضها بواسطة خيط وقدرتها على استيعاب مادة أوسع وإمكانية الكتابة على صفحتى الورقة خلافًا لما هو عليه الأمر فى الرقائق . إضافة إلى سهولة تهريب المخطوطة عند الضرورة وخاصة فى فترة الاضطهاد التى تعرض لها المسيحيون وذلك بإخفائها فى أكمامهم.

وليس من المستبعد أن تكون الشذرات الثمانى من الكتاب المقدس المكتشفة فى مصر والتى يعود تاريخها إلى القرن الثانى الميلادى ، جزءًا من المخطوطات ويتألف أقدم نص للعهد القديم ، المعروض حاليًا فى مكتبة جامعة (جون ريلاند) فى (مانجستر) من أربع شذرات متهرئة كانت ملفوفة على إحدى المومياوات المصرية لعدة قرون . وقد اكتشفت عام ١٩٣٦ . ويُذكر أنها تعود إلى القرن الثانى قبل ظهور المسيح إعتمادًا فى التقدير على خط اليد الذى دونت بها تلك المخطوطة . ومن خلال تلك الشذرات تمكنا فى الوصول إلى منفذ إلى بعض آيات السفر الرابع من العهد القديم المدونة باللغة العبرية القديمة .

كما تحتفظ مكتبة جامعة (جون ريلاند) فى (مانجستر) بشذرات من العهد الجديد مدونة على صفحات من البردى لا يتجاوز حجم الشذرة منها حجم كف اليد وتحتوى على آيات من إنجيل يوحنا (٣١ - ٣٣) و (٣٧ ، ٣٨) من الإصحاح (١٨) . ويعود تاريخ هذه الشذرة

إلى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى . وقد تكون تلك أهم حقيقة تدور حول تلك الشذرات برهنت على أن إنجيل «يوحنا» كتب ووزع على نحو واسع منذ فترة زمنية قديمة ، أقدم من تصور العديد من العلماء . والشذرات هذه من إنجيل «يوحنا» هى جزء من مجموعة نفيسة من صفحات البردى إقتناها (جستر بيتى Ghester Beatty) الأمريكى الجنسية من مصر عام ١٩٣٠ . وتحتوى الشذرات على أجزاء من إنجيل «متى» و«يوحنا» وست صفحات من إنجيل «مرقس» وسبع صفحات من إنجيل «لوقا» وثلاث عشرة فقرة من أفعال المسيح .

كما تحتوى على فقرات من رسائل القديس «بولس» وسفر الرؤيا ثم تمكنت جامعة ميتشجان من الحصول على مجموعة أكبر من رسائل القديس «بولس» المدونه على صفحات البردى فى بداية القرن الثالث الميلادى وكذلك على إثنتين وثلاثين صفحة من سفر الرؤيا الذى احتوى على الآيات الآتية : الآية عشرة من الإصحاح التاسع وحتى الآية الثانية من الإصحاح السابع عشر . كما تمكنت مكتبة (بودمبير) فى جنييف من الحصول على شذرات من صفحات البردى من صعيد مصر بضمنها أربعة عشر إصحاحًا من إنجيل «يوحنا» .

ورغم الآمال التى علقها العديد من الباحثين والمنقبين لم تتمكن هذه المكتشفات المهمة من احتلال مكانة المخطوطة السينائية وغيرها من المخطوطات الأخرى، وتتألف المخطوطات التى تضم العهد الجديد باللغة اليونانية من حوالى عشرين مادة . ويعود تاريخ هذه المخطوطات إلى فترات أقدم من تاريخ المخطوطة السينائية . ومعظم تلك المخطوطات عُثر عليها فى مصر على شكل شذرات . وتحتوى على أجزاء من الأناجيل الكنسية القانونية الأربعة ومعظم كتابات القديس «بولس». كما تحتوى على جزء من أفعال المسيح (ثلث سفر الرؤيا). إلا أننا لا نجد أى أثر إلى تسع رسائل من العهد الجديد فى أية مخطوطة تعود إلى القرن الثالث الميلادى .

والأمر الذى يدعو إلى الحزن ، هو بذرة العثور على مخطوطتين من ذلك التاريخ متداخلتين. ولهذا فإن الفرصة التى وفرتها لنا المخطوطتان السينائية والفاتيكانية للمقارنة كانت ثمينة . كشهادتهما بشأن نهاية إنجيل «مرقس» التى لا توفرها لنا شذرات المخطوطات الأقدم منها .

وفى الحقيقة هناك فقرات من إنجيل «يوحنا» محفوظة فى تلك الشذرات القديمة أكثر من أى رسالة أخرى من العهد الجديد .

وفى يوم ما كانت صفحات البردى المحفوظة فى مكتبة (بودميير) فى جنيف تتألف من تسعة وثلاثين صفحة من البردى تطوى بعضها على بعض ، مؤلفة بذلك مخطوطة مكونة من مئة وست وخمسين صفحة ، واليوم لدينا خمس وسبعون صفحة وتسع وثلاثون شذرة من المخطوطات. ويختلف العلماء فى تحديد تاريخ تلك الصفحات إذ يرجعها بعضهن إلى عام ٢٠٠ ميلادية ويحاول البعض الآخر مدعيًا بأن المخطوطة قد دونت فى النصف الأول من القرن الثانى الميلادى .

ويمكننا قراءة النص السليم لإنجيل «يوحنا» فى المخطوطات المحفوظة فى مكتبة (بودميير) خاصة فى قسم الأول حيث تحول القسم الأخير منه . وعندما نُشر هذا النص لوحظ بأنه يسند المخطوطة السينائية أكثر من أى مخطوطات سليمة أخرى .

وهكذا نرى أن البرهنة على عظمة المخطوطات قد تم إكمالها لا استبدالها بالشذرات المكتشفة حديثًا. وأن الطبيعة الثورية للمخطوطة السينائية فيما يخص قيامة المسيح لم يتم الاعتراف بها بشكل واضح وما يزال عالم اللاهوت والدين المسيحى فى إنتظار مكتشفات عظيمة أخرى .

الفصل الثامن

مخطوطات البحر الميت
والاناجيل الغنوصية

إذا لم تتطابق شذرات صفحات البردى التى اكتشفها الأثاريون المختصون بعلم اللاهوت مع الرؤية التى قدمها «تشيندروف» فى المخطوطة السينائية فإن مخطوطات البحر الميت التى تم اكتشافها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية تتطابق دون شك مع تلك الرؤية . ففى أوائل عام ١٩٤٧ وبينما كان راعيان شابان يرعيان مواشيهما فى السفوح المحاذية للبحر الميت بالقرب من (قمران Qumran)، سرحت إحدى المواشى وبينما كانا يفتشان عن تلك الماشيه شاهدا مغارة بين إحدى الصخور وعندما رمى أحدهما حجرًا فى تلك المغارة سمع شيئًا ينكسر داخل تلك المغارة .

وفى بدء الأمر خاف الراعيان فهربا من الموقع وفى طريق عودتهما إلى قطيع المواشى تسلق أحدهما الصخرة وعندما دخل المغارة وجد بكرات من الجلد القديم المتهرىء محفوظة داخل جرة اسطوانية الشكل . هكذا تم اكتشاف أول مخطوطة للبحر الميت .

ووصلت هذه المخطوطات بمساعدة بعض أفراد القبائل البدوية إلى تجار الآثار فى بيت لحم الذين بادروا إلى بيع إحداها إلى المتحف السريانى الأرثوكسى فى القدس . واشترت الجامعة العبرية المخطوطة الثانية .

وفى إبريل (نيسان) من عام ١٩٤٨ أعلنت المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية فى القدس عن ذلك الاكتشاف. وفى تلك الأثناء كانت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى قد اندلعت، فتم تأجيل التنقيب حتى منتصف شهر فبراير (شباط) من عام ١٩٤٨. وفى ذلك العام تم اكتشاف سبعين مخطوطة أخرى. وبعد مرور سنتين أدرك العلماء أن الراعيين وطآ بأقدامهما على إحدى مراكز التجمعات السكنية للأسينيين Essenes) الذين قطنوا ضواحى (قمران) لفترة قرنين من الزمن وذلك قبل سنة ٦٨ ميلادية .

وقد أشار المؤرخ الرومانى (يلينيوس الصغير) وذلك سنة ٦١ ميلادية إلى وجود مثل تلك التجمعات التى قطنت (أريحا) و (عين جدى En Gedi). وهناك إحتمال بأن تكون تلك المخطوطات قد جاءت من الرجال والنساء الذين وصفهم فى كتاباته .

وكانت تجمعات (الأسينيين) تتمتع بالاكتفاء الذاتى. وهى جماعة روحية من اليهود الاتقياء عاشت قبل ميلادية المسيح بمائة وخمسين سنة. ولكونهم كانوا يمثلون جزءًا من الإنبعاث القومى اليهودى فى ظل حكم المكابيين، فقد ازداد تطلعهم نحو اليوم الذى يظهر فيه المسيح، شأنهم شأن اليهود الآخرين فى ذلك الوقت ، وكذلك شأن المسيحيين الأوائل . إذ كان

(الأسينيون) يجتمعون لتناول الطعام الذين تكهن بعشاء الأفراد المنتخبين للمسيح كما اقتبسوا نصوص العهد القديم نفسها. كما فعل المسيحيون الذين بحثوا عن المسيح. كما أن القرار الذى اتخذوه للانشقاق عن بقية اليهود اعتمد بشكل واضح على نصوص من الآية (٣) ، الإصحاح (٤٠) من سفر أشعيا والتى جاء فيها : « فى الصحراء هيئوا الطريق للرب ، وفى الصحراء عبدوا الطريق إلى الله » - وهو النص نفسه الذى اقتبسه «يوحنا المعمدان» عندما كان يُبشر فى برية «يهوذا» عند ظهور المسيح .

وتنافس البدو والعلماء فى محاولة العثور على مخطوطات أخرى فى منطقة البحر الميت. وقد أثار اكتشاف البدو لمغارة أخرى بالقرب من المغارة الأولى وذلك فى فبراير (شباط) فى عام ١٩٥٢، غيرة العلماء مما دفعهم لمعاودة نشاطهم مرة أخرى . وفى الشهر الذى تلاه ، أى فى مارس (آزار) من عام ١٩٥٢ بدأ الأكاديميون التنقيب فى مئتى صومعة أخرى فاكتشفوا بكرات من النحاس الرقيق المطروق نقش عليها إثنا عشر عموداً فيها وصف لكنوز إسرائيل القديمة وأماكن إخفائها فى فلسطين .

واستمر البدو فى تنقيبهم خلال العام نفسه فاكتشفوا صوامع أخرى وقطعًا من المخطوطات . وفى يناير (كانون الثانى) من عام ١٩٥٦ عثروا على مخطوطات فى إحدى الصوامع غير المنقب فيها محفوظة بشكل جيد وواصل العلماء التنقيب عندما وجدوا أن لديهم نصوص العهد القديم وتفسيرات لتلك النصوص ووثائق غير معروفة ، ويضمنها رواية الحرب الدائرة بين أبناء الظلام وأبناء النور وأجزاء حول سفر أيوب وجميع الكتب اليهودية . وتضم مخطوطات البحر الميت الآلاف من نصوص العهد القديم وشذرات من المخطوطات .

ويبدو أن نصوص الكتاب المقدس كانت ذات أهمية فى إيضاح النصوص اليهودية - العهد القديم عند المسيحين - إذ مثلت النصوص غير الإنجيلية أهمية كبرى لدى المسيحين أيضًا، إضافة للمعلومات الغنية التى وفرتها حول الطائفة المعنية التى تركتها فى ذلك الموقع عند ظهور المسيحية. ويشترك الأسينيون والمسيحيون الأوائل فى القنوات اللاهوتية نفسها. إذ يمكن العثور على مرادفات لبعض كلمات وجمل الأناجيل فى مخطوطات البحر الميت. وقد برهنت إحدى تلك الأفكار على وجود تشابه كبير بشكل ملفت للنظر. وأحد أوجه التشابه كشف مخطوطات البحر الميت بأن الطائفة كان يتزعمها خلال فترة وجودها القصير معلم يطلقون عليه اسم « المعلم الصادق ». ويمكن أن يكون هذا المعلم مرتبطًا بالمسيح نفسه . وقد سبق للمسيحيين الأوائل أن ربطوا يسوع بالمسيح بذلك ويبدو أن (المعلم الصادق) قد أُضطهد من

قبل (الراهب الشرير) وذلك فى فترة (إسكندر جانبوس) (١٠٣ - ٧٦) قبل الميلاد . واختلف العلماء فى إجاباتهم حول مصير (المعلم الصادق) وعما إذا كان (الراهب الشرير) قد أمر بإعدامه . وقد عمت أوساط الأكاديميين الفرنسيين وجهة النظر هذه ، فى الوقت الذى ينكرها فيه الآخرون بشدة ، معتمدين فى دعمهم لوجهة النظر هذه على :

- البراهين المتوفرة فى نصوص مخطوطات البحر الميت .
- وخشيتهم من عدم إثبات التشابه بين (المعلم الصادق) و (المسيح) بشكل قاطع .

ورغم التشابه بين يسوع و (المعلم الصادق) وندرة العثور على المسيحية الأولى، إلا أنه ليس هناك أدنى شك بأن اكتشاف مخطوطات البحر الميت قد قللت من أهمية كون المسيحية الأولى فريدة من نوعها ، وذلك لوجود موضوعات ولغة وتقاليد وعادات مشتركة ، مما يدل على أن المسيحية والأسينين كانوا يستجيبون للدوافع الدينية نفسها والموجودة فى اليهودية التى عاصرت تلك الحقبة من الزمن. وإحدى الشخصيات التى رحبت بإمكانية نجاح مخطوطات البحر الميت بإقناع المسيحيين ودفعهم للتخلى عن دعواهم بأنهم مبالغون فى تديين التاريخ هو الكاتب الأمريكى (ادموند ويلسن) الذى أعلن : « أنه من المفيد ثقافياً واجتماعياً فهم ظهور المسيحية على أنها مجرد حقبة فى التاريخ الإنسانى بدلاً من المناداة بها على أنها مذهب ذو رؤى سماوية . وسيعود ذلك دون أدنى شك بالفائدة على الحضارة »

وأضاف : « إن دراسة مخطوطات البحر الميت - بالاتجاه الذى تعالج به الآن - لا يمكن أن تفشل فى البرهنة على صحة وجهة النظر هذه » .

وبالغ الكاتب (جى . أم . اليجرو) الذى ساعد فى نشر بعض نصوص المخطوطات عندما أعلن : « لقد خف الحماس الذى قوبلت به المخطوطات عند اكتشافها، بما أن قدرتها على التقليل من فرادة وأصالة المسيحية قد تجلت للمسيحيين والعلماء والأشخاص العادين». ويمكن الترحاب برأية فيما يخص الاكتشاف فى موقع ناجع حمادى على ضفاف النيل . إذ تم اكتشاف ثلاثة عشر سفراً مترجماً إلى اللغة القبطية، على ضفاف النيل تعود إلى فترة المذهب المسيحى الغنوصى الأول. وينفعنا موضوع العثور على نصوص مسيحية مدونه على البردى تعود لعهود قديمة حفظت عبر القرون إلى إعادة تثمين وتقييم المسيحية الأولى والمسيح أكثر مما يتيحة ما ورد فى مخطوطات البحر الميت من تقييم .

على سبيل المثال، إن أولى شذرات البردى المكتشفة الموجودة لدينا والتى لها علاقة

بالمسيح هى شذرات من إنجيل يختلف عن أناجيل (**متى ومرقس ولوقا ويوحنا**) وبعد عرضها فى المكتبة البريطانية وجدنا أن الشذرات صفحتين، وتؤلف شذرة صغيرة متهرئة جزء من الصفحة الثالثة. ورغم صغر حجم الشذرات هذه إلا أنها تمثل أهمية بالغة بالنسبة لعلم اللاهوت .

وتتضمن هذا الشذرات من الإنجيل بعض أقوال المسيح . وعند مقارنة نصوصها مع أناجيل (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) نجد وجود اختلاف فى بناء الجمل. كما تحتوى هذه الشذرات على سرد لمعجزة قام بها المسيح على ضفاف نهر الأردن ، ليس لها أية إشارة فى أى مكان آخر من الأدبيات المسيحية . ويبدو هذا الإنجيل غير المعروف الذى يعود تاريخه إلى القرون الأولى للحقبة المسيحية ثانويًا بالنسبة للعهد الجديد كما نعرفة اليوم مما يدفعنا إلى التساؤل ما الذى نعنيه عندما نقول مخطوطات مقدسة مسندة وغير مسندة . كما يعود بنا هذا الإنجيل غير المتداول إلى المخطوطة السينائية التى اكتشفها «**تشيندروف**» فى دير القديسة كاثرينا. إذ تحتوى المخطوطة السينائية على جزء من رسائل «**راعى هرماس**» إضافة إلى النص الكامل للكتاب المقدس ورسائل «**بارنابا**»، كما يدفعنا إلى التساؤل كيف أدرجت فى تلك المخطوطة ؟ وبأى حق أدرجت فيها ؟ والسبب وراء اختفائها من الكتب المقدسة المسيحية اللاحقة ؟

وكان «**تشيندروف**» نفسه قد استغرب عندما لاحظ أن رسائل «**بارنابا**» مدرجة فى رقائق المخطوطة عندما كان يفحصها فى حجرته فى دير القديسة كاثرينا. ولقد كانت الرسالة معروفة من قبل العلماء لفترة قرنين ولكن الفصول الأربعة الأولى اختفت فى جميع النسخ اليونانية فى أوروبا. وكان نص الرسالة معروفًا فى نصى لاتينى مشوّه. وعندما لاحظ «**تشيندروف**» النص مدونًا فى مخطوطته الثمينة اعتقد بأنه اكتشف النص كاملاً فى نسخته اليونانية الأصلية. ولم يحاول «**تشيندروف**» عند تحقيقة النص منحها الأهمية التى تستحقها. إذ بدت مفيدة له واستخدمها كوسيلة للدفاع عن التاريخ الأول لإنجيل «**متى**»، رغم إدراكه أن رسائل «**بارنابا**» كانت رسائل مسيحية قديمة دون أدنى شك. وفى إحدى المرات استشهد المؤلف بالآية (١٦) من الإصحاح (٢٠) والآية (١٤) من الإصحاح (٢٢) من إنجيل «**متى**» عند كتابته الإصحاحات الأربعة الأولى . ويعمله هذا استخدم الفقرة الآتية : « إنها مدونة » .

ويشير موقف «**تشيندروف**» هذا وغيره من المؤمنين إلى أن «**متى**» اعتبر فى إحدى المراحل الأولى على أنه ناسخ محول وقيمّت كتاباته بالدرجة نفسها التى قُيّمت بها نصوص

العهد القديم . ويؤثر هذا بوضوح – إذا صح ذلك – المرحلة المهمة التى مررنا بها عند محاولة معرفة الطريقة التى عرفّت بها الكنيسة الأولى ماورد فى العهد الجديد. وما هى الأشياء التى أستُثنييت .

وتمثلت المشكلة التى برزت أمامنا بوقوع ذلك الاستشهاد من قبل «بارنابا» فى الفصول التى تضمنتها الترجمة اللاتينية المشوهة . فهل يقبل أى شخص بأن تنص الوثيقة الأصلية على النصوص نفسها ؟ لقد جاءت إجابات البعض بالنفى عن هذا التساؤل . وكان من ضمن تلك الشخصيات التى أجابت بالنفى ، الدكتور (كارل أوجست كريندير Dr Korl Aufusl Frender) الألمانى الجنسية من جامعة (جيسن Giessen) والذى كتب عام ١٨٣٢ يقول : « لا يظهر التعبير المختلف عليه فى النص اليونانى » .

أما «تشيندروف» فقد عثر على الاستشهاد عندما كان عاكفًا فى حجرته فى دير القديسة كاثرينا على دراسة رسائل «برنابا»، وابتهج عندما أدرك أن الدكتور (كريندير) كان على خطأ .

واكتفى «تشيندروف» بدراسة رسائل «برنابا». فلم يحاول مثلاً أن يؤمن بصحتها. وحدث الشيء نفسه بالنسبه إلى رسائل «راعى هرماس». كما لم يحاول «تشيندروف» أن يتساءل مع نفسه عن سبب إحتواء المخطوطة السينائية على تلك الرسائل، التى اعتقد مؤلفوها القدماء بأنها تحتوى النص الكامل الموثق للكتاب المقدس .

أما القانون (Canon) الكنيسى للمخطوطة وأعنى هنا قائمة أسماء الكتب التى أُعتبرت ملهمة سماويًا وهى بهذا تمتلك سلطة الله حول الإيمان والحياة ، فقد ضمت بطبيعة الحال المخطوطات التى نعرفها بالعهد القديم ، وذلك بالنسبة لليهود ورغم عدم وجود اتفاق كامل حول هذا الموضوع .

وبرزت المشكلة عندما ظهرت أسفار حول المسيح وأفعال تلامذته اليومية وتوقعاتهم. فهناك احتمال أن تمتلك الكنائس المحلية إنجيلاً واحدًا – وقد لا يكون ذلك الإنجيل يمثل أناجيل «متى ومرقس ولوقا ويوحنا» – إلى جانب الكتابات الأخرى المنسوبه إلى تلامذة المسيح أو القديس «بولس». وإلى جانب هذه الرسائل نعرف أن هناك سردًا لأفعال تلامذة المسيح والقيامة – وقد تم اكتشاف رسالة يُذكر بأنها موجهة من بولس إلى اللاذقيين ورسالة ثالثة موجهة إلى القورنثيين. وفى عام ١٩٢٤ أصدر (مونتاخ رودس چيمس) طبعة أنيقة عن

الرسائل المشكوك بأمرها والتى كانت متداولة آنذاك. ومنذ ذلك الحين تم اكتشاف الشيء الكثير ولم يثر الاكتشاف العظيم فى نجع حمادى استغراب العلماء فقد كانت لديهم فكرة عن بعض تلك الكنوز وذلك من كتابات الآباء الأوائل - أما الرسائل الأخرى مثل رسالة يعقوب وحكمة المسيح فلم تكن معروفة من قبل. وظلت أعمال «بولس» التى سطرها قس من آسيا الصغرى حوالى عام ١٨٠ ميلادية مفقودة، حتى كشفت عنها تنقيبات نجع حمادى . وذكر الأب «ترتليان» فى أواخر القرن الثانى بأن سرد تلك الاعمال كان يتمتع بشعبية وأضاف الأب «ترتليان» أنه بالرغم من الشعبية التى حظيت بها كتابات ذلك القس فقد حط من درجته الكهنوتية .

وكان المسيحيون فى الكنيسة الأولى ينقلون العديد من الرسائل المشكوك بأمرها دون التمييز بينها وبين الكتابات الموثقة. وسوف لا يكفى التحقق من التاريخ (وأعنى هنا كون الرسائل الأولى القريبة إلى عهد المسيح هى موثقة أكثر من الرسائل اللاحقة) عندما نعد رسالة «بطرس الثانى» مثلاً المدرجة الآن فى القانون الكنيسى للعهد الجديد قد دونت فى فترة أعقبت الفترة التى كتبت فيها رسالة أسقف روما فى نهاية القرن الأول الميلادى القديس «أكليمنصص» .

وقبل قسم من الكتابات المسيحية فى بعض الأماكن فى العالم المسيحى ، ورفض فى أماكن أخرى. فقد رفضت القائمة التى يعود تاريخها إلى ٢٠٠ ميلادية التى يُطلق عليها القانون الكنيسى (موراتورى Muratovian) الرسالة الموجهة إلى العبرانيين وتُشير إلى أن العديد قد اعترضوا على سفر الرؤيا. وخطر أسقف إنطكية (سيرابيون Serapion) إنجيل «بطرس» الذى كان متداولاً فى (روسوس Rhossus) وذلك فى العقد الأخير من القرن الثانى الميلادى قبل أن يمنع تداوله تماماً. وفى القرن الرابع الميلادى أشار (أوزابيوس القيصرى) إلى أن رسائل «يعقوب ويهوداً وبطرس» الثانية والثالثة موجودة فى العهد الجديد وهى مقبولة فى معظم الكنائس المسيحية. وباختصار فإن القانون الكنيسى للعهد الجديد لم يكن شيئًا حاسمًا منحهُ الله دون نقاش بشكل واضح لجميع الرجال والنساء من ذوى التفكير الشديد. وخلاف ذلك هو الصحيح ، فإنه فى تطور دائم عبر القرون وبعض الأحيان على نحو غامض. وأحيانًا بدت النقاشات حول الكتب المسيحية باختلاف عناوينها متشابهة. كما اشتملت فى أحيان أخرى على النزاعات الناشبة عن طموحات الشخصيات المتنافسة. ومما يدعو إلى الأسف أن الخطر المتعمد على الكتب أدى إلى اختفاء العديد من الكتب التى نرغب بقراءتها

اليوم . ففى عام ٤٩٤ ميلادية أصدر البابا (جيلاسيوس الأول Gelasius I) مرسومًا شجب فيه أكثر من ستين كتابًا وثلاثين مؤلفًا .

ولقد كان (مونتاج رودس چيمس Montague Rhodes James) متفائلاً عندما قال : «إذا قرأ شخص أعمالاً منحولة إلى جانب نصوص العهد الجديد المقبول بها. فسرعان ما سنلاحظ أنه ليس هناك أدنى شك بأن يكون شخصٌ ما قد استبعدها من العهد الجديد. كما قامت الفئات المتناحرة فى الكنيسة باستبعاد نصوص مناوئيها .

وهناك احتمال العثور على نصوص مدهشة فى الكتابات المسيحية المنحولة قد تكون غير مقبولة . وفيما يأتى مثالان من إنجيل توما »

قال المسيح : « كل شخص لا يكره أباه وأمه على المضى فى طريقى لا يمكن أن يكون من تلامذتى . وكل امرأة تجعل من نفسها رجلا تدخل ملكوت السماء»

ووردت الكلمات الغريبة نفسها فى الحوار الذى دار بين المسيح وتلامذته . والذى ورد فى الإنجيل نفسه .

فقد سأله تلامذته : « متى ستكشف لنا عن شخصيتك ؟ ومتى سنراك ؟ »

أجاب المسيح : « عندما تخلعون ملابسكم عن جسدكم دون خجل مثل الأطفال الصغار وتضعونها على الأرض وتتخلون عنها . عندئذ ستتمكنون من مشاهدة ابن الحى الوحيد دون خوف »

وإحدى الوسائل فى تناول مثل هذه الفقرات هى نعتها وتجاهلها. إلا أن القانون الكنيسى للعهد الجديد لا يخلو : من العناصر الغريبة، إذا ما نظرنا إليه بروح القرن العشرين. والطريقة الأكثر حكمة هى دراسة الفقرات من خلال معانيها العميقة. هكذا كانت طريقة الكنيسة الأولى .

وينبغى إضافة ملاحظة ألا وهى : أنه لن يكون من الصعب العثور على جمل تبدو مفاجئة وغير مقبولة للوهلة الأولى فى الأناجيل الأربعة وفى إنجيل «توما» أيضًا .

وسرعان ما أدى الخلاف الذى كان دائرًا بين المسيحيين واليهود فى الأيام الأولى من انتشار العقيدة المسيحية إلى ظهور الشكوك حول مكانة بعض الكتابات المسيحية. إذ اعتقد أحد الأشخاص المسيحيين، وكان يُدعى (مرقيون Marcion)، بأن الأدبيات المسيحية الأولى قد أفسدتها الأفكار اليهودية. وقد اتهم (مرقيون) فيما بعد بالهرطقة. ورفض (مرقيون) القبول

بأى إنجيل آخر بجانب إنجيل «لوقا». كما آمن برسائل «بولس» العشرة وعدها خالية من الأفكار اليهودية . ورغم تمتع وجهات نظر (مرقيون) بشعبية ، إلا أن العديد من المسيحيين خالفوه الرأى . وظهرت الخطوات الأولى لإنجاز قائمة الكتابات المسيحية الموثقه بين الأشخاص الذين أرادوا معارضة (مرقيون) . وناقش أسقف ليون القديس (أيريناوس Irenaeus) الذى توفى عام ٢٠٠ ميلادية الموضوع بقوله : «مثلما توجد أربع رياح فيجب أن تكون هناك أربعة أناجيل مسندة ».

ويبدو نقاشة هذا غير مقبول فى الوقت الحاضر. وأنجز مسيحيون آخرون القوائم الخاصة بالأسفار الملهمة سماويًا، وبأسفار مفيدة للقراءات المسيحية. وكان هناك نقاش وخلاف . حول هذا الموضوع استمر عدة سنوات .

وفى الحقيقة فإن القائمة الأولى المدونة من قبل أى شخص ذى سلطة فى الكنيسة والتى احتوت على جميع الأسفار السبعة والعشرين للعهد الجديد الموجودة بين أيدينا اليوم، كانت قد كتبت عام ٣٦٧ ميلادية. ففى ذلك العام أخبر البطريرك (اثناسيوس الاسكندرى Athansius) أسقف مصر بضرورة اعتبار الأسفار السبعة والعشرين قانونية .

مضيفًا : حتى السفران الآخران (أحدهما رسائل راعى هرماس) فيجب اعتبارهما مفيدين لإرشاد المبتدئين فى العقيدة. ولفترة أربعمائه سنة رفض العديد من الأشخاص فى الشرق القبول بآخر أسفار البطريرك أثناسيوس القانونية الكنيسة والذى يدور حول الرؤيا على أنه نتاج إلهام سماوى . وضمت المخطوطة السينائيه التى دونت بسنوات رسالة (أثناسيوس) سفرين آخرين إضافة إلى الأسفار التى أبدى (أثناسيوس) استعداده لاعتبارها قانونية كنسيًا . ورغم ذلك فلقد اعتبر القديس (إيريناوس Irenaeus) رسائل راعى هرماس على أنها ملهمة . واقتبس «**أكليمنصص**» الرومانى تلك الكلمات وبدا مقتنعًا بها. أما معلم أوريجن فقد وصف الكلمات بقولة : « إنها مفيدة جدًا وأعتقد أنها ملهمة » .

كما حظت رسائل (برنابا) بمثل ذلك التقدير والاهتمام وعقب (ترتليان) على ذلك بقولة : لم تكن مقبولة، ولكن». وغالبًا ما أقتبس عنها معلم أورنجن «**أكليمنصص الاسكندرانى**» الذى بدا مقتنعًا بالكلمات التى وردت فيها. وحتى القرن السادس الميلادى قدمت مخطوطة الكلارمونتانية Clarmontanus) قائمة بأسماء أسفار العهدين القديم والجديد. وقد حذفت القائمة الرسالة الموجهة إلى العبرانيين ووضعت رسالة (برنابا) بين يهوذا وكتاب الرؤيا .

وعندما حاول (بروك فوس ويستكوت) فى القرن التاسع عشر أخذ رسائل (برنابا) بعين

الاعتبار، حاول العديد التقليل من أهميتها بالإدعاء بأنها أعمال متأخرة، وعليه فذات قيمة لا تذكر بالنسبة لمعتقدات المسيحيين الأوائل. ورفض (ويستكوت) القبول بوجهات النظر تلك. إذ قال : «لا يمكن دعم النقاشات الموجهة ضد ادعاءات رسائل «برنابا» باعتبارها أعمال الفترة المسيحية الأولى» وأضاف قائلاً : «في الوقت الذي تم فيه إثبات قدم تلك الرسائل بشكل ثابت ، فليس هناك أدنى شك حول رسوليتها » .

(برنابا) رسول يهودي من قبرص ، يُعتبر من أوائل المهتدين إلى الكنيسة المسيحية . وهو الذي عرّف القديس «بولس» بالعقيدة المسيحية بعد أن اهتدى مضطهد المسيحيين نفسه إلى العقيدة عندما كان في طريقة إلى دمشق. وصاحب (برنابا) «بولس» في أول رحلة تبشيرية له . ويشير «بولس» إلى (برنابا) في رسائله . وتتناسب الرسالة المنسوبة لهُ في بعض الأماكن المؤلف الذي كان مهتماً بالعلاقة بين اليهود والمسيحيين .

ويعتقد (ترتليان) بأن الشخص الذي كتب رسالته (برنابا) هو الشخص نفسه الذي كتب الرسالة الموجهة إلى العبرانيين والتي تتضمنها قانونية العهد الجديد. وتعارض رسالة (برنابا) الأشخاص الذين اعتقدوا بأن الاتفاق بين الله واليهود والذي ورد في العهد القديم لا يزال يخص اليهود والمسيحيين، وتُناقش رسالة (برنابا) ذلك بقولها : «إن اليهود فقدوا الحظوة عند الله بسبب وثنيتهم» وعقب (برنابا) على ذلك بقولة : «إن اليهود كانوا يعبدون العجل الذهبي حتى قبل هبوط موسى من جبل سيناء». وادعى : أن العهد القديم يعد وثيقة مسيحية أكثر من كونه وثيقة يهودية. ويجد (برنابا) فيه رموزاً مسيحية مثل الصليب والتعميد المسيحي. ويناقش ذلك بقولة إن القانون الموسوي والتراتيل والأنبياء تشير جميعها بشكل مباشر إلى المسيح والسؤال هو عما إذا كانت الرسالة قد كتبها رفيق «بولس» (ويُقصد هنا برنابا) يعتمد إلى درجة ما على الفترة التي دونت فيها تلك الرسالة. يذكر البعض بأنها تعود إلى سبعينيات القرن الأول الميلادي لأن (برنابا) يشير إلى نبواءات غامضة وردت في العهد القديم ، يدعي بأنها تحققت في عهده. ويدعم هذا الافتراض اقتباس الرسالة نبوءة أشعيا Isaiau حول الهيكل التي جاء فيها : « إن الذين يهدمون هذا الهيكل يتقدمون بإعادة بنائه » .

ويُعلق «برنابا» على ذلك بقولة : وهذا ما يحدث الآن لأن الهيكل قد هدمهُ الأعداء عند اندلاع الحرب والآن يعكف الجميع حتى خدم الأعداء على إعادة بنائه » .

ويتطابق مثل هذا التصريح مع أقوال شخص شاهد تدمير القدس على أيدي الرومان عام ٧٠ ميلادية إلا أنهُ ينطبق في الوقت نفسه على أحداث عام ١٣٢ ميلادية عندما كان اليهود

يأملون استعادة بناء الهيكل بادر (باركوكبا Bar - Cochba) بإثارة سكان فلسطين ضد الرومان .

وبصرف النظر عن الفترة التى دونت فيها رسالة (برنابا) ، فليس هناك أدنى شك فى أنها أثارت ومضات مثيرة فى أذهان قسم من أوائل المهتدين إلى العقيدة المسيحية الذين كانوا يتطلعون للهروب من القوانين اليهودية محتفظين فى الوقت نفسه بتراثهم المتمثل بالعهد القديم.

وتثار بعض التساؤلات مثل التساؤل عن ماهية العلاقة بين المسيحية والمعتقد اليهودى عند ظهوره أول مرة .

كما وجد (بروك فوس ويستكوت) رسائل هرماس هى الأخرى مجزية. ومع أن المخطوطة السينائية كانت قد كشفت عن جزء مهم من ذلك العمل، إلا أنه كان معروفًا لدينا وذلك من نص يعود إلى أوائل القرن الثانى الميلادى عُثر عليه ومدونًا على ظهر إحدى السجلات الحكومية المحلية المكتشفة فى مصر. وعليه يكون قد كتب فى العهد المسيحى الأول . ووصفة (ويستكوت) بأنه كتاب قيِّم يتألف من ثلاثة أجزاء تتضمن الرؤيا والوصايا والحكايات الرمزية ذات المغزى الأخلاقى .

وعقب (ويستكوت) على ذلك بقولة : « إن نشره مألوف بين كتابات الآباء الرسولين ، وقد عزى إلى تحية القديس «بولس» إلى «هرماس» وذلك فى الرسالة التى بعث بها إلى الرومان .

ويذكر (القانون الموراتودى Muratoriau Cauon) بأن «هرماس» قد سجل رسائلهُ فى مدينة روما حيث كان شقيقة الأسقف «بيوس» يشغل كرسى الكنيسة الرومانية . وتشير الرسائل إلى أن «هرماس» عاصر «أكليمنصص» (الرومانى الذى توفى حوالى عام ٩٦ ميلادية . أما الأسقف «بيوس» فتوفى فى منتصف القرن الثانى الميلادى . وقد اتفق معظم علماء اللاهوت على أن التاريخ الثانى يمثل الفترة التى سُجلت فى رسائل الراعى «هرماس».

وجاء فى الرسائل بأن «هرماس» كان عبدًا مسيحيًا إبتاعته من روما امرأة تُدعى (رودا Ruoda) ثم أعتقتهُ . وبعد اعتاقه تزوج وأصبح غنيًا . وكسب قسمًا من ثروته بطرق مريبة . وفى فترة الاضطهاد خسر «هرماس» جميع ممتلكاته. وتخلى عنه أولاده ، ولكنهُ تصالح مع عائلته فى آخر الأمر وكفروا سوية عن خطيئتهم.

هكذا نرى أن الرسائل تتضمن إمكانية منح الغفران حتى بالنسبة للمذنبيين وذلك بعد

العماد وحاول (ترتليان) تكذيب هذه الإمكانية وبذلك غير رأيهُ حول القيمة التى تمثلها رسائل «هرماس» . وأطلق على رسائل «هرماس» اسم (راعى الزُناة). ولم يكن الغفران فى رسائل «هرماس» التعليم الوحيد الذى تضمنته تلك الرسائل (رغم ظهور ملاك الغفران على هيئة راعى فى إحدى الرؤى، ومن هنا جاءت التسمية). وكان «هرماس» قد سجل رسائله فى وقت بدا فيه العديد من المسيحيين غير متأكدين من العلاقة بين معتقدهم والمعتقد اليهودى. وعقب (ويستكوت) على الرسائل بقولة : «من الناحية اللاهوتية تمثل الرسائل قيمة عالية إذ تسرد وصف الطريق الذى تعرضت له المسيحية للخطر بتأثير التعاليم اليهودية.»

ووصف «هرماس» المسيحية : «إنها صخرة أعلى من الجبل قادرة على تحمل العالم برمته قديمة وببوابة حديثة » ويبشر بمزايا المعتقد .- العذارى السبع الأوائل اللواتى دعمن الكنيسة وابنة المعتقد التقشف .

ولأن «هرماس» كان فى فترة ما تاجراً جشعًا فقد اهتم بالاستخدامات المثالية مثل حق التقشف على متاع الدنيا. ويبدو أنه كان لديه وعى اجتماعى مرتبط بتلك الأمور. فقد حث المسيحيين على الصوم والاكتفاء بالخبز والماء. ولا يعنى امتناعهم عن تناول الأطعمة اللذيذة إن بمستطاعهم إدخار الأموال لأنفسهم، إذ حثهم على حساب كلف وجبات الطعام المدخرة ومنحها للأرامل والفقراء .

وتقدم الرؤى الخمس والوصايا الإثنتا عشرة والحكايات الرمزية التى وردت فى رسائل هرماس صوراً مثيرة للسلوك المسيحى من قبل شخص عرف التقلبات المادية فى النجاح والفشل، وتتضمن كذلك لاهوتًا مبهمًا وتعاليم تأملية عميقه . وقد ساعدت رغبة الكنيسة فى الحفاظ على قانون كنسى نافذ ثابت للكتاب القدس فى إخفاء هذه الوثيقة المسيحية العظيمة مع رسالة «برنابا» من التاريخ المسيحى حتى جاءت زيارة «تشيندروف» لجبل سيناء .

وقد عقب «تشيندروف» على ذلك بقوله : «فى الوقت الذى فقد فيه الشىء الكثير من هذا الكنز بسبب العوامل الزمنية وإهمال الرهبان ، تمكنت عين خفية من رعاية هذا الكنز» وقد منح «تشيندروف» عند عثوره على هذا الكنز (المخطوطة السينائية) عالم اللاهوت وثيقة أثارت العديد من التساؤلات حول الكتب التى كان «تشيندروف» وغيره من المسيحيين يؤمنون بها ويعدونها مقدسة .

ونجد أنفسنا مضطرين هنا لطرح السؤال الآتى : ما هى بالضبط القوة التى تصف

الكتابة بالقانونية ؟ هل هي مثلاً قصة الأمراة التي شوهدت في حالة الزنا ولا أثر لها في المخطوطات الموثقة. وبذلك تمثل إحدى الإضافات العديدة اللاحقة التي لا نزال نعدها قانونية. وهل تكمن قيمتها بمركزها الكنيسي أو في سلطتها ونفوذها الفعلي ؟ وبأي شيء يمكن عدها متفوقة على رسائل (هرماس) و (برنابا) المدونة في المخطوطة السينائية !

يعتقد (ليو تولستوى) بأن الدين ليس ظاهرة خارجية وإنما شيء مألوف لدينا عن طريق تجارب داخلية .. وكان قد طلب من (تولستوى) عام ١٨٦٦، حينما كان في السابعة والثلاثين من عمره، الدفاع عن جندي اقتيد إلى محكمة عسكرية بتهمة الاعتداء على رئيسه . وعادة ما تكون العقوبة على مثل تلك الجريمة الإعدام .. ويبدو أن (تولستوى) أخفق في دفاعه عن الرجل الذي قبل الدفاع عنهُ ، وصدر الحكم بالموت بحق الجندي .

وقد شجب (تولستوى) في نهاية حياته الطويلة العمل الذي قام به إذ صرخ قائلاً : «كان يجب عليّ عدم مناقشة البراهين ، كان يجب عليّ التخلي عن الدفاع غير الدقيق عندما قلت إن الجندي كان يعاني من اضطرابات نفسية حالة اعتدائه على رئيسه لقد كنت مجنونًا لمحاولتي تخفيف العقوبة عن الجندي . »

وأدرك (تولستوى) في قرارة نفسه أنه كان على خطأ وأنه كان يجب عليه مهاجمة قانون العقوبات واعتباره جريمة ضد الله والإنسان. وفي هذه النقطة أورد (تولستوى) رواية المرأة التي شوهدت في حالة زنا وعقب على ذلك بقوله : «هناك أمر واحد ممكن وضروري ينبغي القيام به لتحرير الأشخاص الذين يحاكمون الناس الذين يقعون في أخطاء تقودهم إلى مثل هذا العقاب الوحشي وغير الإنساني.. المزعج والمنافي للطبيعة الإنسانية والذي تعرض له الإنسان في الأزمان الغابرة مثل قصة المرأة التي كانت سترمى بالحجر حتى الموت. فهل هناك إمكانية أن يكون قد ظهر منذ ذلك الوقت إنسان صادق لا يخشى رمي أول حجر» .

ومن الواضح أن القوة التي مثلتها إشارة (تولستوى) إلى رواية المرأة الزانية لا تعتمد على مكانتها الكنيسية فبالنسبه إلى (تولستوى) تعتمد قوة تأثير تلك الإشارة على طريقة سرده للقصة مع تجربته الداخلية الخاصة .

ورغم ذلك، فغالبًا ما قبل المؤمنون بالمعتقدات الصعبة الموجودة في النص المقبول للكتاب المقدس لمجرد اعتباره كلمات ملهمة من الله. وكان يتطلب من المخطوطة السينائية إذ تمثل إشارة قوية إلى أنه في الكنيسة الأولى لم يكن هناك شخص متأكد تمامًا من كلمات الله

الملهمة وغير الملهمة. وليس هناك أدنى شك فى أن الأشخاص الذين أمروا بكتابة المخطوطة أرادوا تضمينها رسائل «راعى هرماس وبرنابا» فى كتابهم المقدس الشامل إلى جانب الرسائل التى يُنظر إليها الآن على أنها مقدسة. ويبدو أن الأشخاص الذين دونوا المخطوطة كانوا على استعداد تام لتلبية الطلب بصفته طلبًا ليس هرطقيًا أو مبهمًا »

وقد ساعدت اكتشاف الكتابات الغنوصية فى هذا القرن وخاصة الأناجيل الغنوصية على فتح أعيُننا على الطبيعة المتباينة لكتابات المسيحيين الأوائل وذلك لكثرتها. وعليه فإن أقدم عهد جديد كامل فى حوزتنا، لا يمثل العهد الجديد نفسه والذى قبلت به الكنائس اليوم. وفى منتصف القرن العشرين توقف العلماء عن النظر إلى ذلك كأمر محير بل مذهل .

الفصل التاسع

الإرث

تعـتمد الأشـياء التى نتعـلمها من الكتب عـلى توقعـاتنا لتلك الأشـياء، كما تعتمد على فحوى تلك الكتب . ولقرون عديدة . كيفت الكنيسة وعلماء اللاهوت توقعات المسيحيين باتجاهين الأمر الذى عقدّ الأمر علينا فى محاولة فهم المخطوطة السينائية بعقلية متفتحة وتمثلت إحدى الأعراف التى لم يدر حولها أى تساؤل لعدة قرون بالمخطوطات الموثقة القانونية التى سجلها شاهد عيان لحياة المسيح أو أصدقاء شاهد العيان . وتمثل العرف الآخر الذى أعمى القراء حول التأثير الصحيح للمخطوطة السينائية بالمفهوم التقليدى لتسلسل الأناجيل الأربعة . ولم يكن من السهل التخلى عن أى من العرفين المذكورين فى أعلاه اللذين استمرا حتى القرن العشرين .

كتب عالم اللاهوت (فننست تيلر) عام ١٩٥٢ فى تعليق له على إنجيل «مرقس» يقول : «تكمن أهمية استقرار الرأى الحرج فى الحقيقة القائلة بأنه ليس من الضرورى من الآن فصاعداً إثبات أسبقيه إنجيل «مرقس» فى أى تعليق حديث» . ويبدو أن الدكتور (تيلر) قد تسرع فى إبداء الرأى. إذ أن علماء اللاهوت الكاثوليك تأخروا عن علماء اللاهوت البروتستانت فى التعبير عن معتقدهم فى أسبقيه إنجيل «متى» . فقبل سنة على ظهور تعليق (تيلر) حول إنجيل «مرقس» دافع (دوم بى . سى بتلر Dom B. C. Bulter) رئيس دير (Dowuside...) للكاثوليك فى كتاب تم نشره عن وجهة النظر القديمة . وفى الوقت ذاته عارض قسم من علماء اللاهوت البروتستانت النقاشات الدائرة حول أسبقية إنجيل «مرقس» . وفى عام ١٩٦٤ وردت فـى كتـاب (فارمر Farmer) الذى دار حـول الموضـوع نفسـه الجملة الآتية : «إن «مـرقس» قـد سجل إنجيله بعد «متى» و«لوقا» . وقد اعتمد إنجيل «مرقس» على إنجيلى «متى» و «لوقا» .

ولا يمكن لمثل هذه التصريحات أن تبعد القبول بأسبقية إنجيل «مرقس» ، ولكن ذلك ورد فى أوساط علماء اللاهوت فى ستينيات القرن التاسع عشر . والآن فقط يمكن أن تبدأ أهمية نهاية إنجيل «مرقس» كما وردت فى المخطوطة السينائية أن توجه تأثيرها المناسب .

ولفترة طويلة أدرك علماء اللاهوت أن المخطوطة الفاتيكانية قد حذفت الآيات الإثنتى عشرة المنحولة التى فى إنجيل «مرقس» . ويبدو أنهم استطاعوا إسقاط البرهان الوحيد لوجهة النظر القائلة بأن إنجيل «مرقس» لم يسرد أية رواية عن قيامة المسيح الجسدى ، لأن الناسخ الذى سجل ذلك الجزء من المخطوطة الفاتيكانية كان ، لما يبدو ، يتطلع شخصياً إلى حذف ذلك الجزء . خلافاً لناسخ المخطوطة السينائية . فعوضاً عن البدء مباشرة بالكلمات الأولى لإنجيل «لوقا» فى نهاية «مرقس» ، فقد ترك ناسخ المخطوطة الفاتيكانية مجالاً بعد الكلمات « لأنهم

كانوا خائفين» كما لو أن النهاية المفقودة كانت ستظهر فى مكان ما ليعاد تدوينها. ولكن مصادرة وكما يبدو لم تتضمن قصة قيامة المسيح .

وفى الوقت ذاته ، دعمت مخطوطات مهمة أخرى مكتشفة حذف المخطوطة السينائية لرواية قيامة المسيح الجسدى .

والأمر الذى يثير الدهشة هو العثور على المخطوطة السريانية التى تعتبر من أهم المخطوطات المكتشفة ، فى دير القديسة كاثرينا . وقد انزعج علماء اللاهوت الذين زاروا الدير عند اكتشافهم خلو الترجمة القديمة للأناجيل من الآيات الإحدى عشرة للنص التقليدى لإنجيل «مرقس» .

وسرعان ما اكتشف أن المخطوطة المعروفة باسم (المخطوطة البوبانية-Coclex Bo-biensis) التى يُطلق عليها اختصارًا اسم مخطوطة (ك K) تنتهى بالآية (٨) من الإصحاح (١٦) من إنجيل «مرقس» ، كما هو عليه الحال فى حوالى مئة مخطوطة أرمينية قديمة والترجمتين الجورجيتين القديمتين للإنجيل اللتين يعود تاريخهما إلى (٨٩٧ و٩١٣ ميلادية) . وتوقع العلماء بأن (أكليمنصص الاسكندرى) و (أوريجنى) لم يقتبسا أية آية لإضافة «مرقس» إلى الكلمات « لأنهم كانوا خائفين » وأن القوانين الكنيسية المستنبطة من قبل (أوسابيوس) لا توفر أى سرد (.. Marcan) لظهور قيامة المسيح . وقد اكتشفت مخطوطات أضاف فيها النساخ ملاحظة تشير إلى أن الآيات الإحدى عشرة الأخيرة فى إنجيل «مرقس» لا تظهر فى النسخ القديمة . وحاول النساخ فى المخطوطات الأخرى أدراج تلك الآيات وثبتوا بجانبها علامة (*) والتى تفيد الحذف أو الشك .

وإذ يمكن الحكم على إنجيل «مرقس» بأنهُ يأتى بالأهمية فى المرتبة الثانية ، بعد أناجيل «متى» و «لوقا» و«يوحنا» ، فأن التأكيدات المتعاقبة للشهادة المحيرة للمخطوطة السينائية يمكن وضعها جانبًا . وقد تغير الوضع بشكل جذرى عندما كتب العالم البريطانى (سى . أف. أيفانز C . F . Evans) فى عام ١٩٦٩ ، بعد أن تبين بأن إنجيل «مرقس» قد سبق أناجيل **متى ولوقا ويوحنا**، يقول : «ظهر فراغ فى وسط القيامة اختلف العلماء حول تفسير معناه» . وهنا يتعين على الناس العاديين ، رجالاً ونساءً، التساؤل حول هذه الظاهرة المحيرة. وتساءل المسيحيون الأوائل عن السبب فى انتهاء المخطوطة السينائية على ذلك النحو . وقد عزز تساؤلهم الفكرة الخاطئة بأن إنجيل «مرقس» قد دوّن بعد إنجيل متى وأنهُ قد عرف ظهور قيامة المسيح الجسدية ظن البعض بأنه ربما كان السبب فى ذلك هو وفاة «مرقس» الفجائية

بعد أن كتب الآية (٨) من الإصحاح (١٦) . وظن البعض الآخر بأن «مرقس» ربما قد نجح فى اختتام إنجيله بقيامة المسيح ولكن الصفحة الأخيرة من مخطوطته قد فُقِدت أو مزقت . ولا تُفسر أى من الفرضيتين السبب الذى لم يدفع أى شخص لإنهاء النص ، بما أنهُ كان لدى الجالية المسيحية فى أيامها الأولى منفذ للوصول إلى معلومات حول قيامة المسيح ، وإذا كان «مرقس» قد قُتل أو مات ، فإن بمستطاع مسيحيين آخريين أضافة آيات ختامية وإذا كانت المخطوطة الأصلية قد مُزقت حسب الفرضية الثانية ، فإن ذلك حدث قبل أن يتمكن «متى» أو «لوقا» من الوصول إليها بما أنهُ كانت لديهما روايات أخرى حول قيامة المسيح لا تعتمد نص «مرقس» . وليس هناك أدنى شك فى أن التشويه المزعوم قد أثر على جميع نسخ الأناجيل القديمة .

وكما أشار الدكتور (أوستن فارير Austin Farrer) فإن مثل تلك الفرضيات لا تعتمد على براهين تأريخية . وقد كتب معلقًا على الموضوع بقول : « ليس من الأخلاق إثارة حادث سواء مادى مثل تحطيم النسخة الأصلية قبل أن يطلع عليها «متى» أو شخصى مثل وفاة القديس «مرقس» أو اعتقاله فى وسط الجملة عندما كانت أمامه فقرات أخرى لكتابتها . صحيح أن هناك احتمالاً لوقوع مثل تلك الحوادث ، ولكنه من المُستبعد حدوثها . وسيصبح التاريخ حقلاً لخيال غير مسيطر عليه إذا ما سمح المؤرخون لأنفسهم باستخدام مثل تلك الفرضيات .

ومع ذلك فإن خيال مسيحيين القرن العشرين ذهب إلى أبعد من توقع الطريقة الفجائية التى انتهى بها إنجيل «مرقس» . وكما شعر المؤمنون الأوائل بضرورة تقديم نهايات منحولة لإنجيل «مرقس» ، رفض مسيحيو القرن العشرين القبول بإمكانية إنتهاء إنجيل «مرقس» بالآية التى انتهى بها . وبدأوا بتقديم إعادة بناء الجمل التى كان يتعين على «مرقس» تسطيرها أو كان قد عزم على كتابتها .

وهنا ، يوجد افتراض قوى عززته الكنيسة عبر قرون عديدة ينص على ضرورة اختتام الإنجيل بقيامة المسيح. فقد أكد ذلك البروفسور (كيروسوب لك Kirosoppe lake) عام ١٩٠٧ بقوله : « قلة من الناس سيشككون باختتام إنجيل «مرقس» برواية قيامة المسيح مع أتباعه فى الجليل » وأكد البروفسور (أف . سى . بركيت F . C . Burkitt) يقول : « إن اختتام إنجيل «مرقس» بالآية (٨) من الإصحاح (١٦) أمرٌ لا يمكن تصورهُ » .

ويبدو أن هذه الحقيقة حول مضمون إنجيل «مرقس» يناقض الأناجيل القانونية كما لاحظنا فى المخطوطة السينائية .

وسواء كنا غير مستعدين أو غير قادرين على رؤية هذه الحقيقة ، فقد تكهن علماء القرن العشرين بالنهاية الصحيحة لإنجيل «مرقس» . وقد اختلف العلماء فى توقعاتهم . وعلى سبيل المثال ، كتب البروفسور (أى . جى جودسبيد E . J . Goodspeed) عام ١٩٣٦ يقول : « ليس هناك أدنى شك فى أن إنجيل «مرقس» فى هيئته الكاملة يحتوى على سرد مختصر لظهور المسيح أمام المريمين وسالومى بعد دفنه » . ولم يكن (كيرسوب لك Kirsopp lake) متأكدًا تمامان ظهور المسيح بشكل كامل فى إنجيل «مرقس» ولكنه افترض بأن نهاية إنجيل «مرقس» تضمنت ظهور قيامة الرب فى الجليل بهيئة لم تكن على هيئة الجسد والدم » .

أما (أى . جى . رولينسن A . E . J . Rawlinson) فقد كان متأكدًا من أن «مرقس» قد قرر وكما يبدو من تسلسل الأحداث من قيامة المسيح أمام القديس «بطرس» . وأعاد البروفسور (سى . أج . ترنر C . H . Turner) بناء نهاية إنجيل «مرقس» ، مضيفًا آية قيام المسيح أمام المريمين وسالومى لتهدئة مخاوفهن وظهوره أمام نساء أخريات وتلاميذ المسيح كما ظهر أمام بطرس والتلاميذ العشرة المخلصون ومن ثم ظهر أمام الأحد عشر تابعًا وغيرهم (ربما ٥٠٠ شخص فى آن واحد) فى الجليل !

ولم يكن الدكتور (أوستن فارير Austin Farrer) مستعدًا لقبول اختتام إنجيل «مرقس» بالآية (٨) ، من الإصحاح (١٦) ، رغم الصرامة التى أبداها ضد الخيال الجامح للمؤرخين أضاف جملة عادية قائلاً : « ولكن المسيح أرسل تلاميذه للتبشير بالإنجيل بين الشعوب » . وفى ذلك الحين لم يكن هناك سبب أو دافع يدعو إلى اختراع فكرة قيامة المسيح لإنهاء إنجيل «مرقس» بها. ولقد تم التخلى عن فكرة معرفة «مرقس» بقيامة المسيح وفى عام ١٩٧٢ صرح البروفسور (آر . أج . فولر بولدوين) أستاذ الأدب المقدس فى جمعية اللاهوت قائلاً : «لم يحتو إنجيل «مرقس» فى شكله الأصلى على قيامة المسيح » .

وأضاف : «مع أن الكاتب ، وكما يبدو ، كان على علم بقيامة المسيح أمام بطرس وأشخاص آخرين فى الجليل ، فإن قلة كانوا على استعداد لأتباع نظريات علماء اللاهوت من أمثال (سى. أف. أيفانز) حين قال : «فى إنجيل «مرقس» بدت الزيارة إلى القبر وكأنها الوسيلة التى أعلنت فيها ظاهرة القيامة نفسها وليست مقدمة أو افتراضًا مسبقًا يعلن عن قيامة المسيح » .

وقد استغرق قرنًا من الزمن لدحض الأعراف التى أطاحت بها المخطوطة السينائية – إذا ما دُحضت !. وأخيرًا يمكن مواجهة التساؤل حول التعليم الصحيح لأول إنجيل قانونى ودلالاته على العقيدة المسيحية » .

فإذا كان اعتقاد «مرقس» بأن المسيح كان لا يزال حيًا بعد صلبه ظهر (جسديًا) أمام تلاميذه، فكيف يمكن لتلك الحقيقة أن تغير العقيدة فى القيامة بالنسبة لأتباع المسيح فى القرن العشرين ! وفى سبعينيات القرن التاسع عشر توصل عالمًا لاهوت من جامعة كمبردج وهما (دون كـويـت Don Copitt) و (سـى . أت . دى . مول C . F . D . Moule) إلى استنتاجين مختلفين عند مناقشتهما للموضوع . وقد مثلت نهاية إنجيل «مرقس» بالنسبة لكليهما عنصرًا حرجًا فى النقاش ، ففى الوقت الذى قرأ فيـه البروفسـور «مول» إنجيـل «مرقس» فى مضمون بقية نصوص العهد الجديد وليـس كأقدم إنجيـل كما كان فى يوم ما يمثل الإنجيل الوحيد ، أعرب (مول) عن اعتقاده بأن الإنجيل فى هيئته الأصلية يتضمن قيامة المسيح .

ويعتقد البروفسور (مول) بأن إيمان تلاميذ المسيح الأوائل بالقيامة كان سببه الشعور بالإتصال بالله عبر المسيح ، مفسريين التجارب الماضيه بطريقة جديدة.

وأكد البروفسور (مول) أن الكتاب المقدس سجل رؤى محددة ذات طبيعة غير اعتيادية بحيث أنها تجسدت أمام مجموعة من الأشخاص . ولم تضاه تلك الرؤى أية رؤى شخصية .

أما (دون كويت) فقد أعرب عن اعتقاده بأن تجارب المؤمنين الأوائل بعد موت المسيح ، تضمنت رؤى للمسيح ولم تتضمن لقاءات مع القيامة الجسدية للمسيح . وجميع تجارب القيامة (خارج الأناجيل الأربعة) التى يصفها القديس بطرس عبارة عن رؤى . وإيمان الرُسل بأن المسيح كان لا يزال حيًا ، نابع من التأمل العميق - لاهوتى وشخصى حول الأشياء التى قام بها عندما كان حيًا يسير على الأرض . وكتب (دون كويت) يقول : «إن إيمانى رُسُلىّ لأنى أؤمن بطريقة الرُسل نفسها لقد وصلت إلى المعتقد بقطار مشابه لقطار الرُسل بالحجج والاستنتاجات ، وإنى أشاطر تلاميذ المسيح الأوائل تجاربهم . والخلاف الوحيد بينى وبينهم أنهم شاهدوا المسيح وهو حى وآمنوا به على أسس معرفتهم به ، بينما يتعين علىّ قراءة الشهادة التى أدلوا بها للمسيح فى الأناجيل » .

ويعتقد (دون كويت) بأنه يتعين عدم أخذ روايات عيد الفصح - اجتماع المسيح مع تلاميذه وتناول الطعام معهم وإصدار الأوامر لهم - كأسباب للأيمان بعقيدة عيد الفصح، ولكن يجب الإيمان بها كتعابير صورية حول عقيدة عيد الفصح . ولهذا السبب استطاع «مرقس» التخلى عنها وعدم إدراجها فى إنجيله .

ولهذا السبب عاد النقاش حول برهان المخطوطة السينائية التى أكدها الشهود اللاحقون. وكتب (كوبت) يقول : «وجدت إنجيل «مرقس» عند إطلاعى عليه مرضياً بهيئته الحالية من الناحية الفنية على الأقل لأنهُ يترك القراء يتوصلون إلى الاستنتاج من خلال قراءته». وهاهو الآن يبدو مقتنعاً مثل المسيحيين الأوائل لأن الرواية شأن التعميد والدفن واستمرار محبة النسوة لجسد سيدهم الميت ، تقدم البرهان على القيامة » .

وتبدو المخطوطة السينائية بشهادتها للعقيدة المسيحية حديثة بشكل مثير للدهشة. وتحتوى المخطوطة السينائية على التقاليد كما سجلها الإنجيليون اللاحقون حول قيامة المسيح. ولكن المخطوطة فى إنجيل «مرقس» تحافظ أيضاً على شهادة المسيحى الذى آمن بأن ربهُ كان حياً ، دون الحاجة لتقديم سرد روايات الأشخاص الذين شاهدوهُ حياً بعد مماته كبرهان على هذه العقيدة .

وتعتبر المخطوطة السينائية وثيقة زمانها بحد ذاتها، كما أنها تشهد على خلافات الكنيسة القديمة. لقد شاهدنا كيف احتوت المخطوطة على كتابين مسيحيين قديمين رفضت المسيحية الاعتراف بقانونيتهما المسيحية فى وقتٍ لاحق. وعندإثارة نقاش القرن العشرين حول الطبيعة الحقة لقيامة المسيح نجد أنها تربط بشكل مثير للدهشة ذلك النقاش ونقاشاً آخر حول الموضوع الحرج نفسه الذى دار فى الكنيسة الأولى. وقد وصفت معظم كتابات أولئك الذين عارضوا فكرة القيامة الجسدية للمسيح أو المسيحيين بصورة عامة - مثل «برنابا» وراعى «هرماس» - بأنها غير قانونية وتم بالتالى قمعها .

وأكد (ترتليان) الذى دوّن آراءه فى نهاية القرن الثانى الميلادى قائلاً : « لا يمكن لمن ينكر القيامة التى يعترف بها المسيحيون أن يكون مسيحياً » . وفى الحقيقة ، وجد العديد من الأشخاص الاعتقاد صعباً جداً بهذه النقطة خاصة. دارت تفاسيرهم المختلفة حول القيامة إلى نشوب نزاعات حادة .

وعقب عالم سريانى يدُعى (شيلسوس Celsus) قبل (ترتليان) بثلاثين عاماً قائلاً : «فى الوقت الذى تقذف فيه الطوائف المسيحية المختلفة بعضها الآخر بكلمات نابية، لا تحاول القيام بتنازلات للتوصل إلى اتفاق فيما بينها ». ودار الخلاف حول القيامة الجسدية للمسيح .

وإلى فترة قريبة فإن البرهان الوحيد الذى لدينا حول أولئك الذين أنكروا القيامة الجسدية للمسيح إنما جاء من طائفة الأرثوذكس المنافسة. واليوم مكنتنا النصوص التى عُثر

عليها فى (نجع حمادى) من الحكم على أولئك المسيحيين الهراطقة، من كتاباتهم. إذ اعتبر العديد منهم فكرة القيامة الجسدية للمسيح، عقيدة المجانين. كما أن «مرقس» لم يعتبرها جزءًا مهمًا من إنجيله .

ويبدو أن الرسالة الموجهة إلى رينجوس Letler to Rhenigos المكتشفة فى (نجع حمادى) قد كُرست لبحث موضوع القيامة. وتعتقد هذه الرسالة بأنه ليس هناك قيامة بالنسبة للجسد. ولا يمكن للعقل البشرى أو العقل الفياض الهروب من العالم والجسد والاتجاه نحو عراء بدائى. وفى هذا الموضوع يتبع المسيحيون طريق المسيح حيث كتب مؤلف الرسالة . «لقد نسى المسيحى طريق الخلود » .

وأضاف مقتبسًا عن القديس «بولس» : « لقد تألمنا معهُ ، وبُعثنا معهُ ودخلنا ملكوت السماء معهُ » . وحسب فحوى هذه الرسالة العظيمة . «إننا منجذبون نحو ملكوت السماء مثل أشعة الشمس بدون قيود . وهذا هو البعث الروحى » . ولهذا السبب يتم حث المسيحيين على عدم التعايش مع الجسد بتوافق وتشجيعهم على محاولة التحرر من القيود « وبهذه الطريقة ستبعثون » .

وتفسر الرسالة القيامة على أنها تحول وانتقال الأشياء إلى شىء جديد ، بما أن الهلاك يهبط على الأشياء الفانية » إذ أن الفناء يأتى على الأمور الفانية . وجاء فى نهاية الرسالة التفسير الروحى للقيامة الذى وصف بالهرطقة . أما (أيريناوس Irenaeus) فقد وصف الغنوصيين قائلاً بأن المواضيع التى بشروا بها تخالف المواضيع إلى سلمها لنا الرُسل. وأشار البروفسور (إيلين باجلز Elaine Pagels) إلى الموضوع قائلا : يمكن استخدام فرضية مشاهدة بعض الناس العاديين لقيامة المسيح الجسدية، لإضفاء الشرعية على سلطتهم الإكليريكية . وتتوطد العلاقة الخاصة التى كانت قائمة بين القديس بطرس والمسيح بالإشارات المستمرة إلى قيامة الرب أمامه. وحسب أعمال الرُسل ، أن بطرس مسئول عن إلحاق من يحل محل يهوذا الأسخريوطى بين الرُسل لخيانته للمسيح مؤكدًا ضرورة : كون أحد الرجال الذين صاحبونا طيلة الفترة التى مر بها الرب المسيح بيننا ابتداء من عماد «يوحنا» وحتى اليوم الذى صعد فيه من بيننا – أحد هؤلاء الرجال يحب أن يكون معنا ليشهد على قيامة المسيح . (التأكيد هو للبروفسور باجلز)

ويناقش البروفسور (باجلز) أنه فى القرن الثانى استخدم السرد فى أعمال الرُسل، وذلك من أجل إقامة تسلسل محدد ومشدد من القيادة أو الزعامة فإن الرُسل الذين شاهدوا

المسيح حيًا يحملون سلطة دينية ، والأشخاص الذين يستطيعون إضفاء رسامتهم الكهنوتية إلى التقليد الرسولى هم ورثتهم الشرعيون الوحيدون .

ويختتم البروفسور (باجلز) قوله : « وحتى يومنا هذا يدعى البابا بأن سلطته على البعثة تعود إلى كونه قد ورثها عن القديس «بطرس» نفسه أول الرسل بما أنه كان الشاهد الأول على القيامة .

وقد علق (ليون تروتسكى) بسخرية على ذلك بقوله : « من بين الرسل الإثنى عشر ثبت بأن يهوذا وحده الذى خان المسيح. فلو كانت لديه السلطة فإنه كان سيتمثل الأحد عشر رسولاً وبالتالى يعتبرون خونة مثله وكذلك التلاميذ السبعون حسب تعداد (لوقا) . »

ويميل المنتصرون عادة إلى كتابة التاريخ وذلك لأجل تمجيد مآثرهم والحط من إنجازات منافسيهم . ولهذا اختفت كتابات الغنوصيين من التاريخ المسيحى حتى هذا القرن مثلما تم تلفيق النهاية المنحولة لإنجيل «مرقس» .

لم تكن طبيعة الأسباب التى دفعت الأشخاص الذين آمنوا بفكرة قيامة الجسد للمسيح سياسية كهنوتية. فقد استخدمت عقيدة القيامة الجسدية للمسيح للتأكيد على الطبيعة المشابهة للرب القائم وحياة المسيح على الأرض. ومثل هذه العقيدة لها ميزة إضافية فى اللاهوت المسيحى إذ ترمز إلى إمكانية الغفران عن جميع البشر نساء ورجالاً وليس حصرًا بالروح أو العقل الفياض . ولقد حملت تلك العقيدة معها دلالة خاصة كما وردت فى كلمة الدكتور (هارى كاربنز) الذى قال : بأن الله خلق هذا العالم سيعود بمختلف أوجه هذا العالم وكنوزة لتحقيق درجة الكمال فى الحياة الأخرى ليكمل طبيعتنا البشرية .

وجاء قمع الجانب البديل للنقاش الحاد ، ليشوه الحقيقة حول تاريخ المسيحية . ولما قال (اثياجورس Athenagoras) حول المسيحية الأولى : «فيما يخصُ موضوع القيامة، نجد البعض غير مؤمنين وآخرين شاكون والبعض الآخر ضائعون لا يدرون بماذا يؤمنون كما يحدث فى عصرنا هذا » . فلقد احترم النقاش مرة أخرى فى عصرنا هذا .

وفى هذا المضمار أنقل أقوال عالمى اللاهوت (جيرهارد أيبلنج Gerhard Ebeling) و(كارل بارث) : ففى الوقت الذى يؤكد فيه (أيبلنج) أن إيمان الأيام التى أعقبت عيد الفصح، تُعّرف نفسها بأنها لاشىء سوى الفهم الصحيح للمسيح للأيام التى سبقت عيد الفصح وعندما سئل «إيبلنج» : ماذا حدث للمسيح الآن ؟ أجاب : بأن المسيح قد قام إلى الجانب الأيمن من عرش الله .

أما عالم اللاهوت السويسرى (بارث) فقد عقب على الموضوع بقوله : يتطلب الأمر تفسيراً أكثر وضوحاً . ويعتقد (بارث) أن النساخين وضحوا حقيقة احتمال لمس المسيح عند قيامته مما يزيل الشك حول تلك الحقيقة وأن المسيح نفسه . بجسده البشرى قد قام وليس شخصاً آخر » .

ومثل هذا التفسير ليس صحيحاً. إذ أن إنجيلى «متى» و«لوقا» يستخدمان القبر الخالى كمقدمة إلى قيامة المسيح الجسدية، مع أن «مرقس» لم يفعل ذلك. ولأجل الإنحراف عن مقدمة «مرقس» للعقيدة، اضطر لقمع المعلومات التى كانت متوفرة لديهما حول المريمين وسالومى اللواتى لم يخبرن أى شخص حول تجربتهن فى القبر الفارغ. وعوضاً عن ذلك بادرن إلى تكرار ظهور سلسلة حالات قيامة (كماورد فى إنجيل يوحنا) بحيث لا تظهر أية حالة من حالات القيامة فى إنجيلين فى آنٍ واحد . كما أن النهاية المنحولة فى إنجيل «مرقس» تدعونا لتوجيه سؤال محدد عن التجارب التى أقنعت أتباع المسيح بأنهُ كان حياً .

وفى القرنيين الثانى والثالث من الحقبة المسيحية تم نعت أى شخص يشك باللقاءات المباشرة مع الجسد القائم للمخلص، بالهرطقة. وفى اتخاذهم القرار هذا، نادت طائفة الأرثوذكس بشهادة الأناجيل القانونية الأربعة .

وجاء اكتشاف «تشيندروف» للمخطوطة السينائية ليمكننا اليوم من الإيمان بأن ذلك النداء كان قد أطلق بشكل محدد كما تخيله علماء اللاهوت الأرثوذكس الأوائل. وبين «مرقس» بأنه لم تكن هناك حاجة للمس المسيح عندما قام للإيمان بالقيامة .

ورغم رغبات البشر للأمن والتأكد ، فإن أول إنجيل قانونى اختتم بملاحظة دارت حول الرعب. ولم يكن المسيحيون اللاحقون على استعداد، وكما يبدو، بالتزام الصمت حيال الغموض الذى أحاط بظاهرة القيامة . وأقروا بالنهاية المنحولة فى الإنجيل .

وقد اكتشف «تشيندروف» خلال بحثة فى الأناجيل المسندة ، الحقيقة فى دير القديسة كاثرينا . ولم يكن «تشيندروف» يرُحب بتلك الحقيقة ، لولا ملاحظته تقارب السرد الموثق فى إنجيل «مرقس» مع مشاعر الخوف والأمل تعترى الإنسان عند مواجهته والقبر وغموض الحياة بعد الممات .

وينسجم مفهوم الحياة والموت والحياة بعد الموت مع قواعد رهبان دير القديسة كاثرينا الروحية ، أكثر من إنسجامها مع أهل المسيحية التى تعتقد بأن الموضوع قد برهن مرة واحدة

وإلى الأبد وذلك بالقيامة الجسدية لجسم المسيح . ويشعر معظمنا باللاوعى بأن هناك جسمًا فزيائيا وآخر روحيًا فى الجسد ، كما عبر عن ذلك القديس «بولس» . وقال «بولس» بشفافية بين الجسد الفيزياوى (الأرض) والجسد المبعوث (الروحى) فوجد الفرق بين الأشياء الفانية وغير الفانية تشبه الفرق بين المجد والعار والقوة والضعف .

وقال القديس «بولس» : أن الجسد المادى يأتى أولاً ، ثم يلحقهُ الجسد الأثيرى .

وكتب يقول : « لا يمكن للجسد المادى أن يرث ملكوت السماء » .

وقد وصف «بولس» مشاهدته لقيامة المسيح بقولة : لقد شاهدت المسيح وهو يقوم بمجده بجسده الأثيرى. وأن الأمل المسيحى، كما عبر عنهُ القديس «بولس»، هو الاستمرار على محبة الرجل السماوى كما أحببناه عندما كان إنسانًا مخلوقًا من التراب (ويقصد هنا المسيح) .

وتنسجم نهاية إنجيل «مرقس» مع فكرة القديس «بولس» حول الغموض الذى أحاط بقيامة المسيح وإمكانية انتقالنا مثله . والأناجيل اللاحقة فقط هى التى قللت من فكرة الإنتقال هذه وركزت على القيامة الجسدية – وحتى تلك الأناجيل احتفظت بفكرة بقاء جسد المسيح المنبعث مختلفًا بشكل غامض عن أجسادنا . وجاء فى كلمات عالم اللاهوت (بروك فوس ويستكوت) :إن الاستمرارية والحميمية والألفة البسيطة للعلاقة السابقة قد ذهبت . فلقد تمت مشاهدة المسيح والتعرف عليه عندما أراد ذلك وفى الوقت الذى أراده. وفى المعنى السابق للجملة ، إن المسيح لم يُعد مع تلاميذه ويبدو أنه لم تعد لديهم القوة الطبيعية للتعرف عليه . بما أن المشاعر والأفكار تحتاج إلى التطهير والتجلى لأجل التعرف على المسيح فى ظروف الحياة الأرضية . ويعنى التطهير والتجلى لمشاهدة صعود المسيح، الخضوع للنظام الكهنوتى. ويشمل التخلى عن الرغبات الجسدية والعيش فى هذا العالم حياة روحية. ويعتقد رئيس أساقفة دير القديسة كاثرينا القديس جريجورى بأن هذه العملية لا تمثل نوعًا من التطور نحو حياة القيامة فى المستقبل بل عودة إلى طهارة الروح والجسد التى خلقناها وكتب القديس (جريجورى) يقول: عندما خلق الله الجسد فى البداية لم يضعِ فيه الغضب والشهوات العاطفية . وفى فترة لاحقة فقط ومن خلال الخطايا أصبح الجسد فانيًا وفاسدًا ووحشيًا .

ويعتقد القديس (جريجورى) بأن صفة الفناء والوحشية قد أثرت على الروح والجسد. وبهذا الصدد كتب يقول : « سيطرت العواطف على الروح أو بالأحرى أن الشيطان هو الذى سيطر على جسم الإنسان وأصبح الجسد أسير وحشية غير عقلانية وسيطر الفساد بطاقات ذلك الوضع على أرواح البشر وأجسادهم » .

وجاء فى تعاليم القديس «جريجوريوس» وغيره من الرهبان الآخرين أن النساء والرجال أصبحوا جسداً وروحاً أشبه بالحيوانات بدون شعور وفريسة للشهوات الجسدية، لأن الروح والجسد يتفاعل بعضهما مع الآخر. ولهذا السبب لا يمكن تحقيق الخلاص إلا عن طريق ضبط النفس وتعذيب الجسد والروح . وبهذا الصدد يقول اللاهوتيون : « إن الجسد خلق نقياً رغم استعداده للفساد. لذا يمكن للجسد أن يُبعث كالروح التى أوجدها الخالق بدون شهوات». أما رهبان دير القديسة كاثرينا فيعتقدون أن الشهادة هى الطريق الواضح والسريع للتحرر من رغبات الجسد. ولم تكن هذه الإمكانية فى متناول اليد عندما تم الاعتراف بالكنيسة من قبل القوى الإمبراطورية (رغم أن قطاع الطرق الذين قتلوا الرهبان فى الصحراء كانوا يمنحونهم أملاً فى التخلص من هذه الحياة لأجل التوجه إلى الحياة الأخرى). وكما يقول (دبليو. أج. سى فريند W . H . C . Frend) : «إن الهدف الحقيقى للرهبان ظل كتقليد روحى لعملية الشهادة » . وقد تم التعبير عن هذا الموضوع فى الكتاب الرومانسى الذى يعود إلى القرن السابع الموسوم (برلام وجوزيف Baralaam and Joseph) إذ ورد فيه : أن الرهبنة صادرة من رغبة الإنسان فى الشهادة فى نواياهُ » . وظلت حياة الرهبنة وحتى يومنا هذا تُمثل أحد أنماط الشهادة الروحية. وحسب أقوال (فريند) ، فإن (أوريجن) المولود فى مصر عام ١٨٥ ميلادية كانت لدية الرغبة فى الشهادة طيلة حياته. وكان بالإمكان تحقيق تطلعه هذا خلال فترة الاضطهاد التى عاشتها مدينة الاسكندرية عام ٢٠٢ ميلادية والتى لاقى والده حتفه فيها. إلا أن (أوريجن) نجا من الموت عندما بادرت والدته بإخفاء ملابسة وبذلك اضطرته إلى المكوث فى الدار. وفى أعقاب فترة الاضطهاد بدأ (أوريجن) يطور مفهوم تعذيب الجسد كوسيلة لخلاص الروح . وبدأ يعتقد بأن حياة الرهبنة تعنى ضبط الروح والجسد فى آنٍ واحد. وتم انتقادة لتفسير الآية (١٢) من الإصحاح (١٩) من إنجيل متى حرفياً «أن هناك خصياناً، أخصوا أنفسهم ليكونوا مؤهلين لدخول ملكوت السماء». وبادر (أوريجن) إلى إخصاء نفسه. وظلت بقية تعاليمة تُطبق ومنها الصوم ونبذ حياة الدنيا والتجوال فى الأرض حفاة الأقدام .

إن التخلى عن حياة الدنيا والثروة ، يكون عن طريق تطبيق أقوال المسيح بصورة حرفية مثل قوله : «أن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل ما تملك ووزع أموالك على الفقراء عند ذاك فقط ستحظى بملكوت السماء » . وقد أضيف فيما بعد إلى قول المسيح هذا نظام صارم لضبط الجسد إلا وهو القضاء على (الشهوة الحيوانية) كما وصفها القديس جريجوريوس. وقد طور هذه الفكرة القديس (باسيليوس) فى منتصف القرن الرابع الميلادى وأقنع الرجال

والنساء باتباع تلك التعاليم وذلك من خلال العيش ضمن مجاميع رهبانية وتطبيق التعاليم من قبل جميع الرهبان الموجودين فى تلك المجاميع .

وأضاف القديس (باسيليوس) : يجب أن يكون الدير بعيداً عن العالم للابتعاد عن الشهوات » .

وأضاف مؤكداً : «لأجل التغلب على نمط الحياة التى اعتدنا عليها ، هذه الحياة البعيدة عن وصايا الرب ، فإننا بحاجة إلى بذل جهد كبير لتحقيق ذلك . وبالإمكان تحقيق ذلك بإقامة الصلاة والتأمل الربانى فى الإرادة الإلهية ، وعندها فقط يمكن أن نمسح آثار الخطيئة».

وفسر (باسيليوس) تعاليمه بالنسبة للحياة والتى دعا فيها العيش على شكل مجاميع بعيدة عن العالم ، قائلاً : « من المحال علينا القيام بالصلاة والتأمل الآلهى ونحن محاطون بالجماهير التى من شأنها أن تحول أنظارنا عن الروح وتعمدنا فى ملذات الحياة »

ولهذا السبب بادر (جوستينيان) إلى إحاطة دير القديسة كاثرينا بجدران عالية ، ساعدته على صد هجمات قطاع الطرق من جهة كما مكنت من جهة ثانية الرهبان من الابتعاد عن العالم لحماية أجسادهم وأرواحهم . وقد أصبحت هذه الجدران فيما بعد نموذجاً للرهبنة اليونانية فى جبل (آثوس) . حيث كانت الأديرة تحاط بجدران عالية للدفاع عن الجسد والروح من شرور العالم الخارجى. وتؤكد قوانين (جوستينيان) التى نظمت حياة الرهبنة فى إمبراطوريته على أن نقاء وصلوات الرهبان والراهبات تخدم العالم أجمع. وكتب يقول فى مقدمة القوانين التى وضعها : « إن حياة الرهبنة والتبتل شىء مقدس لأن ذلك يقود الروح إلى الرب » .

وعندما شيد الإمبراطور ديراً جديداً كتب مؤرخ البلاط (بروكوبيوس Procopius) يقول: يعيش فى جبل سيناء رهبان تشبه الحياة التى يعيشونها تمريناً يومياً على الموت.» ولعدة قرون ظل رهبان دير القديسة كاثرينا يفكرون ويتأملون بماهية الموت . ولتذكر تلك الحقيقة (الموت) دأب رهبان دير القديسة كاثرينا على جمع عظام موتاهم فى مستودع ، ولهذا السبب لا يمكن للزائر أن يشاهد أى أثر للمقابر باستثناء أعداد قليلة منتشرة هنا وهناك . وعند موت أحد الرهبان يُفتح المستودع وترمى فيه عظامه. وقد رتبت تلك العظام على شكل أكوام وضعت إلى جانبها جثث محنطة. ويُقال بأن أحد تلك الجثث المحنطة تعود إلى راهب يُدعى اسطيفان عاش فى القرن السادس الميلادى . وتظهر جثة الراهب اسطيفان المحنطة وهو جالس على

كرسى ومرتدٍ ملابس الكهنوت لحماية مدخل المستودع . ومثل هذه القضايا التى تشير إلى فناء الجسد موجودة فى جبل (آثوس) أيضًا .

عاش نظام حياة الرهبنة فى جبل سيناء قرونًا عديدة شأنه شأن تعاليم القديس (باسيليوس) التى تدعو إلى نبذ الحياة الدنيا والجسد لأجل كسب الحياة الأبدية والرؤية الإلهية.

وفى هذا المضمار كتب القديس (باسيليوس) يقول : على الراهب ألاّ يمتلك شيئًا وأن يمارس حياة الخلوة وارتداء الملابس الخشنة ومراقبة طريقة حديثه وصومه وعدم الإسراف فى الطعام والشراب والتزام الصمت وتجنب الاتصال بالبشر الفانى والتفكير كثيرًا والتحدث قليلاً. كما يتعين عليه أن يكون مطيعًا والإلمام بعمل يدوى . ومن أغرب تناقضات القديس (باسيليوس) قوله : على الناسك أن يكون متوجًا بالخجل .

وجاء فى حديث رئيس أساقفة دير القديسة كاثرينا حول حياة الرهبان فى الدير (وبدأ حديثه مشابهة لحديث القديس باسيليوس) قوله : «تجسد حياة الرهبنة الحياة الروحية بكل أعماقها، إذ يجب القيام بتنازلات عن الحياة الدنيوية. فيجب التخلى عن البذخ ويتعين على الراهب أن يكون ماهرًا فى العمل الذى يقوم به وهو مكتف ذاتيًا ويساعد زملاؤه . ويتعين على الراهب التخلى عن جميع ممتلكاته وتكريس وقته للصلاة . ويجب أن تكون حياتة تدريبًا على التواضع ومحبة الآخرين وأن يكون هدفه النهائى الاتحاد بالذات الإلهية » .

وفى إحدى الأمسيات جلس معى أحد الرهبان على مائدة العشاء قال لى : «إنها حياة صعبة وتدريب مستمر على الموت والتهيؤ للحياة الأخرى والقيامة » .

وفى هذا الشأن يقول القديس (باسيليوس) «إن كنوزكم فى السماء إذا حافظتم على الوصايا . وإذا تذكرتم ذلك دومًا فستحظون بالسعادة ».

وقد مُثلت رؤيا الرب فى مذبح الغابة المشتعلة وهى الغابة التى قيل إن موسى واجه فيها الله. ومن عادة الرهبان الذين يقطنون الدير التوجه إلى المذبح كل يوم سبت لتناول القربان المقدس .

ويوجد فى المذبح العديد من الأيقونات التى تمثل العلاقة بين حياة الدنيا والحياة الأخرى. من بينها أيقونة تمثل «موسى» وهو يتسلم الوصايا فى جبل سيناء. وتظهر فى الأيقونة القديسة كاثرينا وهى تحمل عجلة وصليبًا أحمر يرمزان إلى الموت من خلال الشهادة.

وتظهر فى الأيقونة صورة «موسى» وهو يخلع صندله فى الغابة المشتعلة ولهذا السبب يدخل الرهبان حفاة الأقدام إلى المذبح لتناول القربان. وهناك أيقونة تمجد المسيح، ويظهر المسيح فيها بملابس الكهنوت حاملاً العهد الجديد ومبشراً بعهد جديد للإنسانية ويقرأ فى صفحاته هذا القول حول تناول القربان «هذا هو جسدى الذى بذل لخلاص العالم». وكتبت فى الصفحة اليسرى من الإنجيل أقوال المسيح الموجهة إلى الشخص الذى حكم عليه بالموت : « إن مملكتى ليست فى هذا العالم » .

ولعدة قرون ظل لاهوت الكنيسة الشرقية ينسج حول هذه الأيقونات مفهوماً معقداً عن الخلاص والحياة الأبدية فى العالم الآخر .

وفى القرن الثامن الميلادى دعا المجمع الثانى فى (نيقية) المؤمنين إلى تقبيل الأيقونات التى تصور المخلص وعدم عبادتها لأن العبادة مكرسة للمسيح فقط بما أنهُ مركز العقيدة المسيحية .

وحول هذا الموضوع قال آباء الكنيسة : « إن تقديس الأيقونة يعنى تقديس الرب » . أما رئيس أساقفة جبل سيناء فقد عقب على الموضوع بقولة : « تجسد الصورة فى الأيقونة » حياة الزُهد فهى قاسية وصارمة وتجذب الإنسان من الأرض إلى الله » .

إن الأمل النهائى لحياة روحية على الأرض هو منح الإنسان فرصة للاتحاد بالذات الإلهية غير المنظورة .

وحول هذا الموضوع كتب شقيق القديس «باسيليوس» الصغير الذى كان يُدعى القديس (جريجوريوس النيصى) كما كتب عنه القديس (اكسيموس المعترف) الذى عاش فى القرن السابع الميلادى ويعتبر من كبار المتصوفين فى الكنيسة الأرثوذكسية وقد شبه كلاهما (جريجوريوس ومكسيموس) الرؤيا السماوية التى يحظى بها المتصوفة بالرؤيا التى حظى بها موسى فى جبل سيناء. إن الهدف المسيحى كما يقول القديس (جون كليماكوس) راعى جبل سيناء : « هو العمل الدءوب للحصول على تلك الرؤيا المقدسة عن طريق هذا الجسد الدنيوى ». وحسب اللاهوت الصوفى الذى آمن به القديس «مكسيموس»، إن الروح تهيمن فى النهاية على الجسد بحيث يمكن للفرد أن يصبح إلها عند تخلية عن كل ما هو مادى وبمساعدة روح القدس.

ومن المثير للدهشة أن مفهوم القيامة أكثر روحانية من مفهوم قيامة الجسد التى اعتقد العديد خطأ بأن القديس «مرقس» قد اختتم إنجيله به .

الفصل العاشر

الغــموض الجديــد

إن المخطوطة السينائية محفوظة اليوم فى مكتبة صممت خصيصًا ضد الحريق. وقد نُشر الجزء الأول من القائمة التى تتضمن أسماء المخطوطات فى مدينة (فايزبادن Wiesba-den) عام ١٩٧٠ . كما كان قد نُشر فى وقت سابق فى مدينة (بالتيمور Baltimore) قائمة تتضمن أسماء المخطوطات العربية المدونة بخط اليد والمحفوظة فى دير القديسة «كاثرينا». وقد تم تزويد دير القديسة «كاثرينا» بالأدوات التى يحتاج إليها العلماء لدراسة المخطوطات.

وليس هناك أدنى شك فى أن أية زيادة فى عدد دارسى مخطوطات دير القديسة «كاثرينا» ستعود بالمنفعة على المعرفة الإنسانية أما بالنسبة لى فقد شعرت، عندما كنت جالسًا فى المكتبة أتصفح مخطوطاتها، برغبة بالبقاء إلى الأبد فى الدير لدراسة مخطوطاتها النفيسة. وتضم المكتبة إلى جانب خزانتها المملوءة بالمخطوطات ، خمسة آلاف كتاب مطبوع يعود تاريخ قسم منها إلى السنوات الأولى لظهور الطباعة. وقد شاهدت بين تلك الكتب نسخة من كتاب (الأوديسا) مطبوعة فى فلورنسا عام ١٤٢٨ ميلادية. وقد تضمنت تلك النسخة فراغات تركت كما يبدو لتزيين الكتاب بأحرف ملونه. كما شاهدت طبعة (كريستوفر بلانتن Christopher Plantin) لأعمال القديس جريجورى نازيانوزس St Gregory Of Nazian-zus) وقمت بدراستها.

ويعود تاريخ تلك الأعمال إلى القرن الرابع الميلادى . وكان القديس جريجورى ... Ge-gory Naziauus) قد درس مع القديس (باسيليوس). كما تصفحت أعمال القديس (يوحنا كريسوستوم) وهو راهب من القرن الرابع الميلادى وطبيب الكنيسة التى يرعاها . وقد طبعت أعماله فى (ڤيرونا) عام ١٥٢٩ ميلادية . وأسماء الكتب التى ذكرت فى أعلاه ليست سوى جزء يسير من العديد من الكتب النفيسة الموجودة فى مكتبة الدير . وقد أُضيفَ إلى خزانة الكتب النفيسة هذه ، المخطوطات التى اكتشفها الرهبان. وكان الرهبان قد اكتشفوا المخطوطات فى السادس والعشرين من مايو (آيار) عام ١٩٧٥ وبادروا إلى خزنها فى سبع وأربعين صفيحة حليب فارغة رتبوها بموجب اللغات التى دونت بها تلك المخطوطات وهى : اليونانية والعربية والسريانية والأرمنية والحبشية والجورجية واللاتينية. والعديد من تلك المخطوطات كانت مدونة بالأحرف اللاتينية Uncial(*) .

(*) uncial ١ - ضرب من الحرف اللاتينى نقع عليه فى بعض المخطوطات القديمة
٢ - انشى - منسوب إلى الحرف الأنشى .

ويبدو أنها دونت خلال الفترة الواقعة بين القرن الرابع والثامن الميلادى. وقد درس المخطوطات اليونانية الأستاذان الأكاديميان اليونانيان (لينوس بولايتس Linos Politis) و(أم - أن . باناجيوتاكيس M . N . Panagiotakis) . وقد أعلن هذان العالمان بعد فحصهما للمخطوطات بأن قسماً منها يمثل أهم وأقدم مخطوطات مدونة بأحرف لاتينية حتى الآن. وفى الوقت الحاضر ، يعكف البروفسور (بانايوتس ينكولوبولس Panayotis Nikolopoulos) فى المكتبة الوطنية اليونانية على كتابة تاريخ ووصف للكنوز الجديدة المكتشفة فى دير القديسة كاثرينا. ورغم العناية الكبيرة التى أولاها الرهبان للمخطوطات ، إلا أن جزءاً منها قد ضاع ومن السهل معرفة السبب الذى ساعد على ضياع بعض المخطوطات إذ أن قسماً منها كان مدفوناً لفترة قرنين من الزمن. وعبر قرون عديدة كان كل جزء من الدير يُستخدم لأغراض معينة ثم يعاد استخدامه فى فترات لاحقة لأغراض أخرى . ويمكن للفرد ملاحظة سلالم ضيقة تؤدى إلى جدران مغلقة، مما يعنى إعادة ترتيب واستخدام بعض أجزاء الدير. ولا تزال البكرة التى تستخدم لدفع الزوار والبضائع من أسفل الجدران إلى داخل الدير موجودة حتى يومنا هذا . حيث يجد الزائر نفسهُ عند نقلهُ بواسطة البكرة فجأة بمواجهة ممر ضيق توجد فيه ثلاث بوابات محكمة . وكانت البكرة قد شُيدت عام ١٨٦١ . كما توجد فتحات فى الجدار، يبدو أنها كانت تستخدم لتوجيه السهام على الغزاة. كما توجد فتحات أخرى تُستخدم لرمى النفايات التى تسقط فى حُفَر. كما كانت النفايات ترمى بعض الأحيان على رءوس الزوار غير المرغوب فيهم .

ويوجد فى أحد الجدران خزانة مهملة. كما ثُبتت فى زوايا الجدران أجراس مهملة وتوجد فى إحدى الخلايا مدفأة وأدوات للطبخ ، يبدو أنها كانت تستخدم كمطبخ فى الماضى لإطعام الرهبان الذين اتخذوا من الدير صومعة لهم . وبجانب المطعم توجد غرفة الطعام المشيدة جدرانها على الغوطى. وتؤدى إحدى بوابات المطعم المزينة بأحجار كريمة صغيرة الحجم إلى فضاء خارجى . وإذا ما حاول أى شخص الخروج من تلك البوابة فسيجد نفسه يهوى من حفرة من ارتفاع ستة أمتار ليلاقى حتفه. كما توجد أقواس شيدت لغرض إضافة الناحية الجمالية للدير. ونجد الطرز المعمارية لعدة قرون مختلطة مع بعضها. فمثلاً نُشاهد قبة تتقاطع مع أحد الأقواس القديمة وبجانبها جدار مجصص وحجرة صغيرة محصنة تحتوى على ماكنة لقطع الحجارة . والأجزاء التى كانت مستخدمة فى : الماضى نجدها اليوم مهجورة. ومع ذلك يستمر الرهبان على إضافة أبنية إلى الدير، ويعيدون بناء بعض الأجزاء مستعينين

بعمال للقيام بالعمل. وفى عام ١٧٩٨ هدمت عاصفة الجناح الشمالى من الدير. وقد دفع «نابليون بونابرت» الأموال لإعادة بنائه. وفى عام ١٩٥١ تم تشييد مكتبة وصالة لعرض الأيقونات صممتا ضد الحريق وقد تم تشييدها قرب الجدار الجنوبى للدير. وليس من المستبعد أن يكون الدير قد ضم فى السابق مصهراً للحديد. ويبدو أن الحديد كان يشحن لهم من القاهرة على ظهر الجمال. وتوجد أنابيب جديدة فى الدير تم شراؤها لتشييد مجارى جديدة فى خلايا الرهبان. وعند إعادة بناء الخلايا سيتم الحفاظ على المظهر الخارجى للخلية . ويقوم الرهبان اليوم بتشييد غرف حديثة لاستقبال الزوار .

وقد حلت وسائل البناء الحديثة محل الوسائل القديمة التى كانت مستخدمة فى الماضى وكانت الطريقة التقليدية التى جيء بها من (الدورجون Dordogn) فى فرنسا تتمثل بتشييد البناء بقطع حجارة وتملأ الفراغات بالطين ثم يُغطى الجدار بطبقة جصية. أما اليوم فيستخدم الأسمنت بدلاً من الحجر والطين. إذ يمكن للفرد مشاهدة خلاطة الأسمنت خارج الدير. ولا يغتسل الرهبان اليوم فى المغطس الحجرى الذى يقع بالقرب من بئر موسى. كما أهمل الرهبان المصنع الذى كانوا يستخرجون فيه زيت الزيتون من ثمار الزيتون الذى تنتشر أشجارة فى الدير .

وخلاصة القول أن دير القديسة كاثرينا ما يزال يمثل مركزًا حيًا للحجاج حتى بعد مرور ثلاثة عشر قرنًا على تشييده، رغم التغييرات التى طرأت عليه فى الداخل، فقد أهمل الرهبان العديد من المرافق التى كانت مشيدة فى عهد الإمبراطور «جوستينيان». وخلال مكوثى فى الدير اصطحبنى رئيس أساقفة الدير (داميانوس) إلى الغرفة التى عثر فيها على المخطوطة السينائية عام ١٩٧٥ والتى تقع بالقرب من الجدار الشمالى. وتمكنت من مشاهدة آثار الحريق الذى أتى على مذبح القديس (جورج) موجودة على ثلاث نوافذ. وشرح لى رئيس الأساقفة السبب الذى دفع بالرهبان إلى إخفاء المخطوطة السينائية فى تلك الغرفة، التى كانت تقع بالقرب من غرفة المقدسات. وحتى القرن الثامن عشر ميلادى، كانت الغرفة جزءاً من مكتبة الرهبان. وعندما تم نقل المكتبة إلى قاعة أخرى لأسباب فرضتها الظروف فى ذلك الحين، تركت بعض المخطوطات فى تلك الغرفة .

والأسباب التى دعت إلى نقل المكتبة إلى قاعة أخرى هى :

أولاً – وضع المخطوطات التى كانت مدونة بلغات أخرى غير اللغة اليونانية – مثل اللغة السلافية والسريانية – جانبًا لأنها أصبحت غير ذات فائدة بالنسبة للجالية اليونانية التى كانت تقطن الدير .

ثانياً – فى الأيام الأولى التى مضت على تشييد الدير كانت صفحات الكتاب المقدس تقرأ جميعها خلال الدروس وطقوس العبادة . وعندما وجد الرهبان أن قراءة جميع صفحات الكتاب المقدس خلال الحصص الدراسية ترهق الطالب بادروا إلى تحضير ملازم تحتوى على فقرات من الكتاب المقدس ، إذ تتم قراءة كل ملزمة فى وقتٍ معين .

ثالثاً – يعتقد رئيس الأساقفة (داميانوس) بأن بعض المخطوطات قد تركت فى تلك الغرفة عندما تم نقل المكتبة، لحاجة تلك المخطوطات إلى صيانة وإعادة تجليد. وقد دُفنت مجموعة المخطوطات برمتها عند سقوط سقف الغرفة عليها .

وأخبرنى رئيس أساقفة الدير (داميانوس) بأنه قد يظن بوجود بعض المخطوطات فى تلك البقعة من الدير. كما أخبرنى بأنه بعد اندلاع الحريق قام الرهبان بتنظيف المكان وعندما عثر أحد الرهبان على المخطوطة الأولى، بدأ الرهبان بتنظيف المكان بشكل علمي. وقضوا شهراً كاملاً فى التنقيب والبحث عن شذرات الرقوق، التى قاموا بترميمها وتنسيقها. وقال (داميانوس) : « لقد كان قسم منها فى حالة سيئة جداً » .

والطقس فى جبل سيناء مناسب للحفاظ على المخطوطات والأعمال الفنية. وما زالت الكنيسة التى شيدها معماريو «جوستينيان» داخل الدير، محافظًا عليها بشكل جيد. ليس أبوابها التى يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادى فحسب ولكن الخزانات الخشبية الثلاثة عشر المحفورة والمصبوغة باللونين الأحمر والذهبى ، ويبدو خشب الصنوبر الذى جيء به من لبنان لصنع الأبواب بحالة جيدة كما كان عليه قبل ألف وأربعمائة سنة. ويبدو أن الطقس الجاف الذى حافظ على الأبواب الخشبية، قد حافظ على المخطوطات النفيسة المحفوظة فى دير القديسة كاثرينا . ويبدو أنها لم تتعرض للتلف بسبب الرطوبة أو القوارض. صحيح أن قسماً منها قد تجعد بسبب جفاف الطقس ولكن بصورة عامة يمكن القول بأن المخطوطات والأعمال الفنية قد تم الحفاظ عليها بشكل جيد . كما كان للرهبان دور فى الحفاظ على تلك المخطوطات وذلك عندما قاموا بحفظها فى أماكن معتمة حتى لا تؤثر عليها أشعة الشمس .

وفى عام ١٩٧٥، قرر الرهبان الحفاظ على مخطوطاتهم من العلماء الأجانب. وقد دفعهم وضعهم الحساس لأن يكونوا أكثر حذراً إذ كانوا يقطنون فى أراضٍ مصرية محتلة من قبل إسرائيل. وليس هناك شك فى أنهم بادروا إلى إخفاء مكتشفاتهم بعد أن قام «تشيندروف» بنقل المخطوطة السينائية من الدير. وقد صنف الرهبان مكتشفاتهم التى بادروا إلى حفظها فى سبع وأربعين علبة صفيح (علب حليب فارغة) . كما أنهم عثروا على

شذرات من المخطوطة السينائية وبادروا إلى إخفائها فى مكان آخر. كما عكفوا على تنظيف شذرات الأيقونات المهشمة، التى عثروا عليها فى الغرفة، معتقدين بأن تاريخها يعود إلى القرن السادس الميلادى، ولكن اعتقادهم هذا كان خاطئًا كما تبين فيما بعد. وبسرية تامة بادر رئيس أساقفة الدير بإبلاغ وزارة الثقافة والعلوم اليونانية بمكتشفهم الجديد. وقد طلب البروفسور (ك. ترايبانياس K . Trypanis) وزير الثقافة اليونانى آنذاك من البروفسور (لينوس بولايتس Linos Politis) أحد خبراء البيليوجرافيا زيارة جبل سيناء لفحص ودراسة المكتشفات الجديدة فى دير القديسة كاثرينا . وبادر البروفسور (بولاتيس) بدوره إلى طلب المساعدة من البروفسور (أن . أم . باناجيوتاكيس N . M . Panagiotakis) المتخصص فى أداب القرون الوسطى . وفى يوم ٢٩ سبتمبر (أيلول) فى عام ١٩٧٥ سافر الخبيران إلى القدس عن طريق تل أبيب، حيث التقيا برئيس أساقفة دير القديسة كاثرينا (داميانوس) وفى يوم إثنين من أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٧٥ كان الخبيران اليونانيان داخل دير القديسة كاثرينا. وسمح لهما بالإطلاع على الوثائق المكتشفة حديثًا بعد أن أقسما بالحفاظ على سرية الوثائق وعدم نشر أى شىء حولها. ورغم القسم الذى قطعه العالمان اليونانيان أمام الرهبان بعدم البوح بأية معلومات حول الوثائق والمكتشفات التى سيطلعان عليها، فقد لاحظا حذرًا يشوب تعامل الرهبان معهما. إذ قام الرهبان على سبيل المثال، بإخفاء المخطوطات النفيسة المكتشفة حديثًا، وتحديد فترة بقائهما بثلاثة أيام فقط . وورد فى مذكرات (بولاتيس) التى سجلها خلال مكوثة فى الدير ما يأتى : «لقد كان الرهبان مشغولين بمهامهم اليومية فلم يبدوا المساعدة التى كنت أتوقعها. فقد قضيت ثمانى ساعات فقط خلال فترة مكوثى فى الدير التى حددت بثلاثة أيام فى دراسة الوثائق وقد قمت بدراسة تلك الوثائق فى ظروف غير مناسبة إذ كانت الإضاءة ضعيفة والمكان غير مناسب للعمل والدراسة » .

كما لم يُسمح للخبيرين اليونانيين بالإطلاع على جميع الوثائق التى كانت محفوظة فى علب الصفيح إذ سُمح لهما الإطلاع على خمس وعشرين علبة صفيح من مجموع سبع وأربعين. وقد أخبرهما حافظ غرفة المقدسات الأخ الدينى (سوفردينوس) بوجود عدد آخر من علب الصفيح التى تحتوى على وثائق .

وكرس العالمان اليونانيان (بولاتيس) و (باناجيوتاكيس) وقتهما لدراسة المخطوطات اليونانية فى المكتشفات الجديدة التى كان يحتفظ بها الرهبان فى علب الصفيح. وتمكنا من التقاط صور لبعض تلك المخطوطات رغم الصعوبات التى واجهتهما.

وبادرا إلى فرز المخطوطات المكتوبة على الورق العادى. كما قاما بتصنيفها بموجب الحقبة التاريخية ونوع الخط. وخلال دراستهما للوثائق والمخطوطات اكتشفا شذرات من البردى بعضها مدون باللغة اليونانية والقسم الآخر مدون باللغة العربية، ملصق بعضها مع البعض الآخر ومستخدمه كغلاف لإحدى المخطوطات. وكان العالمان على علم بأهمية المادة التى بين أيديهما. وآمنا بضرورة الحفاظ على الوثائق والمخطوطات النفيسة. ولم تدر بذهنهما فكرة نقلها من دير القديسة كاثرينا كما فعل «تشيندروف» .

وكتب البروفسور (بانا جيوتاكيس) يقول : «لقد تم اكتشاف المخطوطات فى دير القديسة كاثرينا ، لذا فإن ملكيتها تعود إلى الدير » .

وأخذ البروفسور (بانا جيوتاكيس) جانب الحذر عند توضيحة هذه النقطة إذ قال : «ليس هناك من شخص يرغب بمطالبة الدير بالكنوز، كما أنه ليس هناك من شخص يختلف حول عائدية تلك الكنوز حتى لو اعتبرنا وجهة النظر القائلة بأن الرهبان فى هذه الحالة، كما هو علية الحال فى حالات مشابهة، هم ليسو المالكين المستبدين بل حافظون لتلك الكنوز التى سلمت إليهم بمرور الزمن منطقية. وستظل الحقيقة القائلة بأن تلك الكنوز مرتبطة تاريخياً بالمكان قائمة، وعليه يجب عدم التفكير بنقلها من الدير. ويبدو أن البروفسور (بانا جيوتاكيس) أراد بتفسيره هذا بعث الإطمئنان فى قلوب الرهبان وجعلهم يثقون بالعلماء اليونانيين .

وعليه ، فهناك حاجة للحفاظ على المكتشفات الجديدة فى مكانها الأصلى. وبهذا الصدد قال البروفسور (بولايتس) : «من حسن الحظ أنهُ تم الحفاظ على المكتشفات بشكل جيد رغم دفنها فى التربة محفوظة فى علب الصفيح لأكثر من قرنين . ويعود الفضل فى ذلك إلى جفاف التربة فى مرتفعات سيناء وكان هناك احتمال تلف الرقوق لو كانت محفوظة فى تربة أخرى تختلف عن تربة جبل سيناء » .

وأضاف : «ولكن جفاف المنطقة أصبح يشكل خطراً الآن على المخطوطات. حيث تقلصت العديد من تلك الرقائق وأصبحت صلبة ، ومن ثم فإن صيانتها بشكل علمى واجبة».

وبناء على تقرير (بولاتيس) ، بادرت وزارة الثقافة والعلوم اليونانية إلى إرسال أمين قسم المخطوطات فى المكتبة الوطنية فى أثينا ويدعى (بانايوتيس ينكولوبولس Panayotis Nikolopolous) مع خبيرين مختصين فى صيانة المخطوطات ، إلى سيناء لدراسة إمكانية

صيانة تلك المخطوطات الثمينة. وقام (نيكولوبوس) بزيارة الدير بصحبة الخبيرين عامى ١٩٧٦ و١٩٧٧ .

واليوم ، يُسمح لعدد كبير من الزوار بالإطلاع على أسرار الدير ، بعد أداء القسم بعدم إفشاء أسرار ومحتويات المخطوطات. وسرعان ما ستتسرب تلك الأسرار إلى الخارج وليس بالضرورة عن طريق العالمين اليونانيين أو عن طريق الدكتور (نيكولوبولس) وبعثته فى أوائل عام ١٩٧٨ زار البروفسور (أس . أوجريدس S . Agouvidis) الأستاذ فى جامعة أثينا، الدير وسمح له بالإطلاع على المكتشفات الجديدة. وسرعان ما سرب الأخبار إلى البروفسور مارتين هينيجل Mantiu Henegel) الأستاذ فى جامعة (توبنجن) فى ألمانيا الغربية، الذى بادر بدوره إلى تسريب الأخبار إلى صديق له . وفى يوم الثالث من ابريل (نيسان) فى عام ١٩٧٨ نشرت صحيفة (فرانكفورتر زايتونج) التى تعتبر من كبريات الصحف فى ألمانيا مقالاً بقلم (كارل الفريد أودن) كتب فيه سرداً دقيقًا للمكتشفات الجديدة فى جبل سيناء وقد عقب البروفسور (باناجيوتاكيس) على ذلك بقوله : « والآن ظهرت مكتشفات جبل سيناء إلى النور »

ولم تختف المغالطات القاسية من العالم الأكاديمى بموت «تشيندروف». ففى الوقت الذى اتهم فيه العلماء الأوروبيون العلماء اليونانيين بعدم المسئولية فى عدم المحاولة بالاحتفاظ بالمخطوطات لأنفسهم ، أعرب علماء آخرون بشكوكهم حول كفاءة العلماء اليونانيين فى معالجة موضوع المكتشفات الجديدة فى دير القديسة كاثرينا .

وفى يوم السادس والعشرين من إبريل (نيسان) نشرت الصحف اليونانية خبرًا لوكالة أنباء الأسوشيتيد بريس ورد فيه أن البروفسور (كورت الآند) حث العلماء اليونانيين على التخلى عن عملهم فى مخطوطات دير القديسة كاثرينا. وجاء فى الكلمات المنسوبة إليه : «يتعين على شخصٍ ما إبلاغهم بأن ما يحدث يمثل فضيحة ثقافية » .

ونفى مدير معهد البحوث المختص بالعهد الجديد البروفسور (كورت الآند) فيما بعد ما نُسب إليه . ولم يأت نفيه قبل إفصاح البروفسور (بولاتيس) عن رأيه عندما قال : «أنه غير مقبول لوقاحته وصفاقته». وسارع اليونانيون للدفاع عن أنفسهم. وأشار البروفسور (بولاتيس): « يوجد فى اليونان أكاديمية أثينا ومراكز البحوث الخاصة بها وأربع مدارس فلسفة ومدرستان للاهوت ومراكز للدراسات البيزنطية منتشرة فى(أثينا) و (ثيسالوينسكى).

وجاء فى تصريح للبروفسور (باناجيوتاكيس) قوله : «يتعين عدم تشجيع المبادرات الفردية سواء تلك التى يقوم بها أفراد أم مؤسسات».

وجاء فى أقواله أيضًا : « ولا أعنى هنا أفرادًا أو مؤسسات يونانية » .

وفى ذلك الوقت كان الحماس القومى على أشده ، إلا أن الألمان برهنوا هذه المره . على كونهم دخلاء غير بارعين رغم الامتعاض الذى أظهرهُ «تشيندروف» من طرق العلماء الإنجليز اللصوصية .

وبهذا الصدد كتب البروفسور (باناجيوتاكيس) يقول : أؤكد مرة أخرى على ضرورة إبقاء المبادرة لتنظيم دراسة المخطوطات بأيدى اليونانيين » .

وأعلن أنه : « سيكون من المدهش حقًا إذا أخذ العلماء اليونانيون على عاتقهم مهمة نشر محتويات المكتشفات الجديدة». مدعيًا أنه لا يوجد عدد كاف من العلماء فى اليونان لتحقيق المخطوطات اليونانية المكتشفة حديثًا، إذا ماتم صرف النظر عن المكتشفات المدونة بلغات أخرى غير يونانية . وعقب قائلاً : «إنى آسف لتصريحى هذا إلا أنه ليس بصالح أية جهة إذا أعلنا بصوت عالٍ عن قابليات علماء اليونان الذين لا تؤهلهم مكانتهم لدعم ادعاءاتنا». واقترح (باناجيوتاكيس) قيام الحكومة اليونانية بدعوة مركز البحوث المختص بتاريخ النصوص فى باريس والمعهد المختص بالرقوق فى أثينا ومركز الدراسات البيزنطية فى (دمبارتون أوكس Dumborton oaks) للتعاون فيما بينهما لتحقيق نصوص المكتشفات الجديدة. وأضاف قائلاً: «ربما يمكن إقناع بعض تلك الهيئات المساعدة فى تمويل المشروع». وأضاف أيضًا : «لم تكن القومية العقيمة المتكبرة من صفاتنا القومية فى يوم ما ويجب ألاّ يكون لها محل فى مثل هذه الحالة » .

ولم تجسد المقالة المنشورة فى صحيفة (زاتيونج) الوضع كما جاء فى وصف البروفسور «الآن جبن» القائل : «تحاول جميع الأطراف الوصول إلى المخطوطات». فحسب بل أقنعت العالمين (بولاتيس) و(باناجيوتاكيس) بكونهما فى حل من الآن فصاعداً من القسم الذى قطعاه على نفسيهما بالحفاظ على سرية المعلومات. وبهذا الصدد كتب البروفسور (بولاتيس) يقول : « لقد أقسمنا على عدم الإفصاح بأية معلومات نطلع عليها، من اللحظة التى يراها الآباء المقدسون أنفسهم ملائمة للإفصاح عنها. » ولقد حافظ كلاهما على القسم الذى قطعاه على نفسيهما، رغم أن مثل هذا السكوت المفروض عليهما يتعارض مع واجبهما الرئيسى كعالمين والذى يحتم عليهما الإعلان عن مكتشفاتهما أمام العالم الأكاديمى (ويتفق هذا التباين مع سلوك «تشيندروف» حول مصدر المخطوطة السينائية) .

واستمر «بولاتيس» قائلاً : « وعلى أية حال، وبعد تسرب المعلومات من مصادر أخرى، نعتقد بأننا أصبحنا فى حل من قسمنا » وكان المقال قد ظهر فى صحيفة (زايتونج) فى بداية

شهر ابريل (نيسان). وقبل نهاية شهر مايو (أيار) كتب (بولاتيس) و (باناجيوتاكيس) في الصحف اليونانية عن أعمالهما في المخطوطات المكتشفة حديثًا. وكان الرهبان في دير القديسة كاثرينا بطيئيّ الحركة في هذا المضمار . ففي أكتوبر (تشرين الأول) من عام ١٩٨١، أعلن رئيس أساقفة الدير دامينوس أمام المؤتمر الدولي البيزنطي المعقود في فينا بأنهُ سيكون بمستطاع العلماء الأكفاء الإطلاع على المخطوطات المكتشفة - حديثًا - وحتى ذلك الوقت لا يمكنهم الإطلاع عليها قبل قيام الدير بإصدار دليل خاص بها يضم أسماء المخطوطات. ولا تزال المخطوطات، حتى هذا اليوم، بعيدة عن متناول يد العالم الخارجي .

ماذا كانت فحوى تلك المخطوطات ؟ لا يعرف أحد حتى الرهبان أنفسهم حتى الآن محور تلك المخطوطات وبهذا الصدد قال البروفسور (باناجيوتاكيس) : إن دراسة المخطوطات تحتاج إلى دراسة عميقه لفترة طويلة من الزمن وجهد من قبل عدد لا بأس به من الأخصائيين وأدوات مناسبة صُنعت خصيصًا لدراسة المخطوطات. ومن بين المخطوطات التي عُثر عليها عام ١٩٧٥، توجد وثيقة يعود تاريخها إلى عام ١٧٥٠ ، ويعني ذلك أن التقعر في سقف الغرفة قد حدث في أواخر القرن الثامن عشر . ومن بين الوثائق القديمة توجد شذرات من المخطوطة السينائية ومخطوطات أخرى مدونة في فترات لاحقة. ويبدو أن قسمًا من المخطوطات وصل إلى الدير من أماكن أخرى، والقسم الآخر دوّنه خطاطو الدير أنفسهم. وقسم من تلك المخطوطات يعود تأريخه إلى تاريخ تشييد الدير نفسه. وتحتوي إحدى المخطوطات، التي يعود تاريخها إلى القرن السابع الميلادي، على كتابات القديس (جون كليماكوس). وهذا يعني أن المخطوطة دونت في فترة القديس (جون كليماكوس) نفسه. ويبدو الأكاديميون على ثقة (بإمكان إلقاء تلك المخطوطات أضواء جديدة على التاريخ القديم للحضارة المسيحية، رغم عدم الإلمام بعد بفحوى تلك المخطوطات. ولقد تمكنت البعثة التي توجهت إلى جبل سيناء برئاسة (نيكولوبوليس Nikolopoulis) من التعرف على ست وثلاثين شذرة من البردي، استخدمها في فترات لاحقة لتجليد الكتب. كما تمكنت البعثة من العثور على تسع عشرة شذرة من البردي مدونة باللغة اليونانية وألف ومائة وثمان وأربعين مخطوطة دون قسم منها على البردي والقسم الآخر على الورق العادي. وقد لاحظت البعثة أن ثلاثمائة وخمس مخطوطات من مجموع المخطوطات الألف والمائة والثمان والأربعين كانت سليمة وأعني هنا سليمة بصورة كاملة . كما لاحظت البعثة بأن ثمانمائة وستًا وثلاثين مخطوطة قد دونت باللغة اليونانية - وتظهر بقية المخطوطات الصفة العالية التي تميز بها دير القديسة كاثرينا في القرون الأولى

من تشييده . إذ احتوت المكتشفات على مخطوطات دونت باللغات العربية والسريانية والسلافية والأرمنية والحبشية والعبرية واللاتينية .

وأعتقد فى حينه وربما حتى هذه اللحظة بأن انعدام العلاقة أو الصلة بين دير القديسة كاثرينا والعالم الكاثوليكى المسيحى قد أدى إلى اختفاء المخطوطات المدونة باللغة اللاتينية من الدير. كما عثرت البعثة على شذرات نادرة احتوت نوتات موسيقية. ولفترة قرنيين. ضم هذا القبو المهجور المشيد بالقرب من جدار الدير كنوزًا نفيسة لا تقدر بثمن. وعليه، فليس من المستغرب أن يصف البروفسور (باناجياتوكيس) المكتشفات بكونها أعظم اكتشاف آثارى فى هذا القرن. وتعطينا فصول الأناجيل والمزامير والتقاويم وطقوس القرابين المقدسة معلومات قيمة عن طريقة عبادة المسيحيين الأوائل . ويضم الكنز كلمات الآباء المسيحيين الأوائل للكنيسة مثل القديس (يوحنا كريسوستوم St . Jonn Chrysostom) . كما عُثر على أعمال وثنية مثل ثمانى صفحات من كتاب الإلياذة «لهومر» وأربع صفحات من طبعة تعود للقرن العاشر الميلادى من مؤلفات «أرسطو» .

وبطبيعة الحال ، تتباين اهتمامات الأكاديميين مع اهتمامات البشر العاديين. ورغم ذلك، يمكننا أن نلاحظ الغبطة التى شعر بها العالم الأكاديمى عند الإعلان عن تلك المكتشفات الجديدة . إذ لم يتم العثور من قبل على مثل هذه الثروة القيمة من المخطوطات المدونة بالحروف اللاتينية مثل تلك المخطوطات التى عُثر عليها فى دير القديسة كاثرينا .

ويحاول المؤرخون معرفة جواب عن تساؤل يبدو بأذهانهم حول الطريقة التى تحولت بها الكتابة من الأحرف الكبيرة إلى الخط المستخدم اليوم. يعتقد البروفسور (لينوس بولاتيس) بأنه ربما طرأ التغير فى الكتابة أول مرة فى دير القديسة كاثرينا معتمداً فى رأيه هذا على المكتشفات الجديدة .

ولفترة طويلة، اختار العلماء الأكاديميون بتفسير الفجوة الكبيرة الموجودة فى مصادرنا حول التاريخ البيزنطى الممتد من (٦٥٠ – ٨٥٠) ميلادية. واليوم، تمكن الاستعانة بالعديد من المخطوطات المكتشفة فى دير القديسة كاثرينا لملء تلك الفجوة .

ويرغب نساء ورجال القرن العشرين اليوم فى معرفة ما إذا كان هذا المكتشف الجديد سيغير من فهمنا للعقيدة المسيحية نفسها. وعند تحدثى مع رهبان الدير حول الموضوع، حاولوا إخفاء أهمية المكتشفات أو التقليل من شأنها. إذ قالوا لى : إنه رغم أهمية هذا

الاكتشاف، إلا أنه يتعين عليك عدم توقع العثور على نص غير معروف مضمونه حتى الآن صحيح أنهُ تم العثور على شذرات من القرون الأولى للحقبة المسيحية، إلا أن المكتشفات لا تحتوى على إنجيل جديد يمكن مقارنته بإنجيل «توما» على سبيل المثال. ولا تحتوى المكتشفات على مخطوطة يمكن مقارنتها برقوق البحر الميت. وبهذا المعنى فإن الأسرار الجديدة المكتشفة فى جبل سيناء لا يمكن وصفها بالنورية وأعنى بهذا أنها سوف لا تُثير ضجة» .

ولا أتفق شخصياً مع رأى الآباء الدينيين. إذ استغرقت معرفة التأثير الكامل للمخطوطة السينائية على فهمنا لتطور المعتقد المسيحى فترة قرن من الزمن. بينما أجدنى متفقًا مع رأى البروفسور (باناجيوتاكيس) بأن للمخطوطات الجديدة المكتشفة فى جبل سيناء أثرًا كبيرًا ليس على الحضارة القديمة للعالم الذى يتحدث باللغة اليونانية ولكن على حضارة القرون المسيحية الأولى . فقد كتب (باناجيوتاكيس) يقول : « توجد أهمية غير معروفة بعد لهذه المكتشفات ، يمكن أن يكون لها تأثير كبير على تاريخ وثقافة الرعية المسيحية برمتها». ولأجل التوصل إلى أهمية هذه المخطوطات نحتاج إلى فترة من الزمن كما حدث فى المخطوطة السينائية. وأحد الأسباب هو أن العديد من مخطوطات البردى المكتشفة حديثًا قد أعيد استخدامها بعد مسح النص الأصلى. لذا نحتاج إلى فحصها بواسطة أجهزة الأشعة فوق البنفسجية، لنتعرف على النصوص الأصلية التى مُسحت. والسبب الآخر هو أنهُ لم يقم شخص ما بمقارنة نصوص الكتاب المقدس المكتشفة حديثًا مع طبعاتنا الحديثة للكتاب المقدس.

وهناك احتمال اكتشافنا كتابات غير معروفة للقرون المسيحية الأولى فى المخطوطات المكتشفة حديثًا. كما أن هناك احتمالا بالتوصل إلى أسرار للنص الأصلى للكتاب المقدس الذى بين أيدينا اليوم .

وسيتم الكشف تدريجيًا عن قيمة المكتشفات الجديدة فى جبل سيناء ، إذا تمت دراسة المخطوطات وحل رموزها الشرقية (وعددها مائة وعشرون مخطوطة مدونة باللغة العربية وست وتسعون مدونة باللغة السريانية وست وخمسون مدونة باللغة الأرمنية) إلى جانب المخطوطات المدونة باللغة اليونانية . ورغم أن ترجمة المخطوطات الجديدة ستستغرق عدة سنوات لتكون فى متناول يد القراء ، إلا أن النتيجة ستُسرع دون أدنى شك فى إعادة التقييم المعاصر للمعتقد المسيحى.

الخاتمة

في سبعينيات القرن التاسع عشر صرح البروفسور (فيليب شاف) قائلاً : «كان «تشيندروف» محقًا عندما نقل المخطوطة السينائية من جبل سيناء، بما أنهُ لم يكن بمستطاع أولئك الرهبان الجهلة الاستفادة منها من جهة. كما أنهُ لم يكن بمستطاع علماء اللاهوت السفر إلى جبل سيناء لدراسة المخطوطة من جهة أخرى». ولا يمكن إيجاد تبرير لتشويه سمعة رهبان دير القديسة كاثرينا في سبعينيات القرن التاسع عشر . والسفر اليوم إلى جبل سيناء سهل نسبيًا. وقد فتحت كنوز دير القديسة كاثرينا أمام العلماء الأكاديميين . ولكن إذا ما ازدادت أعداد الزوار إلى الدير، فإن ذلك سيغير دون أدنى شك من نمط الحياة في الدير بشكل جذري . إذ أن مهمة الاهتمام بالكنوز القديمة والعلماء المعاصريين في الوقت نفسة تتناقض مع وظيفة الرهبنة . إذ كُرست الأديرة لعبادة الله والتأمل بالخالق – التأمل الذي يعد بالسلام الذي يتجاوز فهم وإدراك الإنسان .

وفي خمسينيات القرن العشرين قام جندي معجب ببلاد اليونان يُدعى (باتريك لي فيرمور) بزيارة دير (بندكتين) في فرنسا ومكث فيه فترة من الزمن. ثم قام بزيارة دير (القديس بطرس في سوليسمز) قبل أن يتوجه إلى أحد الأديرة والذي وصفه بـ : « إنهُ دير غريب يمثل ينبوع النظام المسيحي للطاعة العمياء». وفي هذا الدير وجد (فيرمور) الهدوء والسلام الذي وصفهُ : « بالهدوء الشافي البطيء والمتزايد ». ويفتش رهبان دير القديسة كاثرينا عن الهدوء الذي منحه القديس (باسيليوس) لزملائه الرهبان. وفي الشرق لا تزال تُطلق كلمة (هيسجيا) التي تعني الهدوء أو الهدوء الروحي على الراهب. وقد انتقل هذا المفهوم الذهني من حياة الراهب إلى حياة الرهبان وجاء في أقوال القديس (جون كليماكوس) قوله : إذا كانت ذكرى المسيح حاضرة مع كل همسة ونفس ، فستدرك عند ذاك قيمة العزلة » .

هل تنسجم حياة العزلة والهدوء مع تكريس الحياة للعلم وزيارة مكتبة غنية يؤمها العديد من الأكاديميين العلمانيين ؟

وقد حث القديس (باسيليوس) الرهبان على التزام الصمت عندما قال : «يُساعد الصمت الراهب على نسيان عاداته القديمة في الاسترسال بالحديث حتى لو كان حديثه ممتعًا» كما حثهم على عدم الإكثار من الضحك. وخلال زيارتي لدير القديسة كاثرينا شاهدت بعض الرهبان مستغرقين في الضحك. وفي إحدى المرات حدثت فوضى قرب البوابة الحديدية للدير إذ شاهد الرهبان أحد الزوار البلغار الذي ضل الطريق وحاول التحدث مع (الدجبلجة)، مما أثار حفيظة المسئول عن ضيوف الدير واضطر للإتكاء على أحد جدران الدير من فرط

الغضب . وبعد أن سمح مسئول الضيوف لذلك الزائر البلغارى بالدخول إلى الدير، بادر إلى تعريفه على راهب طاعن فى السن من رومانيا كان يقوم بمصاحبة الزوار من حين إلى آخر إلى قمة جبل سيناء رغم كبر سنه .

وقد أثار منظر الراهب الطاعن فى السن والزائر البلغارى وهما يحاولان التحدث بالإشارات الضحك فى نفوس الرهبان .

ولكن وبصورة عامة يلتزم الرهبان بتعاليم القديس (باسيليوس) وينقطعون عن العالم الخارجى ويحافظون على مسافة روحية مع الآخرين حتى مع زملائهم الرهبان الآخرين . وفى اعتقادى ، أن من شأن ذلك أن يُفسر الصعوبات التى مارسها علماء اليوم فى دير القديسة كاثرينا . فدير مثل دير القديسة كاثرينا البعيد عن الحضارة كما تعرف ، ظل قائمًا عبر قرون عديدة كوحدة متكاملة مكتفية ذاتيًا إذ كان الرهبان يقومون بصهر الحديد وخبز الخبز وزرع المحاصيل واستخلاص النبيذ وصبغ الملابس والأحذية ومداوة المرضى وإصلاح الأبنية وتغير هندستها لأغراض أخرى . وهم يقومون بجميع تلك الأعمال من موارد الدير . وقد أدى تدخل العالم الخارجى إلى ازعاج هذه الوحدة المكتفية ذاتيًا التى تبحث عن السكينة والهدوء والتعبد. وتتضارب الحياة فى الدير مع الطموحات المشروعة للعلماء الأكاديميين الذين يقومون بزيارة الدير بحثًا عن كنوزه النفيسة .

لذلك يشعر الزائر الأكاديمى للدير بانزعاج لعدم إنجازه المهمة التى جاء من أجلها رغم الضيافة التى يظهرها الرهبان نحوه . إذ يحصل الباحث على ثمانى ساعات عمل يوميًا خلال الأيام الثلاثة التى يقضيها فى الدير. والتسهيلات التى منحت للعالمين (بولاتيس) و(باناجيوتاكيس) خلال مكوثهما فى الدير لدراسة الوثائق القديمة المكتشفة حديثًا هو مثال على تناقض حياة الرهبان مع مطالب الأكاديميين. ويبقى رهبان دير القديسة كاثرينا أوصياء بشكل مشروع على جزء مهم من التراث الروحى والحضارى للعالم أجمع. وفى اعتقادى أنهُ يتعين بذل جهد كبير لنقل ذلك التراث من أيدى الرهبان إلى أيدى الأكاديميين ليتم إيصالهُ فيما بعد إلى الآخرين . ولا يوجد عدد كاف من الرهبان فى دير القديسة كاثرينا فى الوقت الحاضر، بشكل يتناسب مع متطلبات العلماء الأكاديميين الذين يرغبون بدراسة تلك الكنوز النفيسة. وهناك إمكانية لإيجاد حل لتلك المسألة وذلك بقيام منظمة اليونسكو بتوظيف أشخاص وتدريبهم وتحمل أجورهم للعمل فى مكتبة الدير. ويجب أن يقوم هؤلاء الأشخاص بالعناية بكنوز الدير وتلبية احتياجات الباحثين الذين يزورون الدير. وإذا حدث تمت إعادة

المخطوطة السينائية إلى الدير، فعلى الرهبان المشغولين فى صلواتهم التجاوب والتعاون مع متطلبات العالم المسيحى والعالم الأكاديمى. كما يتعين على الأشخاص الذين سخرتهم حياة الدير من أمثالى تجنب إضافة المسحة الرومانسية على الدير، إذ عاد بعض الأكاديميين وهم خائبو الآمال لفشلهم فى الوصول إلى كنوز الدير. وقد وجد آخرون من أمثال (كيرسوب Kirsopp) و (سيلفيا لك Sylvia lake) اللذين تمكنا من إنجاز خمس ساعات عمل يوميًا خلال مكوثهما فى الدير لفترة ستة أسابيع وذلك عام ١٩٢٧ وإن لم يتمكن أى منهما من الكشف عن جميع أسرار الدير، وجدوا الأجواء المحيطة بالدير تتصف بالحميمية. وخلال عودتى من دير القديسة كاثرينا، كان على متن الطائرة الى استقليتها ثلاثة ركاب فقط وبما أنه لم يكن أى منهم على عجلة من أمره . فقد تمكنا من إقناع ربان الطائرة بالتحليق بطائرته فوق الدير. وعند تحليقنا فوق هذا المرتفع الرملى. شاهدنا الطريق وهو يلتف حول الجبل والأشجار التى تنمو حول جوانب الدير وظهرت الجبال خضراء. وشاهدنا الدير بحجره الأحمر والكنيسة داخل جدران الدير الشاهقة محاطًا بتلك الخضرة. وحاولت مشاهدة الغابة المحروقة التى التقى فيها «موسى» بالرب ولكن الطائرة ابتعدت عن تلك البقعة متجهة نحو القاهرة. وساورنى شعور غريب عند تركى كنوزًا نفيسة لم تُنقب بعد .

ويبدو أن الشعور نفسه قد راود (بيير لوتى Pierre loti) عند مغادرته كنيسة الغابة المحروقة بأيقوناتها ومصابيحها الثمينة . فقد شعر بحياة التعبد والحفاظ على كنوز لا تُحصى تعود إلى الأيام الأولى للكنيسة. وكتب يقول : لقد اختفت إمبراطوريات وشعوب ، فى حين ظلت هذه الكنوز الثمينة مختفية فى هذا القبو المظلم. وحتى الرهبان الذين كانوا يصاحبوننى بدا على سيمائهم جمال قدسى يشبه الجمال الغامض المرسوم على سيماء القديسين الأوائل. وبدأ الرهبان بعيدين عنا بعقولهم. وبدت أشعة الشمس التى تنعكس من النوافذ الصغيرة المثبته فى جدران الدير الشاهقة على الأيقونات والفسيفساء كومضة من الأيام السحيقة ومضة من عصر يختلف عن العصر المزيف الذى نعيش فيه » .

وربما كان (بيير لوتى) رومانسيًا أكثر من اللازم. ولقد مرت قرون هادئة وشحيحة بالعطاء مثل القرن الذى عاش فيه وربما تشبه القرن الذى نعيش فيه. ولكن منذ تلك الأيام السحيقه حافظ دير القديسة كاثرينا فى جبل سيناء على كنوز لا تُقدر بثمن للقرن الذى نعيش فيه اليوم ولقرون قادمة. وأخيرًا ماذا عسانا نتوقع العثور عليه هناك أكثر من هذه الكنوز ؟ !

المحتويــــات